
سلسلة الدروس الدينية
في
العقائد الإسلامية
تأليف
ناصر مكارم الشيرازي
منشورات
مؤسسة النور للمطبوعات
ص.ب: ٨٦٤٥
بيروت - لبنان

سلسلة الدروس الدينية في العقائد الاسلامية

تأليف

ناصر مكارم الشيرازي



منشورات
مؤسسة النور للمطبوعات
بيروت . لبنان

مؤسسة النور للمطبوعات
بيروت . شارع المطار . قرب كلية الهندسة ص . ب - ١١/٨٦٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر

إن الأُصـول العقائـديـة في البحـوث التي تهم الجميـع تتميـز بخصـوصية خـاصة ، إذ ان لكـل امرىء ، بمـوجب الأدلة العقليـة والفطرية ، ميوله النفسية والمعنويـة نحو هـٰذا الاتجاه لـذلك يكـون من الضروري طرحها على المستوى العام بين الناس .

ثم إن المجتمعات الإسلامية التي تتمسك بأصول عقـائدهـا ، قـد تواجـه الكثير من المشكـلات إذا ما جـوبهت بأصغـر الشكـوك والشبهات وذلك لعدم تأصل تلك العقائد في نفوسهـا تأصـلاً يستند على الاستدلال المنطقي في إثباتها .

إننـا نؤمن بـأن أُصـول العقـائـد الإسـلاميـة يجب أن تنشـر بمختلف لغات العالم وعلى مختلف الأصعدة والمستويات .

إن هـٰذه مجموعـة العقائـد الخمس التي جاد بهـا قلم آيـة الله نـاصر مكـارم الشيرازي تمتـاز بتلك الخصوصيـة الخاصـة فهي مع استنادها على الاستدلال العقلي ، تتميز ببسـاطة سهلة تجعلهـا في متناول عامة الناس وخاصتهم .

إننا نتوجه إلى الله بالشكر على أن وفقنا لتقديم الترجمة العربية لهذه الدورة العقائدية إلى جيلنا الناطق بالعربية .

ونود بالمناسبة أن نحيط القارىء علماً بأن ترجمة هذه الدورة إلى الانجليزية قد خرجت من المطبعة ، والعمل جارٍ في الوقت نفسه لطبعها باللغات التركية الاسطنبولية والفرنسية والاسبانية وبالأوردية ، بعون الله تعالى ، راجين منه مزيداً من التوفيق .

سلسلة الدروس الدينية في العقائد الإسلامية

القسم الأول

معرفة الله

الدرس الأول :

البحث عن اللّه

لماذا نبحث ونفكّر لمعرفة خالق الكون؟.

معرفة الله :

١ ـ حب الاستطلاع والتعرّف على عالم الوجود كامن في أعماقنا كلّنا .

إننا نريد أن نعرف حقاً : هل هذه السماء الرفيعة بنجومها الجميلة ، وهل هذه الأرض المنبسطة بمناظرها الأخّاذة ، وهل هذه الكائنات المتنوعة ، والطيور الجميلة ، والأسماك الملوّنة في البحار ، والزهور ، والراعم والنباتات ، وأنواع الأشجار السامقة ، هل هي كلها قد وجدت في هذا الكون لوحدها ، أم هذه الصُّوَر العجيبة قد رسمت بيدٍ ماهرة قادرة صانعة؟ .

ثم إننا إذا تجاوزنا ذلك كله ، فإن الأسئلة الأُولىٰ التي تراود خواطرنا في الحياة هي :

ـ من أين جئنا ؟ أين نحن ؟ وإلى أين نحن سائرون؟

ما أعظم سعادتنا لو اننا عرفنا الإجابة على هذه الأسئلة! أي

أن نعرف كيف بدأت حياتنا؟ إلى أين سيكون مصيرنا في النهاية؟ ما الذي ينبغي علينا أن نفعله الآن؟.

إن روح حب الاستطلاع فينا تفرض علينا أن لا نجلس دون حراك حتى نعثر على أجوبة لهذه الأسئلة .

قد يتفق أن يصاب أحدهم في حادث سيّارة ويغمى عليه ، فيؤخذ إلى المستشفى لمعالجته . وعندما يفيق من إغمائه ويتحسن حاله ، يكون أول سؤال يطرحه على من حوله هو : أين أنا؟ لماذا جيء بي إلى هنا؟ متى أخرج؟ وهذا يعني أن الإنسان لا يستطيع أن يلزم السكوت نحو أمثال هذه الأسئلة .

وعليه ، فإن أول ما يحملنا على البحث عن الله ومعرفة خالق عالم الوجود هو روح حب الاستطلاع المتعطشة فينا .

٢ ـ **عرفان الجميل** : لنفرض أنك قد دُعيت إلى وليمة فخمة ، هيأوا لك فيها كل أسباب الضيافة الكريمة والترحيب بك وراحتك . ولكن بما أنك قد حضرت الوليمة بصحبة أخيك الأكبر الذي دعاك إليها ، فإنك لا تعرف مضيفك حق المعرفة . لذلك فأنت عندما تجد كل هذه الحفاوة والتكريم من صاحب البيت ، يكون جلّ همك أن تتعرف عليه لكي تقدم له ما يستحقه من آيات الشكر اعترافاً بجميله .

كذلك هي حالنا عندما ننظر إلى مائدة الخلق الواسعة حيث نجد عليها مختلف أصناف النعم وقد وضعت تحت تصرفنا : عيون ناظرة ، وآذان سامعة ، وعقول ذكية ، وقوى جسمانية ونفسانية متنوعة ، ومختلف سُبُل العيش ، ورزق طيب وطاهر ،

كلّها قد عرضت على هذه المائدة الفسيحة الشاسعة ، فيتجه فِكْرُنا ، دون اختيار ، إلى ضرورة معرفة واهب كل هذه النعم ، لكي نقدم له فروض الشكر ، وإن لم يكن بحاجة إلى شيء من شكرنا ، ونحن ما لم نفعل ذلك نظل نحسّ بالقلق وبأننا نفتقر إلى شيء ما . وهذا محفز آخر يدفعنا للبحث عن الله ومعرفته .

٣ ـ **حساب الربح والخسارة في هذا البحث** : افرض أنك في سفرك قد بلغت مفترق طرق أربعة حيث تسمع الناس يتنادون ان : لا تمكثوا في هذا المكان ، ففيه أخطار كبيرة . إلّا أن كلّ فريق يدعوك إلى سلوك أحد تلك الطرق ، فهذا يقول : أفضل الطرق هذا الذي يتّجه إلى الشرق . ويقول فريق آخر : بل الطريق المؤدي إلى الغرب أكثر اطمئناناً . وفريق ثالث يدعوك إلى طريق وسط بين الطريقين ، قائلاً انه الطريق الوحيد الذي ينجيك من المخاطر ويوصلك إلى حيث الأمن والأمان وكل أنواع السعادة .

فهل يجوز لنا أن نسلك أحد تلك السُبل دون تمعّن أو دراسة؟ أم هل يرتضي لنا العقل أن نمكث هناك دون أن نختار واحداً من تلك الطرق؟ طبعاً لا .

إن العقل ينصحنا بأن نبادر فوراً إلى دراسة الوضع وتمحيص أقوال كل فريق بدقة ، فإذا وجدنا في أقوال أحد الأفرقة دلائل من الصدق والصحة مقنعة أخذنا بها وآتّبعنا الطريق الذي يدعو إليه ذلك الفريق بكل اطمئنان وثقة .

هكذا هي حالنا في هذه الدنيا ، حيث نجد مختلف المذاهب والاتجاهات ، يدعونا كل منها إليه . ولكن لما كانت

سعادتنا وتعاستنا ، وتقدّمنا وتأخّرنا ، منوطة بدراسة هذه الاتجاهات واختيار أفضلها ، فإننا لا نجد بدّاً من أن نفكر في الأمر ، لكي نختار الطريق الذي يؤدي بنا إلى التقدم والتكامل ، ونتجنّب الطريق الذي يُوصلنا إلى منزلق التعاسة والفساد والشقاء .

وهذا دافع آخر يدفعنا لإمعان الفكر في خالق عالم الوجود .

يقول القرآن الكريم : ﴿ ... فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ... ﴾ [سورة الزُمَر ، من الآيتان : ١٧ و١٨]

* * *

فكّر وأجب

١ ــ هل سبق لك أن فكّرت بجد في الله ومعرفته ، غير ما سمعته من والديك؟ .

٢ ــ أتستطيع أن تذكر الفرق بين البحث عن الله ومعرفة الله ؟ .

٣ ــ هل شعرت بنوع من اللذة الروحية العميقة وأنت تدعو الله وتناجيه؟

الدرس الثاني :

معرفة اللّه في حياتنا

١ ـ معرفة الله وتقدم العلوم :

لنفرض أن صديقاً قَدِمَ عليك من سفر وجلب لك معه كتاباً هدية ، وقال لك إنه كتاب ثمين لأن مؤلفه من كبار العلماء ، واسع الاطلاع ، ضليع في موضوعه ويعتبر أستاذاً نابغة .

وبناء على ذلك فإنك لا تقرأ الكتاب قراءة عابرة ، بل بالعكس ، تحاول أن تكون دقيقاً في قراءتك لجمل الكتاب وتعبيراته وحتى كلماته ، وإذا لم تفهم عبارة من عباراته فإنك تقضي الساعات ، وربما الأيام المتوالية ، تعود إلى تلك العبارة كلما واتتك الفرصة لعلّك تدرك معناها ، وذلك لأنك تعرف أن المؤلف ليس شخصاً عادياً ، بل هو عالم كبير لا يكتب كلمة إلاّ بحساب .

ولكن إذا كانوا ، على العكس من ذلك ، قالوا لك إن الكتاب وإن يكن جميل المظهر ، فإن مؤلفه رجل قليل المعرفة ،

ضعيف العلمية ولا يعتمد على أقواله . لا شكّ أنك عندئذٍ قد لا تلقي على الكتاب سوى نظرة عابرة ، وإذا طالعتك جملة غير مفهومة قلت : هذا دليل جهل المؤلف ، وإن الكتاب لا يستحق الوقت الذي يقتضيه المرء في مطالعته .

عالم الوجود هذا أشبه بكتاب ضخم ، كل كائن فيه يمثل كلمة أو جملة فيه . فمن حيث وجهة نظر الإنسان المؤمن بالله ، تعتبر كل ذرة في هذا الكون جديرة بالدرس . إن المؤمن ، وهو في فيض نور عبادة الله ، يباشر بدراسة أسرار الخليقة بكل دقة وتفحص (وهذا ما يساعد على تقدّم العلوم الإنسانية) ، وذلك لأنه يعلم أن خالق هذه الأجهزة والنُظُم لا يدانيه أحد في علمه وقدرته ، وإن لكل عمل من أعماله حكمة وفلسفة ، لذلك فإنه يكون أدق في درسه وأعمق في بحثه ليكون أفضل في درك أسرارها .

أما الإنسان المادي فلا يملك دافعاً يدفعه لدراسة أسرار الخليقة لأنه يعتبر خالقها هو الطبيعة العمياء . أما العلماء الماديون الذين نرى بعضهم في صفوف المخترعين ومكتشفي العلوم فإنهم غالباً ما يعترفون بوجود الله ، وإن أطلقوا عليه اسم « الطبيعة » التي يرون في عملها « نظاماً » و« حساباً » و« تخطيطاً » .

إذن ، عباده الله وسيلة من وسائل تقدم العلوم .

٢ ـ معرفة الله والسعي والأمل :

عندما تظهر الحوادث الصعبة والمعقّدة في حياة الإنسان ، وتبدو الأبواب وكأنّها قد أُغلقت في وجهه من جميع الجوانب

ويحسّ بضعفه ووحدته في مواجهة المشكلات ، يسرع إيمانه بالله إلى عونه ويرفع من قوته المعنوية .

إن المؤمنين بالله لا يرون أنفسهم وحيدين وضعفاء ، ولا ينتابهم اليأس ، ذلك لأنهم يؤمنون بأن قدرة الله أكبر من كل مشكلة ، وأن كل شيء عنده سهل يسير .

انهم يتدرعون بلطف الله وحمايته وعونه ، وينهضون لمقارعة الخطوب والصعاب ، مستفيدين من كل قواهم ، يدفعهم حب الله والأمل فيه إلى الاستمرار في بذل المساعي ، ويتغلبون على الصعاب والمشاكل .

أجل ، فالإيمان بالله سند عظيم للإنسان .
الإيمان بالله مدعاة للثبات والشجاعة .
الإيمان بالله يحيي في القلوب نور الأمل دائماً .

ولهذا لن يرتكب المؤمن جريمة الانتحار ، لأن الإقدام على قتل النفس إنما هو دليل على اليأس والقُنوط النابعين من الإحساس بالهزيمة . المؤمن لا ييأس ولا ينهزم .

٣ ـ معرفة الله والشعور بالمسؤولية :

ثمة أطباء إذا راجعهم مرضى فقراء فإنهم فضلاً عن عدم مطالبتهم إيّاهم بأجرة التطبيب ، يعطونهم ثمن الدواء أيضاً ، بل انهم إن أحسّوا بأن مريضهم في حالة خطرة قضوا الليل ساهرين إلى جانبه في بيته المتواضع . هؤلاء أُناس يخشون الله ويؤمنون به .

غير أن هناك أطباء آخرين لا يمكن أن يتقدموا خطوة واحدة

لمساعدة مريض قبل أن يتقاضوا أجرهم ، وذلك لأن إيمانهم ضعيف .

إن الإنسان المؤمن مهما تكن حرفته يكن شاعراً بالمسؤولية ، ويعرف واجبه ، يعمل الصالح ويكون متسامحاً ، يحسّ دائماً أن هناك في داخله رقيباً يراقب أعماله .

أما الإنسان غير المؤمن فإنه شخص أناني ، عنيد ، خطر ، لا يتحمل أية مسؤولية ، ولا يرى غضاضة في ظلم الآخرين والاعتداء على حقوقهم ، وقلّما يقوم بأعمال صالحة .

٤ ـ معرفة الله والاطمئنان :

يقول علماء النفس إن الأمراض النفسية منتشرة في أيامنا هذه أكثر مما كانت في السابق.

ويقولون إن أحد عوامل هذه الأمراض هو القلق ـ القلق من حوادث المستقبل ، القلق من الموت ، القلق من الحرب ، القلق من الفقر ، والقلق من الاخفاق .

يضيف هؤلاء إلى ذلك قولهم : إن مما يساعد على إزالة القلق من روح الإنسان هو الإيمان بالله ، فكلما سعت عوامل القلق للتطرق إلى نفس المؤمن أبعدها الإيمان بالله عنه ـ ذلك الله الرحيم ، الرزاق ، العالم بأحوال عباده ، الذي يعينهم كلّما اتّجهوا إليه في طلب العون ، ويزيح عنهم دواعي القلق والخوف .

ولهذا نجد المؤمن الحق مطمئن النفس ، لا مكان للقلق في نفسه . وبما أن المؤمن يعمل في سبيل الله ، فإنه إن واجه ضرراً

يتـوجّه إلى الله يـطلب منه دفـع الضرر ، وهـو لا تفارق الابتسـامـة شفتيه حتى في ساحة الوغى .

قـال الله في كتـابـه الكـريم : ﴿ ٱلَّـذِينَ ءَامَنُـوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُـوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ. . . ﴾

[سورة الأنعام، من الآية : ٨٢]

فكّر وأجب

١ ـ أتعرف حكاية من تاريـخ الماضين تبيّن مـظاهر الإيمـان وآثاره التي ذكرناها؟ .

٢ ـ أتعلم لماذا نجد أشخاصاً يزعمون أنهم يؤمنون بالله ، ومع ذلك نراهم بعيدين عن الأخلاق الحسنة ، ولا نرى فيهم أياً من الآثار الأربعة المذكورة ؟ .

الدرس الثالث :

معرفة اللّه بطريقين مؤكدين

لقد كتبت كتب كثيرة منذ أقدم الأزمنة حتى اليوم وجرت بحوث ومساجلات عديدة بين العلماء والمفكرين حول معرفة الله .

كل فريق من هؤلاء اختار للوصول إلى هذه الحقيقة طريقاً خاصاً غير أن أفضل الطرق وأسرعها في إيصالنا إلى مبدأ عالم الوجود طريقان اثنان :

أ ـ طريق من الداخل (أقرب الطرق) .
ب ـ طريق من الخارج (أوضح الطرق) .

نبدأ أولاً بالمرور في أعماقنا لكي نسمع نداء التوحيد من داخلنا وفي المرحلة التالية نسيح في عالم الخليقة الشاسع لنطالع آيات الله في سيماء كل الموجودات وفي قلب كل الذرات . إن في كل من هذين الطريقين بحوثاً مسهبة ، إلاّ أننا سوف نسعى في مقالة موجزة إلى أن نبحث كلاً من هذين الطريقين بحثاً مجملاً .

طريق من الداخل :

دعونا نفكّر في المواضيع التالية :

١ ـ يقول العلماء : إن أي شخص ، مهما يكن عنصره وطبقته ، إذا ترك وشأنه ، دون تعليم أو إرشاد ، ودون أن يسمع آراء كلا المؤمنين والملحدين ، فإنه بذاته يتّجه نحو قوة قادرة قاهرة ترتفع فوق المادة وتحكم الكون بأسره .

إن هذا الإنسان يحسّ أن في أعماق قلبه وزوايا نفسه نداء لطيفاً مفعماً بالمحبة والرحمة ، ولكنه في الوقت نفسه مكين وثابت، يدعوه إلى المبدأ العظيم والقادر العليم الذي ندعوه: الله .

ذلك هو نداء الفطرة الطاهرة !

٢ ـ ولكن قد ينجرف هذا الشخص مع التيار المادي وحركة الحياة اليومية الزاخرة بالبهرجة والزينة ، فينشغل بها مؤقتاً عن سماع ذلك النداء . ولكنه عندما يجد نفسه تواجه الشدائد والمشكلات والمحن ، وعندما تهاجمه الحوادث الطبيعية المرعبة ، كالسيول والزلازل والفيضانات ولحظات القلق في طائرة تتلاعب بها العواصف نعم ، عندما تقصر يده عن الوصول إلى عون مادي ولا يجد ملجأً يلوذ به ، يقوى هذا النداء في داخله ويحسّ أن في كيانه قوة تجتذبه نحوها ، قوة هي فوق كل القوى ، وقدرة غامضة يسهّل عليها حلّ جميع المشكلات بيسر وبساطة .

قليل جداً من الناس من لا يتجه هذا الاتجاه عند مواجهة الأزمات والشدائد ، ولا يتذكر الله دون اختيار . هذا الأمر هو الذي يدلّنا على مدى قربنا منه ، ومدى قربه منّا ، بل إنه في أرواحنا وضمائرنا .

إن نـداء الفطرة مـوجـود دائمـاً في وجـدان الإنسـان ، ولكنـه يقوى في هذه اللحظات .

* * *

٣ ـ يكشف لنا التاريـخ أن رجالاً من ذوي السلطة والمقـدرة كانوا في الأوقـات العاديـة يأنفـون حتى من ذكر اسم الله ، ولكنهم إذا مـا أحسّـوا بـأن قـواعـد سلطتهم أخـذت تهـوي ، وإن قصـور وجـودهم بدأت تنهـار ، راحوا يمـدون يد التـوسّل إلى هـذا المبدأ العـظيم ، لأن نـداء الفـطرة عـاد يـرن في أسمـاعهم بجـلاء من جديد .

يقول التاريخ : عندما شاهد فرعـون نفسه أنـه يكاد يغـرق في الأمـواج المتلاطمـة ، وأن هذا المـاء الذي كـان سبب إحياء بـلاده وأسـاس قوتـه الماديـة ، قد أصـدر الآن حكم الموت عليـه ، وانه عـاجز حتى عن دفـع أمواج هـذا المـاء ، وان يـده قـاصـرة عن أن تنفعـه في شيء ، أخذ يصـرخ عـاليـاً : الآن أعتـرف أن ليس ثمـة معبود سوى إلّـه موسىٰ العـظيم. لقد صـدرت هذه الصـرخة ، في الحقيقة ، من فطرته الباطنية . ولا يقتصر هذا على فرعـون ، فكل من يمر بظروف مماثلة يسمع هذا النداء نفسه .

* * *

٤ ـ أنت نفسـك إذا رجعت إلى أعمـاق نفسـك وجـدت أن هناك نوراً يتلألأ في باطنك ويدعـوك إلى الله . ولعلّك قد صـادفت في حياتك بعض الأزمـات الشديـدة والطرق المسـدودة بحيث أنك يئست من العثور على الحل والعـلاج . لا شك أنـك في مثل تلك الحالات قد خـطرت لك حقيقـة وجود قـوة قادرة في عـالم الوجـود تستطيع أن تحل مشكلتك بكل سهولة .

في تلك اللحظات تشعر أنك قد احتواك أمل يمازجه في داخلك حب ذلك المبدأ العظيم ، وأن ذلك الأمل قد أزاح عن قلبك كل سحب اليأس السود القاتمة .

نعم ، هذا هو أقصر الطرق التي تبدأ من داخل المرء للوصول إلى الله ، بارىء عالم الوجود القدير .

سؤال واحد : قد يخطر لأحدكم أن يسأل نفسه هذا السؤال : ألا يحتمل أن يكون لما تلقيته من المحيط ومن والدي أثر في أن أتوجه هذا الاتجاه في الظروف العصيبة ، فأرفع يدي إلى الله أطلب عونه؟

إن لك الحق في أن يخطر لك هذا السؤال ، ولدينا الجواب المقنع الذي سنورده في الدرس التالي .

يقول الله في كتابه الكريم : **﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾**

[سورة العنكبوت ، الآية : ٦٥]

فكّر وأجب

١ ــ حاول أن تحفظ هذه الآية المذكورة في أعلاه برقمها وسورتها وتفسيرها لكي تتعرف على لغة القرآن تدريجياً .

٢ ــ هل اتفق لك أن واجهت حادثاً معقّداً صعباً بحيث أنك لم تجد حولك من تستعين به سوى الأمل في لطف الله تعالى؟ إشرح ذلك في مقالة أو في خطاب قصير.

٣ ــ لماذا نعتبر هذا أقصر الطرق ؟

الدرس الرابع

جواب سؤال مهم

السؤال :

أدركنا في الدرس السابق أننا نسمع نداء التوحيد وعبادة الله دائماً من داخلنا ، وإن هذا النداء يقوى ويشتد عند مواجهة المشكلات والصعاب ، واننا عندئذٍ نتذكر الله دون اختيار ونستعين بلطفه ومحبته اللانهائيين .

هنا قد يسأل سائل أن هذا الإحساس الداخلي الذي نصفه بأنه فطري ، ألا يحتمل أن يكون نتيجة لما يوحيه إلينا المحيط الاجتماعي وما نتلقاه في المدرسة من المعلمين وفي البيت من الأبوين فأصبح أمره عادة مألوفة؟ .

الجواب :

جواب هذا السؤال يتبين بوضوح بالانتباه إلى مقدمة قصيرة .
إن العادات والرسوم أمور طارئة متغيرة وغير ثابتة . أي إننا لا يمكن أن نعثر على عادة من العادات ظلَّت سارية بين البشر على

امتداد التاريخ . إن العادة السائدة اليوم قد تتغير غداً ، كما أن عادات قوم ورسومهم قد لا تكون كذلك بين أقوام آخرين .

وبناء على ذلك ، إذا رأينا أمراً موجوداً عند كل الأقوام والملل وفي كل عصر وزمان ، بدون استثناء ، أدركنا أنه لا بد أن تكون له جذور فطرية وأنه داخل ضمن تكوين الإنسان ونسيجه .

من ذلك مثلاً تعلق الأُم بوليدها ، فهذا لا يمكن أن يكون نتيجة الإِيحاء أو التلقين ، ولا كونه عادة من العادات ، ذلك لأننا لا يمكن أن نعثر بين قوم من الأقوام ولا ملة من الملل ، ولا في أي عصر أو زمان ، على أم تجفو وليدها ولا تحبه .

بديهي أن هناك استثناءات شاذة نجد فيها أُمَّاً تقضي على وليدها بسبب بعض الأمراض النفسانية ، أو أن نرى أباً من العصر الجاهلي يئد ابنته متأثراً بمعتقدات خرافية غلط . ولكن هذه حالات نادرة سريعة الزوال ، انقرضت من بين الناس وعادت الحالة إلى وضعها الطبيعي من حب الأبوين لأطفالهما .

* * *

بعد هذه المقدمة سنلقي نظرة على قضية عبادة الله بين أُناس هذا العصر وأُناس الماضي :

(بالنظر لكون هذا الدرس على شيء من التعقيد فيرجى ملاحظة ذلك) .

١ ــ يؤكد علماء علم الاجتماع والمؤرخون المشهورون انه ما من زمان مرّ بالبشر دون أن يسودهم ضرب من الدين أو الإيمان بشيء ، فقد كان الدين موجوداً في كل عصر وزمان .

وهــذا دليــل بيّن على أن عبــادة الله تنبــع من فــطرة الإنســـان وضميره ، لا دخل للتلقين والرسوم والعادات فيها ، إذ لـو كان لهـا أي أثر في إيجاد الدين لما كان عاماً ولا خالداً .

هنالك قـرائن تدلُّ علىٰ أن إنســان ما قبـل التاريـخ كان يـدين بنـوع من الدين (عصـور ما قبـل التاريـخ تـطلق على الأزمنـة التي مرَّت على الإنسان قبـل اختراع الكتـابة ، يـوم لم يستطع أن يتـرك وراءه كتابات تدل عليه) .

بـديهي أن الإنسان القـديم البدائي لم يكن قـادراً على تصـور الله وجـوداً فوق الـطبيعة ، لـذلك كـان يبحث عنـه بين الكـائنـات الـطبيعيه ، وراح يصـطنع لنفسـه آلهـة أصنـامـاً من بين الكـائنـات الطبيعية ، ولكن الإنسان بتقدمه الفكري استطاع بالتـدريج أن يعثـر على الحق وأن يشيـح بـوجهـه عن الأصنـام وهي أشيـاء مـاديــة ، ليتـوجه إلى مـا وراء هـذا العـالم المـادي ويتعـرف على قـدرة الله العظيمة .

* * *

٢ ـ يصـرح بعض علمـاء النفس بـأن لـروح الإنســان أبعـاداً أربعة أو أحاسيس أربعة :

أ ــ حس المعـرفـة : وهــو الـذي يحثّ الإنســان على طلب العلم ويثيـر في النفس التعطش إلى التعلم ، سـواء أكـان ذلـك ذا نفع مادي له أم لم يكن .

ب ــ حس الصلاح : وهو مصدر الأخلاق الإنسـانية الصـالحة في البشر .

ج ــ حس الجمال : وهو منشأ ظهور الشعر والأدب والفن بمعانيها الحقيقية .

د ـ الحس الديني : وهو الذي يدعو الإنسان إلى معرفة الله وإطاعة أوامره . وعلى هذا فإن الحسّ الديني ذو جذور أصيلة في الإنسان ، أي إنه لم يفارقه لحظة ولن يفارقه أبداً .

* * *

٣ ــ سوف نلاحظ في البحوث القادمة أن معظم الماديين والملحدين يعترفون بشكل ما بوجود الله ، على الرغم من انهم يمتنعون عن ذكر اسمه الصريح ، وإنما يطلقون عليه اسم الطبيعة أو أسماء أخرىٰ ، ولكنهم يعزون إلى الطبيعة صفات أشبه بصفات الله تعالى .

يقولون مثلاً : إذا كانت الطبيعة قد وهبت الإنسان كليتين فذلك لأنها تعلم احتمال اصابة التلف احداهما ، فتقوم الأُخرىٰ باداء وظيفتها الحياتية ، وما إلى ذلك من الأقوال . فهل ينسجم هذا القول مع طبيعة عمياء ، أم انه ينسجم مع إلّه يتصف بعلم لا نهاية له ، وان اطلقوا عليه اسم الطبيعة؟

* * *

نتستنج مما مرّ بنا في هذا البحث الأُمور التالية :

ــ حب الله كان فينا دائماً وسيكون فينا دائماً أيضاً.

ــ الإيمان بالله شعلة خالدة تدفىء قلب الإنسان وروحه.

لكي نعرف الله لسنا مضطرين للسير مسافات طويلة ، بل علينا أن ننظر في أعماقنا لنجد الإيمان به هناك .

يقـول القـرآن الكـريم : ﴿ . . . وَنَحْنُ أَقْـرَبُ إِلَيْـهِ مِنْ حَبْـلِ الْوَرِيدِ ﴾ [سورة قٓ ، من الآية : ١٦]

* * *

فكّر وأجب

١ ـ هات أمثلة على العادات، وأمثلة على الفطرة.

٢ ـ لماذا كان الجهلاء يعبدون الأصنام؟

٣ ـ لماذا يطلق الماديون اسم « الطبيعة » على الله؟

الدرس الخامس

قصة واقعية

قصة واقعية :

قلنا إن الذين ينكرون الله بألسنتهم ، إنما هم يؤمنون بالله في أعماقهم . لا شك أن نجاحات الإنسان وانتصاراته تثير في نفسه الغرور ، وخاصة إذا كان هذا الإنسان ضيق الأفق . وهذا الغرور يؤدي به إلى النسيان ، بحيث أنه أحياناً ينسى حتى نظرياته . ولكن عندما تتوالى عليه ضربات الحوادث في الحياة ، وتعصف به رياح المشكلات من كل جانب ، تنزاح عن عينيه أستار الغرور ، وتظهر فيه فطرة التوحيد .

إن في التاريخ نماذج كثيرة لمثل هذا الإنسان . وفيما يلي نموذج لواحد من هؤلاء :

كان هناك وزير قدير واسع السلطة ، أمسك بيديه كل أزمة القدرة ، ولم يكن هناك من يستطيع معارضته .

دخل هذا الوزير يوماً إلى مجلس ضم جمعاً من رجال الدين

العلمـاء ، فـالتفت إليهم وقـال بشيء كثيـر من الغـرور : إلى متى تـظلون تقولـون إن للعالم ربـاً؟ إن عندي ألف دليـل يدحض هـذا القول .

وإذ كان العلماء الحاضرون يعلمـون أنه ليس من أهـل المنطق والبرهان ، وانه مغتر بقـدرته بحيث ان أيـة كلمة حق لا تؤثـر فيه ، فـإنهم التـزمـوا الصمت أمـامـه ، ذلـك الصمت المليء بـالمعـاني والازدراء .

بعد ذلك مضت الأيام حتى جاء يوم اتهمت فيه الحكـومة هـذا الوزير ، وألقت القبض عليه وأودعته السجن .

عنـدئذٍ خـطر لأحد العلمـاء الذين حضـروا ذلـك المجلس ان الـوقت قد حـان لكي يستيقظ هـذا الـوزيـر ، بعـد أن تـرجـل عن صهـوة غروره ، وأزيحت عن عينيـه حجب الأنـانيـة ، وتنبهت فيـه مشـاعر تقبـل الحق ، فقد تنفعـه النصيحة . فـطلب من المسؤولين السماح له بمقابلة الوزير ، فأذنوا له . وإذ اقتـرب من زنزانتـه وجد أنـه وحيـد فيهـا ، وهـو يـذرع أرض الغـرفـة جيئة وذهـابـاً مفكـراً ويهمهم ببضعة أبيات من الشعر ، مفادها : اننا أشبـه برسم الأسـد المـرسوم على العلم ، فـإذا هبت الريـح تحرك العلم وبـدا الأسـد وكأنه يهجم ، ولكنـه في الحقيقة لا يفعـل شيئاً ، إنمـا الريـح هي التي تعطيه القدرة على الحركة ، فنحن مهما عـظمت قدرتنـا فإننـا لا نملك شيئاً في ذواتنا . إن الله الـذي منحنا القـدرة قادر على أن يسلبها منا وقتما يشاء .

لاحظ العـالـم أن الرجـل فضلاً عن كـونه لا ينكـر وجود الله ، فـإنه قـد أصبح يعـرفـه حق المعـرفـة . فتقـدم إليـه ، وبعـد تفقـد

أحواله ، سأله قائلاً : أَتَذْكُر يوم قلت إن عندك ألف دليل على عدم وجود الله؟ لقد جئت لأدحض أدلتك الألف بدليل واحد : إن الله هو ذلك الذي سلبك في لحظة واحدة كل تلك القدرة التي كانت لديك . فأطرق الرجل برأسه خجلاً ولم يقل شيئاً ، لأنه كان معترفاً بخطئه بعد أن رأى نور الله في داخله .

يخاطب القرآن المجيد فرعون قائلاً : ﴿ ... **حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ** ... ﴾ [سورة يونس ، من الآية : ٩٠]

* * *

فكّر وأجب

١ ــ اكتب نتيجة هذه القصة في بضعة أسطر.

٢ ــ لماذا سمي بنو إسرائيل ببني إسرائيل؟

٣ ــ من هو فرعون؟ أين كان يعيش؟ وماذا كان يدّعي؟

الدرس السادس

الطريق الثاني لمعرفة اللّه

طريق من الخارج :

بنظرة عابرة إلى هذا العالم الذي نعيش فيه ، ندرك أن عالم الوجود هذا ليس فيه اضطراب ولا ارتباك ، بل إن لجميع مظاهر الحياة خطاً معيناً تسير عليه ، فهي أشبه بجيش ضخم مقسم إلى وحدات منظمة وتتحرك جميعاً نحو هدف معيّن .

النقاط التالية تزيل كل غموض عن هذا الموضوع :

١ ــ لظهور كل كائن ولبقائه حياً في هذا العالم لا بد من تضافر عدد من الظروف والقوانين الخاصة لبلوغ ذلك الهدف . فمثلاً ، لكي تظهر شجرة إلى عالم الوجود ، لا بد من توفر الأرض ، والماء والهواء المناسب ، والحرارة اللازمة ، لكي نزرع البذرة ، فتتغذى ، وتتنفس ، وتخضّر وتنمو . فإذا لم بتوفر هذه الأمور استحال ظهور النبتة ونموّها إلى شجرة . إن تهيئة هذه الظروف والشروط تتطلب عقلاً ومعرفة .

٢ ـ إن لكل كائن خصائص يختص بها دون غيره . فإن لكل من الماء والنار خصائص لا تنفصل عنها وتتبع قوانين ثابتة .

٣ ـ جميع أعضاء الكائن الحي تتعاون فيما بينها ، فجسم الإنسان تعمل أعضاؤه ، بوعي أو بغير وعي ، بإنسجام تام بعضها مع بعض . فإذا ما واجه الجسم خطراً تأهّبت الأعضاء للدفاع . إن هذا الترابط والإنسجام في العمل دليل آخر على وجود النظام في عالم الوجود .

٤ ـ إن نظرة واحدة إلى العالم تكشف لنا أن الترابط والانسجام والتعاون في العمل ليست مقتصرة على أعضاء الجسم الواحد ، بل ان مختلف كائنات العالم تتعاون فيما بينها ، فلبقاء الكائنات تطلع الشمس ، وينزل المطر ، وتهب الرياح ، وتتضافر معها الأرض ومنابعها لهذا الهدف . وهذا دليل وجود نظام معيّن يشمل عالم الوجود كله .

* * *

العلاقة بين « العقل » و « النظام » :

كل امرىء لا بد أن يعترف في نفسه بأن النظام حيثما ظهر كان دليلاً على أن وراءه عقلاً مفكراً وتخطيطاً وهدفاً . فحيثما شاهد الإنسان نظاماً ثابتاً وقوانين معيّنة أدرك أن هناك وراء ذلك مصدراً للعلم والقدرة ، وهو في هذا الإدراك الوجداني ليس محتاجاً إلى الاستدلال حاجة كبيرة .

إنه يعرف ان إنساناً أمّياً أعمى ليس قادراً على أن يضرب على الآلة الكاتبة مقالة اجتماعية جيدة أو نقداً أدبياً ، مثلاً ، أو أن طفلاً في الثانية من عمره لا يمكن له بإمرار قلمه على الورق

عشوائياً أن يرسم لوحة جميلة قيمة . إننا إذا طالعنا إنشاء جيداً أو مقالة رائعة أدركنا فوراً أن خالقها إنسان مثقف متميز بالذكاء والعقل . كذلك إذا شاهدنا في متحف لوحة جميلة جذابة لا نشك لحظة في أن الذي رسمها كان فناناً ماهراً ، على الرغم من اننا لم نر ذلك الفنان بشخصه .

بناء على ذلك حيثما رأينا جهازاً منظماً علمنا أن معه عقلاً وذكاء . وكلما كان ذلك الجهاز أكبر وأدق وأروع كان العقل والعلم اللذين أوجداه أكبر وأعظم كذلك .

لكي يثبتوا أن كل جهاز منظم يحتاج لوجوده إلى مبدأ عقل وعلم ، يستفيدون أحياناً من قانون (حساب الاحتمالات) المعروف في الرياضيات العالية ، فيبرهنون به ، مثلاً ، على أن الشخص الأمي إذا أراد أن يكتب مقالة أو شعراً بمجرد الضغط عشوائياً على مفاتيح الآلة الكاتبة بصورة عفوية وتصادفية ، فإن ذلك ، بحساب الاحتمالات ، يستغرق بلايين السنين ، بحيث لا يكفي حتى عمر الكرة الأرضية لانجاز ذلك ، (للمزيد من التوضيح يمكن الرجوع إلى كتاب « خالق العالم » أو « في البحث عن الله ») .

* * *

يقول القرآن الكريم : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [سورة فُصِّلَت ، الآية : ٥٣]

* * *

فَكِّر وأجب

١ ــ هــات بعض الأمثلة (غيـر التي ذكــرت في الــدرس) على أجهزة صناعية ندرك عند مشاهدتها أن إيجـادها يستلزم وجـود صانع عليم .

٢ ــ مـا الفـرق بين « آفـاق » و « أنفس » ؟ هـات أمثلة على آيـات الله في الآفاق وفي الأنفس .

الدرس السابع

نماذج من نظام الخلق

إن مظاهر « النظام » و « الغاية » و « التخطيط » واضحة في جَميع أرجاء عالم الوجود .

هنا نورد لكم بعض الأمثلة الكبيرة والصغيرة :

إنه لمن حسن الحظ أن نجد أن تقدّم العلوم الطبيعية والكشف عن أسرار عالم الطبيعة وعجائبه ودقائق خلق الإنسان والحيوان والنبات ، وبناء الخلية والذرة العجيب ، ونظام المنظومات الشمسية والنجوم المحير للعقول كلها قد فتحت أبواب معرفة الله أمامنا بحيث نستطيع أن نقول بكل جرأة وثقة بأن جميع كتب العلوم الطبيعية هي كتب في التوحيد ومعرفة الله ، وانها تلقي علينا دروساً في عظمة الله الخالق ، وذلك لأن هذه الكتب تزيح الستار عن نظام الخلق المدهش في هذا العالم ، وتدلنا على مدى عظمة خالق هذا الكون وقدرته .

* * *

١ ــ مقر قيادة مملكة الجسم :

تملأ جمجمتنا مادة رمادية اللون يطلق عليها اسم « الدماغ » . وهذا الدماغ يعتبر أهم أجهزة أجسامنا وأدقها ، لأن وظيفته هي قيادة جميع قوى الجسم الأخرى وإدارة شؤونها .

ولكي ندرك أهمية هذا المركز العظيم ، يحسن بنا أن ننقل إليكم هذا الخبر :

أوردت الصحف خبراً مفاده أن طالباً شاباً من شيراز قد أصيب في حادث سياقة في خوزستان بضربة على رأسه دون أن يصاب ظاهرياً بمكروه آخر في جسمه وكانت أعضاؤه جميعاً سالمة ، ولكن العجيب في أمره أنه نسي كل ما يتعلق بماضي حياته . كان تفكيره سليماً ، يدرك الأشياء ، ولكنه إذا رأى أبويه لم يعرفهما ، وإذا قيل له إن هذه أمّك ، انتابه العجب . أخذوه إلى بيته في شيراز ، وأروه ما كان قد صنعه بيديه من الأعمال اليدوية وعلقها على الجدران ، وقالوا له إنه هو الذي صنع كل هذه الأشياء بنفسه ، فكان يظهر العجب ويقول إنه يراها لأول مرة في حياته .

تبيّن من ذلك أن الضربة التي أصابت دماغه قد أوقفت (الأسلاك) الخلايا التي تربط بين فكره وحافظته ، وكأن عطباً أصاب (الفيوز) الكهربائي في حافظته فغرقت في ظلام تام وأخفت ذكرياته كلها .

ولعلَّ هذا (الفيوز) الذي أصابه العطب لا يزيد حجمه على رأس الإبرة ، ولكن لاحظ مدى تأثيره في حياته . من هنا يتضح لنا مقدار تعقيد جهاز الدماغ وأهميته .

يتألف الدماغ والجهاز العصبي من قسمين متميزين :

١ ـ مجموعة الأعصاب الإرادية التي تسيطر على جميع فعالياتنا الاختيارية ، كالمشي ، والنظر ، والتكلم ، وغيرها .

٢ ـ مجموعة الأعصاب غير الإرادية التي تسيطر على الحركات اللاإرادية ، مثل حركة القلب وتحرك المعدة وغيرهما ، فتدير أعمالها ، بحيث ان إصابة هذا الجانب من الدماغ بعطب يكفي لإيقاف القلب أو أي جهاز لا إرادي آخر عن العمل .

* * *

أعجب أقسام الدماغ :

« المخ » هو مركز الذكاء والإرادة ، والإحساس ، والحافظة . وعلى ذلك فهو من أشد أجهزة الدماغ حساسية ، وإليه يعزى الكثير من ردود الفعل الانفعالية ، كالغضب والخوف وغيرهما .

لو أُزيل مخ حيوان ما ، دون الأضرار بأعصابه ، فإن الحيوان يظل حياً ، ولكنه يفقد كل قدرة على الفهم والإدراك . من ذلك انهم رفعوا مخ أحد الطيور من دماغه ، فبقي حياً ، ولكنه لم يميّز الحب الذي نثر أمامه ولم يلتقط منه شيئاً بالرغم من جوعه وإذا أطلقوه في الهواء كان يطير حتى يرتطم بحاجز فيقع .

الحافظة العجيبة :

من أقسام الدماغ العجيبة الأُخرى هو الحافظة . هل خطر لكم مدى غرابة قوة الحافظة العجيبة؟ وهل فكّرتم كيف سيكون سوء حالنا لو أننا فقدنا حافظتنا ساعة واحدة ؟

مركز الحافظة ، الذي يشكل جزءاً صغيراً من الدماغ ، يحتفظ بجميع ذكرياتنا ودقائقها طوال حياة الإنسان . كل إنسان نتعرف عليه تحتفظ حافظتنا له بجميع خصوصياته ، شكله ، لونه ، ملابسه ، أخلاقه ، نفسيته وكل ما ندركه منه ، فتعد له اضبارة خاصة به . فما أن نراه مرة أخرى حتى تقوم حافظتنا باستخراج الاضبارة الخاصة به وتلقي عليها نظرة شاملة ، وعندئذٍ يرشدنا فكرنا إلى الطريقة التي يجب أن نعامل بها هذا الشخص وكيف يجب أن تكون ردود فعلنا معه . فإذا كان صديقاً احترمناه ، وإذا كان عدواً تحاشيناه . وهذه الأمور تجري بسرعة مذهلة بحيث انك لا تكاد تحس بمرور أي فترة زمنية بين رؤيتك الشخص وظهور رد فعلك ازاءه .

إن غرابة هذه الحالة تتضح أكثر إذا ما شئنا أن نصور ما تحتفظ به ذاكرتنا على الورق أو أن نسجله على أشرطة التسجيل لا شك أننا سنحتاج إلى مقدار كبير من الورق أو الأشرطة قد يملأ مخزناً كبيراً . والأعجب من ذلك هو أننا لاستخراج مصور أو شريط من بين ذلك الحشد نحتاج أن عدد كبير من الموظفين الموكلين بحفظها . غير أن ذاكرتنا تقوم بكل ذلك بسهولة وبكل سرعة .

* * *

الطبيعة غير العاقلة كيف تخلق العقل؟

لقد ألّفت كتب كثيرة في عجائب الدماغ ، مما يمكن الرجوع إلى قسم منها في الكتب المدرسية والجامعية . فهل يمكن أن نصدق بأن هذا الجهاز المعقّد الدقيق والرقيق والغامض

قد صنعته طبيعة فاقدة للعقل؟ بل أشد من ذلك حماقة هو أن نعتبر هذه الطبيعة العديمة العقل هي خالقة العقل!

يقول القرآن الكريم : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

[سورة الذاريات ، الآية : ٢١]

* * *

فكّر وأجب

١ ــ هل تعرف أمثلة أُخرىٰ على عجائب عمل دماغ الإنسان؟

٢ ــ ما التدابير التي أوجدها الله تعالى للمحافظة على دماغ الإنسان إزاء الحوادث المختلفة؟

* * *

الدرس الثامن

عالم عجيب في طائر صغير

عالم عجيب في طائر صغير

نريد في هذا الدرس أن نخرج من مملكة جسم الإنسان الواسعة ، التي لم نكتشف زقاقاً واحداً من مدنها السبع بعد ، لنلقي نظرة على هذه الزاوية أو تلك لألتقاط بعض النماذج لنظام الكائنات العجيب .

نرمي ببصرنا في ليلة ظلماء إلى السماء فيتراءى لنا طائر غريب بين طيات سجف الظلام كشبح غامض يطير جريئاً في كل اتجاه بحثاً عن طعام يتغذى به .

هذا الطائر هو « الخفاش » الذي كل ما فيه يدعو للدهشة والعجب ، وأعجب ما فيه هو طيرانه في الليل البهيم . ان حركة الخفاش السريعة في ظلام الليل بغير أن يرتطم بأي حاجز من أعجب الأمور التي تظهر فيه أسرار جديدة كلما تعمقنا في كشف أسراره القديمة .

يطير هذا الطائر في الظلام بسرعة ودقة قد لا تدانيهما سرعة الحمامة في رائعة النهار . ولا شك انه لولا وجود وسيلة يدرك بها وجود الموانع في مسير طيرانه لصعب عليه الطيران بهذه السهولة .

لو أطلق الخفاش في نفق مظلم كثير الالتواءات والمنعطفات ، وملوث بالدخان، لاستطاع أن يتفادى جميع المنعطفات بغير أن يصطدم بأي منها أو أن تعلّق به ذرة من الدخان .

إن هذه الخاصية العجيبة في الخفاش ناشئة من خاصية أشبه بخاصية الرادار .

فلا بد هنا من معرفة شيء عن جهاز الرادار لكي ندرك وجوده في هذا الحيوان الصغير .

في بحث « الصوت » من علم الفيزياء نقرأ عن أمواج ما وراء الصوت ، وهي أمواج أطوالها وترددداتها من الكثرة بحيث أن أذن الإنسان ليست قادرة على سماعها ، ولهذا السبب أُطلق عليها اسم الأمواج ما وراء الصوتية . فعند انبعاث هذه الأمواج من مصدر مرسل قوي ، ينتشر إلى جميع الجهات ، ولكنها ما إن تصطدم في الجو بمانع أو حاجز، (مثل طائرات العدو أو أي مانع آخر) تعود ، مثل الكرة التي تصطدم بجدار فترتد ، أو مثل الصوت الذي نسمع صداه إذا أطلقناه بين الجبال أو أمام جدار مرتفع وعلى مسافة معيّنة . إن الفترة التي تمضيها هذه الأمواج في الارتداد تفيد في حساب بعد المانع أو الحاجز بصورة دقيقة .

كثير من الطائرات والبواخر تهتدي إلى طريقها بواسطة

الرادار ، فتتجه إلى حيث تشاء ، كما أنها تستفيد من أجهزة الرادار لمعرفة مكان طائرات الاعداء وبواخرهم .

يقول العلماء إن في جسم هذا الطائر الصغير جهازاً أشبه بجهاز الرادار . والدليل على ذلك هو اننا لو أطلقناه في غرفة مظلمة ووضعنا فيها المايكروفون الخاص بتحويل الأمواج فوق الصوتية إلى أمواج صوتية قابلة للسمع ، لامتلأت الغرفة بأصوات مؤذية للسمع ، ويمكن حساب عدد الأمواج التي تصدر من الخفاش وهي تبلغ من ٣٠ إلى ٦٠ مرة في الثانية .

ولكن ترى أي جهاز في الخفاش يصدر هذه الأمواج ؟ أي هما جهاز الإرسال والاستقبال في الخفاش؟

يقول العلماء في الإجابة عن هذا السؤال ان الخفاش يصدر هذه الأمواج عن طريق عضلات حنجرته القوية ويخرجها من منخريه ، وأذناه الكبيرتان هما جهازا الاستقبال عند ارتداد الأمواج إليه .

فالخفاش إذن مدين في جولاته الليلية لأذنيه . يقول عالم سوفيتي اسمه (زورين) ان التجربة قد أثبتت انه إذا قطعت أذنا الخفاش لم يعد قادراً على تحاشي الارتطام بالموانع في الليل ، بينما لا يتأثر طيرانه الليلي مطلقاً إذا أزيلت عيناه أي ان الخفاش يرى بأذنيه ، لا بعينيه . أليس هذا عجيباً؟!

فلنتصور الآن : من الذي أوجد هذين الجهازين العجيبين المحيرين في جسم هذا الحيوان الصغير الحقير؟ وكيف علمه استخدامهما والاستفادة منهما بحيث يستطيع أن يدرأ عن نفسه

الكثير من الأخطار التي تصادفه في طيرانه الليلي؟ أجل ترى من هو؟

أتستطيع الطبيعة العمياء التي لا عقل لها أن تقوم بمثل هذا العمل ، فتخلق في هذا الحيوان ، بكل بساطة ، هذين الجهازين اللذين يبذل علماء العالم مبالغ طائلة لصنعهما؟

يقول الإمام علي (ع) في نهج البلاغة في كلام له مسهب على الخفاش وبديع خلقه : « . . . **لا تمتنع من المضي فيه لغسق دُجُنَّتِهِ . . فسبحان البارىء لكل شيء على غير مثالٍ** . . . » .

(الخطبة رقم ١٥٥)

فكّر وأجب

١ ــ أتعرف معلومات أكثر عن الخفاش؟

٢ ــ أتعلم أن أجنحة الخفاش وطريقة ولادة الأُنثىٰ صغارها ، بل وحتى طريقة نومه تختلف عن الحيوانات الأُخرىٰ ، وانه طائر مختلف عن غيره تماماً؟ .

* * *

الدرس التاسع

صديقان حميمان قديمان

صديقان حميمان قديمان :

من المستحسن أن تـزوروا في أحـد أيـام الـربيـع الـدافئـة البساتين والمزارع الخضر اليانعة . هنالك ستلاحـظون مجموعـات من الحشـرات الصغيـرة ، كـالنحـل ، والـذبـاب الـذهبي ، والفـراشات ، والبعـوض ، وكلها تتـطاير في اتجـاهـات مختلفـة ، تنتقل من زهرة إلى أخرىٰ ومن غصن إلى آخر .

إنهـا منهمكـة في حـركـاتهـا هـذه حتى ليخيّـل إليـك أن قـوة غـامضة تقف على رأسهـا (مثـل صـاحب العمـل مـع عمـالـه) لا تكف عن إصدار الأوامر إليهـا . إن أرجل بعضهـا وأجنحتها تتلوث بالدقيق الأصفر على الزهور فتبدو كـأنها من العمـال الذين يـرتدون رداء العمل الأصفر وهم منشغلون بأداء أعمالهم .

في الـواقع انهـا تقوم بـأعمـال مهمـة فعـلاً ، إن أعمـالهـا من الأهميـة بحيث أن البروفسـور (ليون بـرتن) يقول : « **قلّمـا يعرف الناس انه لولا الحشرات لبقيت سلالنا خالية من الفواكه** » .

ونحن نضيف إلى قوله ذاك قولنا : « **ولفقدت باستيننا ومزارعنا لعدة سنوات ، ما كان لها من خضرة وطراوة** » .

فالحشرات ، إذن ، هي التي تنمي الفواكه وتهيىء بذور الزهور.

لا شك انكم سوف تسألون : كيف ؟ والجواب . هو لأن أهم عمل حياتي في النبات ، وهو عمل « اللقاح » ، يتحقق بمعونة الحشرات . لعلّكم تعلمون أن الأزهار ، كالكثير من الحيوانات ، تنقسم إلى الذكر والأُنثى ، وما لم يتم اتصال وتلقيح بينهما فلن تكون هناك بذرة ولا ثمرة .

ولكن هل خطر لكم أن تفكروا في أقسام النبات المختلفة ، التي لا تحسّ ولا تتحرك ، كيف ينجذب بعضها نحو بعض، وكيف ان المسحوق الذكري ، الذي يمثل (حيامن) الرجل يتحد مع (البيضة) الأُنثوية في النبات كمقدمة للتزاوج؟

هذه العملية في كثير من الحالات منوطة بالحشرات ، وفي حالات أخرى منوطة بالرياح .

ولكن هذه العملية ليست بهذه البساطة التي تبدو لنا ، فهذا الزواج المبارك الميمون الكثير الخيرات ، والذي يتم(بواسطة) الحشرات ، له تاريخ ومراسيم وتطورات طويلة مثيرة للعجب ، سوف نتناول هنا جانباً منها :

صديقان حميمان قديمان :

بعد كثير من البحوث والدراسات ، توصل علماء الطبيعة إلى أن النباتات والأزهار ظهرت في النصف الثاني من العصر

الجيولوجي الثاني . والعجيب أن تلك المرحلة شهدت ظهور الحشرات أيضاً ، ومنذ ذلك اليوم وعلى امتداد تاريخ الخليقة الطويل استمرت النبتة والحشرة صديقتين حميمتين وفيتين ، تكمل احداهما وجود الأخرى .

فلكي تستأثر الزهرة بحب صديقتها الحشرة وتجتذبها نحوها و (تحليّ فمها) كما يقولون ، فإنها تختزن (رحيقاً) عذباً ، طيّب الطعم في داخلها . فعندما تقوم الحشرات بالتنقل من زهرة إلى أُخرىٰ تمهيداً لعملية اللقاح ، تضع أرجلها في الزهرة وتدخلها ، فتُستقبل هناك برحيق حلو لذيذ الطعم بحيث أن الحشرة تنجذب إليه دون اختيار .

يرى بعض علماء النبات أن للون الزهرة ورائحتها دوراً مهماً في اجتذاب الحشرات إليها فقد أثبتت التجارب التي أجريت على النحل قدرة هذه الحشرة على تمييز الألوان والروائح .

في الحقيقة ان الأزهار هي التي تتزين وتتجمل من أجل الحشرات لكي تجلب انتباه الفراشات والنحل التي يعجبها اللون والرائحة والطعم ، فتستقبلها في أحضانها وتهيىء الأمور لعملية الزواج وتتناول طعام العرس أيضاً .

إن (حلاوة) العرس هذه هي من أفضل الطعام للحشرات ، وبخاصة النحل ، وبتراكمه يكثر العسل . فالحشرات عند حضورها حفلة العرس تأكل شيئاً من طعام العرس ، وكالضيف الصفيق، تأخذ بعضاً من ذلك الطعام معها أيضاً إلى بيتها تختزنه فيه .

إن عهد الصداقة بين الزهرة والحشرة ، والقائم على تبادل المصالح المشتركة ، كان كذلك وسيبقى كذلك .

درس في التوحيد :

عندما يلاحظ الإنسان هذه العلاقة العجيبة بين حياة الحشرات والأزهار ، يتساءل دون اختيار : ترى من الذي عقد عهد الحب والصداقة بين الأزهار والحشرات؟

هذه الحلاوة الخاصة والرحيق اللذيذ ، وهذه الألوان الزاهية المختلفة الجذابة ، وهذا العطر المبهج ، من ذا الذي وهبها الأزهار؟ ومن ذا الذي هدى الحشرات إليها ، وجعلها تتذوقها؟

من الذي أعطى لهذه الحشرات، وللفراشات ، وللنحل ، وللذباب الذهبي ، أرجلها اللطيفة الظريفة وجهزها بما يتيح لها أن تنقل لقاح الأزهار من مكان إلى مكان؟ .

لماذا يتجه النحل في فترة معيّنة إلى نوع معيّن من الأزهار؟ لماذا بدأ تاريخ حياة الحشرات والأزهار في وقت واحد في عالم الخلق؟ .

أهناك من يمكن أن يصدق ـ مهما يكن معانداً لجوجاً ـ إن كل هذه الأمور قد جرت على غير خطة موضوعة من قبل؟ أيعقل أن يحدث كل هذا الذي يحير العقول بقوانين عشوائية تضعها طبيعة عمياء لا تدرك شيئاً؟ كلا ، بالطبع !

يقول القرآن الكريم : ﴿ **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً . . .** ﴾

[سورة النحل ، الآيتان : ٦٨ و٦٩]

* * *

فكّر وأجب

١ ـ ما فائدة الرحيق الحلو في الأزهار وألوانها وعطرها؟ .

٢ ـ ماذا تعرف عن عجائب حياة النحل؟

* * *

الدرس العاشر

العوالم الصغيرة جداً

بمـا أننا نعيش في عـالم مليء بعجـائب الخليقـة ونتـربى بين مختلف مظاهرها ، فإننا كثيراً ما نغفل عن مـلاحظة هـذه الكائنـات العجيبة وأهميتها . من ذلك مثلاً :

١ ــ تعيش حوالينا حيوانات وحشـرات صغيرة جـداً بحيث ان جسم بعضها قد لا يتجـاوز المليمتر الـواحد أو الاثنين ، ومـع ذلك فهي كـالحيوانـات الكبيـرة لهـا أطـراف وعيـون وآذان وحتى أدمغـة وذكاء وأعصاب وأجهزة للهضم .

إذا وضعنـا دمـاغ نملة تحت المجهـر وتفحصنـا بـدقـة بنـاءه المحير نجد أنه مما يثيـر العجب حقاً . فهـذا الدمـاغ الصغير يضم أقسـامـاً صفت متجـاورة ، كـل قسم منهـا يسيـطر على جـانب من جسم النملة ، وإن أدنى تغييـر في وضعيتها يصيب جـانباً من جسم النملة بالشلل .

والعجيب في أمـر دمـاغ النملة ، الـذي هـو فعـلاً أصغـر من

رأس الدبوس ، يكمن فيه عالم من الذكاء والتمدن وجمال الذوق والفن ، حتى ان فريقاً من العلماء أمضوا جانباً كبيراً من أعمارهم في دراسة حياة هذا الحيوان ، ودونوا في كتبهم الكثير من عجائب حياته .

ترى من ذا الذي أوجد كل هذا الذكاء والمهارة في هذا الحيوان الصغير؟ أتكون هي الطبيعة التي لا تملك من الذكاء حتى بمقدار رأس الإبرة؟

٢ ــ فلننظر في عالم الذَرَّة : إننا نعلم أن أصغر ما اكتشف حتى الآن في العالم هو الذرّة وأجزاؤها. إن الذرّة هذه من الصغر بحيث أن أعظم المكبرات التي توصف بأنها تكبر القشة لتبدو جبلاً ـ تعجز عن رؤيتها .

إذا أردتم أن تعرفوا مقدار صغر الذرّة ، يكفي أن تعلموا أن قطرة واحدة من الماء تحتوي على عدد من الذرات أكثر من جميع سكان الأرض قاطبة . وإذا أردنا أن نحسب عدد البروتونات في سانتيمتر واحد من سلك دقيق ، واستعنّا على ذلك بألف شخص يحسبون بحيث اننا نستطيع أن نفصل بروتوناً واحداً في كل ثانية ، لاستغرق حسابنا بين ٣٠ سنة و٣٠٠ سنة (بحسب اختلاف ذرات كل مادة) ، على أن يستمر حسابنا ليلاً ونهاراً دون انقطاع .

والآن بعد أن عرفنا أن في سانتيمتر واحد من سلك دقيق هذا العدد من البروتونات ، فكم تظن عدد الذرات في السماء والأرض والماء والهواء والمجرات والمنظومة الشمسية؟ ألا يتعب

فكـر الإنسـان من مجـرد تصـوّر ذلـك؟ أيستـطيـع أحـد أن يعـرف عددها غير الذي خلقها؟

* * *

الذَرَّة درس في التوحيد :

تعتبر دراسة الذرة من أهم الفروع العلمية في العصر الحاضر ومن أشدها إثـارة . إن هذا المخلوق الصغير يلقي علينا درسـاً في التـوحيـد ، إذ ان في عـالم الـذرّة جـوانب أربعـة هي التي تثيـر الانتباه :

١ ـ **النظام الـدقيق** : لقـد اكتشف حتى الآن أكثـر من ١٠٠ عنصـر يتدرج فيهـا عـدد الالكتـرونـات من الـواحـد حتى أكثـر من ١٠٠ ، وهـذا نظام دقيق لا يمكن أن يكـون وليد عـوامـل عـديمـة العقل .

٢ ـ **تعـادل القوى** : إننـا نعلم أن قطبين كهـربـائيين مختلفين يتجـاذبان . وعليـه ، فإن الالكتـرونات التي تحمـل شحنـة سـالبـة لا بد أن تنجذب نحو النواة التي تحمل شحنة موجبة .

ومن جهـة أخـرىٰ نعلم أن دوران الالكتـرونـات حـول النـواة يوجد قوة طاردة عن المركز ، أي أن الالكتـرونات تحـاول ، تحت هـذه القـوة الـطاردة عن المـركـز ، أن تبتعـد عن محيط النـواة ، فتتحـطم الذرة . وفي الـوقت نفسه تـريد القـوة الجاذبـة أن تجذب الالكترونات فتفني الذرة .

هنا لا بد من أن نـدرك الحساب الـدقيق الذي بمـوجبه جـرى تنظيم القوتين الجاذبة والطاردة في الذرة لكيـلا تفلت الالكترونـات

من مدارها ، ولا تنجذب نحو النواة بل تبقى دائماً في حالة تعادل وتوازن في حركتها الدائمة . فهل تستطيع الطبيعة العمياء أن توجد هذا التعادل والتوازن؟

٣ ـ **كل في خط سيره** : قلنا ان لبعض الذرات أكثر من الكترون واحد ولكنها لا تدور كلها في مدار واحد ، بل تدور في مدارات متعددة . ومنذ ملايين السنين تدور هذه الالكترونات في مدارات معينة ، وفواصل محددة ، وبسرعة معلومة ، بغير أن يكون هناك أي تضاد بينها .

فهل وضعها في مداراتها المعينة ودورانها المنظم المحيِّر عمل بسيط ؟

٤ ـ **طاقة الذرّة العظيمة** : للتعرف على الطاقة الهائلة الكامنة في الذرة يكفي أن نعرف ما يلي :

في سنة ١٩٤٥ تمّت تجربة في صحراء المكسيك الجرداء من كل ماء وزرع ، حيث فجرت قنبلة ذرية صغيرة جداً في برج فولاذي ، فذاب البرج ثم تحول إلى بخار وظهر البرق مصحوباً بدوي مرعب ، وعندما جاء العلماء لم يجدوا أثراً للبرج .

وفي تلك السنة نفسها ألقت الولايات المتحدة الأمريكية قنبلتين ذريتين صغيرتين على مدينتي (ناكازاكي) و (هيروشيما) اليابانيتين ، فأبيد في الأولىٰ سبعون ألف إنسان وجرح مثلهم ، وقتل في الثانية نحو ثلاثين أو أربعين ألفاً وجرح مثلهم ، بحيث اضطرت اليابان إلى الاستسلام لأمريكا دون قيد أو شرط .

أفلا تكفي دراسة أسرار ذرة واحدة من الذرات لكي يتعرف

الإنسان على خالقها؟ وعليه ، ان بـالإمكان القـول بأن لـدينا بعـدد ذرات الدنيا أدلة على وجود الله .

يقـول القرآن الكـريم : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللَّهِ . . . ﴾ [سورة لقمان ، من الآية : ٢٧]

* * *

فكّر واجب

١ ـ أتعرف شيئاً آخر عن أسرار حياة النملة؟

٢ ـ أتستطيع أن ترسم على السبورة خارطة بناء الذرة؟ .

* * *

بحث مكمل للدرس العاشر :

ما أعظم صفات الله!

صفاتـه :

كن على حذر، فبقدر سهولة التعرف على وجود الله عن طريق التمعن في أسرار عالم الخليقة ، لا تكون معرفة صفات الله بتلك السهولة نفسها ، بل تتطلب الدقة والحذر الشديدين .

وقد تسأل : لماذا؟ الجواب واضح ، فاللّه تعالى لا يشبهه أي شيء مما رأينا وسمعنا، وعليه فإن أول شرط في معرفة صفات الله هو نفي جميع صفات المخلوقات عن ذاته المقدسة : أي عدم تشبيهه بأي كائن محدود في عالم الطبيعة ، وهذا ما يجر القضية إلى ممر ضيق ، وذلك لأننا ترعرعنا في قلب هذه الطبيعة ، وكان ارتباطنا بها ، وأنسنا بها وألفناها ، ولهذا فإننا نميل إلى أن نقارن كل شيء بما نراه فيها .

وبعبارة أخرى ، إن كل ما رأيناه جسم وخصائص الجسم ، أي الأشياء التي لها « زمان » و « مكان » و « اشكال » معينة . وعلى هذا

يكـون من الصعب جداً أن نصف الله الـذي لا يحده مكـان ولا زمان ، وهو في الوقت نفسه محيط بكل زمـان ومكان ، ولا تحـده حدود . انـه أمر يتطلب الكثير من الحذر والدقة .

مبدئياً لا بـد من القول بـأننا لن نعـرف حقيقة كنـه الله ، ولا ينبغي لنـا أن نتوقـع ذلـك من أنفسنـا ، لأن تـوقعنـا شيئـاً كهـذا يكـون أشبـه بمحـاولـة سكب ميـاه محيط عـظيم في إنـاء صغيـر بحيث يسعهـا ، أو القـول بأن جنينـاً في بطن أُمـه يمكن أن يعـرف كـل شيء مـوجـود في العالم الخارجي . أهذا أمر ممكن؟

لـذلك فـإن أصغر زلـل في هـذا المجـال يمكن أن يبعـد الإنســان مسافات طـويلة عن الطريق الصحيـح لمعرفـة الله ويرمي بـه في متاهـة عبـادة الأوثـان والمخلوقـات . على كـل حــال ، ينبغي أن نكـون على حذر لئلا نقارن صفات الله بصفات المخلوقات أبداً .

صفات « الجمال » و « الجلال » :

تقسم صفـات الله عـادة إلى قسمين : « الصفــات الثبـوتيــة » أي الصفـات الموجـودة في ذات الله ، و « الصفات السلبيـة » أي الصفـات التي يتنزه عنها الله سبحانه وتعالى .

وقد يسأل سائل : ترى ما هي صفات ذات الله؟

الجـواب هـو أن صفـات الله تكـون من جهـة لا نهـايـة لهـا وغيـر محـدودة ، ويمكن من جهة أخـرى تلخيصها في صفـة واحـدة ، إذ أنّ جميع صفاته الثبوتية تتلخص في التعبير التالي :

« ذات الله لا متناهية من جميع الجهات ولها الكمالات كلها» .

كما أن صفاته السلبية تتلخص في الجملة التالية :

« ذات الله لا يعتورها النقص من جميع الجهات» .

ولكن بما أن للكمال والنقص درجات ، أي يمكن تصور الكمال اللامتناهي والنقص اللامتناهي ، إذن يمكن القول بأن لله صفات ثبوتية لا نهاية لها ، وله صفات سلبية لا نهاية لها ، إذ ما من صفة كمال نتصورها إلاَّ وهي في الله ، وما من صفة نقص نتصورها إلاَّ والله منزه عنها . إذن ، صفات الله الثبوتية والسلبية لا حد لها .

أشهر صفات الله :

أشهر صفات الله ثمان ، وهي كما يلي :

١ ــ **« هو العالم »** ، فالله عالم بكل شيء .

٢ ــ **« هو القادر »** فهو قادر على كل شيء .

٣ ــ **« هو الحي »** ، فالحي هو كل عالم وقادر ، وبما أن الله عالم وقادر ، فهو حيّ .

٤ ــ **« هو المريد »** ، أي انه صاحب إرادة وليس في أعماله مجبراً على شيء ، وكل ما يفعله إنما لحكمة ولغاية فما من شيء في الأرض ولا في السماء ، صغيراً كان أم كبيراً ، إلاَّ وكان عن فلسفة وهدف .

٥ ــ **« هو المدرك »** : أي انه يدرك جميع الأشياء ، يسمع كل شيء ، ويرى كل شيء ، وهو عليم بكل شيء خبير .

٦ ــ **« هو القديم الأزلي »** : أي انه كان دائماً ، وليس لوجوده بداية ولا نهاية ، إذ ان وجوده ينبع من ذاته ، ولهذا فهو

أزلي سرمدي ، فمن يكـون وجوده من ذاتـه لا يعتوره الفنـاء ولا الزوال .

٧ ـ « هـو المتكلم » : أي انـه قـادر على احـداث مـوجـات صـوتية ، فيكلم الأنبيـاء ، وليس معنى هذا أن لـه سبحـانـه لساناً وشفتين وحنجرة .

٨ ـ « هـو الصـادق » : فمـا يقـولـه هـو الصـدق عينـه والحقيقـة ذاتهـا ، لأن الكـذب يكون إمّـا بسبب الجهـل وإمّـا بسبب الضعف ، فالله القادر العليم لا يمكن أن يكذب .

* * *

أما صفاته السلبية، فأهمها سبع صفات :

١ ـ ليس « مـركباً » : أي انـه لا يتألف من أجـزاء تركيبيـة ، فلو كان كذلك لاحتاج إلى أجزائه ، وهو الغني غير المحتاج .

٢ ـ ليس « جسماً » : لأن للجسم حدوداً ويكون متغيراً وفانياً .

٣ ـ ليس « مـرئيـاً » فهـو لا يُـرىٰ ، وإلّا كـان جسمـاً محـدوداً وفانياً . .

٤ ـ ليس له « مكان » ، لأنه ليس جسماً ليحتاج إلى مكان .

٥ ـ ليس له « شريك » إذ لو كان له شـريك لكـان محدوداً ، لأن كائنين غير محـدودين يستحيل وجـودهما معـاً ، ثم إن وحدة قوانين الطبيعة دليل على وحدانيته .

٦ ـ ليس لله « معان » لأن صفاته هي ذاته عينها .

٧ ـ ليس « **محتاجاً** » بـل هو الغني ، لأن الكـائن اللامتنـاهي من حيث العلم والقدرة لا ينقصه شيء .

يقول القرآن الكريم : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيء** ﴾

[سورة الشورى، الآية: ١١]

* * *

فكّر وأجب

١ ـ ألديك أدلة أخرى على وحدانية الله وانه لا شريك له؟ .

٢ ـ هـل سمعت بوجـود بعض الأديـان التي تؤمن بثـلاثـة آلهـة ، وأخرىٰ تؤمن بإلٰهين؟ ما هي؟ .

سلسلة الدروس الدينية في العقائد الإسلامية

القسم الثاني

العدل الالهي

الدرس الأول

ما هو العدل

* لماذا اعتبر العدل ، من بين سائر صفات الله ، جزء رئيساً من أصول الدين؟ .
* الفرق بين « العدالة » و « المساواة » .

* * *

١ ـ لماذا اختير العدل من بين سائر الصفات؟

قبل الخوض في هذا البحث لا بد من أن يتضح لنا : لماذا اعتبر العلماء العظام صفة العدالة ، التي هي واحدة من صفات الله ، « أصلاً » من « أصول الدين الخمسة »؟ .

إن الله « عالم » و « قادر » و « عادل » و « حكيم » و « رحمان » و « رحيم » و « أزلي » و « أبدي » و « خالق » و « رزاق » ، فلماذا اختاروا « العدالة » دون سائر صفات الله لتكون أحد أصول الدين الخمسة؟

للإجابة عن هذا السؤال لا بد من معرفة عدة نقاط :

١ ـ إن للعدالة ، من بين سائر صفات الله ، أهمية خاصة بحيث أن كثيراً من الصفات الأخرىٰ يعود عليها ، لأن « العدالة » بمعناها الواسع ، هي وضع الأمور في مواضعها . وعلى ذلك فإن صفات أخرىٰ مثل « حكيم » و« رزاق » و« رحمان » وأمثالها تعتمد على العدالة في معانيها .

٢ ـ كما أن « المعاد » يستند على « العدل الإلٰهي » ، وكذلك ترتبط رسالة الأنبياء ومسؤولية الأئمة بعدالة الله أيضاً .

٣ ـ ظهر في صدر الإسلام خلاف بشأن مسألة عدالة الله . فقد أنكر بعض المسلمين (وهم الأشاعرة) عدالة الله كلياً ، وقالوا : إن « العدالة » و« الظلم » لا معنى لهما بالنسبة لله ، فكل عالم الوجود ملكه وله ، وكل ما يفعله فهو العدالة بعينها . لقد أنكر هؤلاء حتى « الحسن » و« القبح » العقليين ، قائلين أن عقولنا لا تستطيع أن تدرك هاتين الصفتين مطلقتين ، بل انها لا تدرك حُسْنَ الحَسَن ولا قُبْحَ القَبِيح (وكثير غير هذه الأخطاء) . « الحُسْن »

وفريق آخر من أهل السنة (وهم المعتزلة) ومعهم الشيعة ، قالوا بعدالة الله وبأنه لا يظلم أبداً .

وللتمييز بين هذين الفريقين ، اطلقوا على الفريق الثاني اسم « العدليين » أو « العدلية » لأنهم اعتبروا « العدل » عنوان مدرستهم وأصلاً من أصول الدين ، ومنهم الشيعة . وأطلقوا على الفريق الآخر اسم « غير العدليين » .

ولكي يميز الشيعة أنفسهم عن بقية « العدليين » اعتبروا الإمامة أصلاً آخر من أصول الدين .

وعليه ، أصبح « العدل » و « الإمامة » من مميزات مذهب الشيعة الإمامية .

٤ ــ بما أن فروع الدين ليست سوى إشعاعات أُصول الدين ، وإن أشعة عدالة الله شديدة التأثير في المجتمع البشري ، أصبحت العدالة الاجتماعية من أهم أُسس المجتمع الإنساني . إن اختيار العدالة كأصل من أُصول الدين إشارة إلى إحياء العدل في المجتمعات البشرية ومكافحة كل أنواع الظلم .

ومثلما كان توحيد ذات الله وصفاته وعبادته نوراً دعا للوحدة والاتحاد في المجتمع الإنساني لتمتين وحدة الصفوف ، كانت قيادة الأنبياء والأئمة مثلاً « للقيادة الحقة » في المجتمعات الإنسانية . وعليه ، فإن أصل عدالة الله السائدة في كل عالم الوجود ، إشارة إلى ضرورة تطبيق العدالة في المجتمع البشري على الأصعدة جميعها .

إن عالم الخليفة العظيم قائم على العدالة ، لذلك لا يمكن أن يقوم مجتمع إنساني بغير العدالة .

٢ ـ ما هي العدالة؟

للعدالة معان مختلفة :

أ ــ معنى العدالة العام والشامل هو ، كما قلنا : وضع الأُمور في مواضعها . أي التوازن والتعادل . وهذا المعنى هو المهيمن على عالم الخليقة برمته ، على المنظومات الشمسية ، على الذرة ، على بناء كيان الإنسان وجميع الحيوان والنبات . وهذا هو المعنى الذي ورد في الحديث النبوي الشريف :

« بالعدل قامت السموات والأرض » .

فمثلاً ، لو اختل تعادل القوتين الجاذبة والدافعة في الكرة الأرضية ، وزادت إحداها على الأخرى ، لانجذبت الأرض نحو الشمس واحترقت وتلاشت ، أو لخرجت عن مدارها وتلاشت في الفضاء الفسيح .

والعدالة هي إنك إن سقيت شجيرة الورد وأشجار الأثمار فقد سكبت الماء في موضعه ، وهذا هو العدل بعينه ، وإن أنت سقيت الأشواك والطفيليات ، فقد أرقت الماء في غير موضعه ، وهذا الظلم بعينه .

ب ــ وثمة معنى آخر للعدل ، وهو « مراعاة حقوق الناس » ، ويقابل « الظلم » وهو الاستئثار بحقوق الآخرين ، أو انتزاع حق شخص واعطائه لآخر لا حق له فيه ، أي المحاباة ، أي اعطاء بعض حقهم ، ومنعه عن بعض آخرين .

بديهي أن المعنى الثاني « خاص » والمعنى الأول « عام » ، وان كلا معنيي « العدل » يصدقان بحق الله ، غير أن المعنى الثاني هو المقصود في بحثنا هذا ، في أغلبه .

معنى « عدل » الله هو انه لا يسلب أحداً حقه ، ولا يأخذه من بعض ليعطيه لبعض آخر ، ولا هو يحابي بين الأشخاص ، فهو عادل بكل معاني الكلمة . ولسوف نتعرف على دلائل عدالته في الدرس القادم .

إن الله منزه عن « الظلم » سواء أتمثل بأخذ حق أحد ، أم إعطاء حق أحد لآخر ، أم بالاجحاف والمحاباة .

إنه لن يعاقب من يعمل الصالحات ، ولا يثيب المسيء ، ولا يأخذ أحداً بذنب أحد ، ولا يحرق الأخضر بجرم اليابس أبداً .

وإذا كان جميع أفراد مجتمع ما مذنبين ، سوى شخص واحد ، فإن الله يفصل حساب هذا الشخص عن الآخرين ، ولا يضعه في العقاب في مصاف المذنبين .

أما مقولة « الأشاعرة » بأن الله إذا أرسل الأنبياء إلى الجحيم ، والمذنبين إلى الجنة ، لا يكون ظالماً ، فهي مقولة جزاف ، قبيحة ، مخجلة ولا أساس لها ، وإن كل شخص لم يغلف عقله التعصب والخرافات يشهد بقبح هذا القول .

ج ـ الفرق بين « المساواة » و « العدالة » :

إن النقطة المهمة الأُخرىٰ التي لا بد من الإشارة إليها في هذا البحث هي ما يجري أحياناً من الخلط بين « المساواة » و « العدالة » على اعتبار أن العدالة هي تطبيق المساواة ، ولكن الأمر ليس كذلك .

المساواة ليست شرطاً من شروط العدالة ، بل العدالة هي إعطاء كل حق لمستحقه وأخذ الأولويات بنظر الاعتبار .

فالعدالة بين تلاميذ صف واحد ، مثلاً ، ليست في منح جميعهم درجات متساوية ، وليست العدالة بين عاملين في اعطائهما أجوراً متساوية . بل العدالة هي أن ينال كل تلميذ الدرجة التي تستحقها معلوماته ولياقته العلمية ، وأن ينال كل عامل أُجرته بحسب أهمية العمل الذي يؤديه .

والعدالة في عالم الطبيعة تدخل ضمن هذا المعنى الواسع ، فلو أن قلب حوت (البالن) الذي يزن طناً واحداً قد ساوى قلب عصفور لا يكاد يزن أكثر من بضعة غرامات ، ما كان ذلك عدلاً ، ولو تساوت جذور شجرة ضخمة مع جذور نبتة صغيرة لما كان ذلك عدلاً ، بل لكان ظلماً فاضحاً .

فالعدالة ، إذن ، هي أن ينال كل كائن نصيبه بموجب ما يتطلبه استحقاقه واستعداده ولياقته .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ لماذا اعتبرت العدالة ، من بين سائر صفات الله ، أصلاً من أصول الدين؟ .

٢ ـ من هُم الأشاعرة؟ ماذا تعرف عن معتقداتهم؟

٣ ـ ما هي تأثيرات الاعتقاد بالعدل الإلهي على المجتمع الإنساني؟ .

٤ ـ ما هي معاني العدالة؟ اشرحها .

٥ ـ هل العدالة تعني المساواة؟ .

الدرس الثاني

دلائل عدالة الله

١ ـ الحُسن والقُبح العقليان :

لا بد لنا مبدئياً أن نعرف أن عقلنا يدرك إلى حد كبير « حسن » الأشياء و « قبحها » وهذا هو ما يطلق عليه العلماء اسم الحسن والقبح العقليين .

فمثلاً ، نحن نعلم ان العدل والإحسان أمران حسنان ، وإن الظلم والبخل أمران قبيحان ، وحتى قبل أن يتحدث الدين عن هذه الأمور فإننا نعرفها ، على الرغم من وجود أمور أُخرىٰ لا تكفي معلوماتنا لإدراكها ، بل لا بد لنا أن نستعين بإرشاد الأنبياء والقادة الإلٰهيين .

ولذلك إذا ما أنكر فريق الأشاعرة المسلمون الحسن والقبح العقليين ، وقالوا بأن طريق معرفتهما ، حتى في حالات واضحة مثل العدل والظلم ، هو حكم الشرع والدين ، فإنما هم على خطأ مبين .

وذلـك لأن عقلنا إذا لم يكن قـادراً على إدراك الحُسن والقُبـح فكيف يكـون لنـا ان نعلم بـأن الله لا يمنـح الكـاذب القـدرة على الإتيـان بمعجـزة ؟ لكننـا إذا أدركنـا أن الكـذب قبـح ، ويستحيـل صـدوره عن الله ، أدركنا أيضـاً أن وعد الله حق ، وقـوله صـدق ، فـلا يمكن أن يؤيد الكـذب بأن يمنـح الكاذب القـدرة على القيـام بمعجزة .

هنـا يمكن الاعتماد على مـا ورد في الشـرع والـدين ونستنتـج من هذا أن الاعتقاد بالحسن والقبح العقليين أمر ديني .

* * *

نعود الآن إلى دلائل العـدالة الإلٓهيـة ، ولإدراك هذه الحقيقـة يجب أن نعرف :

٢ ـ ما هو مصدر الظلم؟

مصدر الظلم يمكن أن يكون أحد الأُمور التالية :

أ ـ الجهـل : قد نجـد ظالمـاً لا يدري انـه يـظلم فعـلاً ، لا يعلم انه يدوس بقدمه حقوق الآخرين . انه جاهل بما يفعل .

ب ـ الحـاجة : قـد يطمـع المـرء في مـا يملكـه الآخـرون ، فيوسوس لـه الشيطان ان يستحـوذ عليها ، ولـولا الحاجـة لما كـان هناك ما يحمله على الظلم .

ج ـ الأنـانية والحقـد والانتقام : يحـدث أحيانـاً أن لا تكـون الأسبـاب المذكـورة سـابقـاً هي الـدافـع على الـظلم ، بـل يكـون السبب هو الأنانية أو الحقد أو حب الانتقـام ، فيعتدي على حقـوق الآخرين . أو قد يكون السبب هو حب الاحتكار .

د ــ العجز والضعف : يحدث أحياناً أن لا يكـون المرء راغبـاً في التقصيـر بحق الآخرين ، ولكنـه لا قـدرة لـه على الامتنـاع عن ذلك فيرتكب الظلم .

غير أن هذه الصفات القبيحة والنقـائص لا وجود لهـا في ذات الله المقـدسـة ، لأنـــه عـالم بكـــل شيء ، وغني عن كـل شيء ، وقـادر على كـل شيء ورحيم بـالعـالمين رؤوف ، فـلا حـاجـة لـه بالظلم .

إن الله لا متناهي الوجود ، ولا تحد كمـاله حـدود ، ولا يصدر عنـه سـوى الخيـر والعـدل والـرأفـة والـرحمـة . ولكنـه إذ يعـاقب المسيئين فــذلـك بسبب أعمــالهم ، كـالــذين يستعملون المـــواد المخـدرة أو يشربـون المشروبـات الكحوليـة ، فيصابـون بمختلف الأمراض القاتلة نتيجة لذلك .

يقول القرآن المجيد :

﴿ . . . هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

[سورة النمل، الآية : ٩٠]

* * *

٣ ـ القرآن وعدالة الله :

يولي القرآن الكريم هذه المسألة اهتمـاماً كبيـراً . إنه في أحـد المواضع يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئاً وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

[سورة يونس ، الآية : ٤٤]

وفي موضع آخر يقول :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ . . . ﴾ [سورة النساء، الآية : ٤٠]

وفي موضع الحساب والجزاء يوم القيامة يقول :

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً . . . ﴾ [سورة الأنبياء ، الآية : ٤٧]

(بديهي أن القصد من الموازين هنا هو وسائل القياس ، لا الموازين الاعتيادية) .

٤ ـ الدعوة إلى العدل :

قلنا إن صفات الإنسان ينبغي أن تكون انعكاساً عن صفات الله ، بحيث تنعكس صفات الله على المجتمع الإنساني برمته . وبناء على ذلك فإن القرآن ، بقدر توكيده العدالة الإلٰهية ، يؤكد أيضاً سيادة العدل في المجتمع وفي كل فرد فيه . كثيراً ما يشير القرآن إلى الظلم باعتباره سبب فناء المجتمعات البشرية ، ويرى عاقبة الظالمين من أفظع العواقب .

في معرض بيان مصائر الأقوام السالفة يطلب القرآن من الناس ان يعتبروا بتلك الأقوام وكيف انها بسبب ظلمها وفسادها نزل عليها العذاب الإلٰهي وقضي عليها ، فيدعوهم إلى أن يتجنبوا مصيراً كمصائر تلك الأقوام .

يصرح القرآن بأحد مبادئه الرئيسة فيقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآءِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَٱلْبَغْيِ . . . ﴾ [سورة النحل، الآية : ٩٠]

من اللافت للنظر انه مثلما ان الظلم عمل قبيح ، فإن تقبل الظلم والخضوع له عمل خطأ أيضاً في نظر الإسلام ، كما جاء في الآية ٢٧٩ من سورة البقرة : ﴿ **لَا تَظلِمُونَ ولا تُظلَمُونَ** ﴾ .

إن الاستسلام للظالمين يعني القبول بالظلم ونشره وإعانة الظالم عليه .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ هل يستطيع عقلنا أن يدرك الحسن والقبح بدون تدخل الشرع؟ .

٢ ـ ما هو مصدر الظلم؟ ما الدليل العقلي على عدالة الله؟

٣ ـ ما الذي يقوله القرآن بشأن عدالة الله وتنزيهه عن الظلم؟ .

٤ ـ ما هو واجب الإنسان في قبال العدل والظلم؟

٥ ـ هل الاستسلام للظلم والخضوع له إثم أيضاً؟ .

* * *

الدرس الثالث

فلسفة الكوارث والآفات

منذ القديم كان فريق من الجهال يعترضون على عدالة الله ، ويوردون حالات يعتقدون انها لا تأتلف مع عدالة الله ، بل انهم لم يعتبروها أدلة تنفي العدالة عن الله فحسب ، بل قالوا انها دليل على عدم وجود الله ذاته!

من تلك الحالات التي يستدلون بها على ذلك هي « الطوفانات » و « الزلازل » والكوارث العامة الأُخرىٰ . وكذلك « التفاضل » الموجود بين الأفراد ، ووجود الآفات والأمراض التي تصيب الإنسان والنبات وسائر الكائنات في عالم الوجود .

وقد يرد هذا البحث ضمن موضوع معرفة الله في قبال الماديين ، وقد يرد في بحث الله عموماً ، ونورده نحن هنا . ولكي ندلك على مدى خطأ هذه الأفكار عند التحليل الدقيق ، لا بد أن يكون لنا بحث مسهب بهذا الشأن وان ندرس الأُمور التالية بدقة :

١ ـ الحكم النسبي وقلّة المعرفة :

إننا نستند عادة في إصدار أحكامنا وتمييز المصاديق على علائقنا بالأشياء ، كقولنا أن الشيء الفلاني قريب أو بعيد ، بالنسبة لموقعنا نحن ، أو نقول ان فلاناً ضعيف أو قوى بالقياس إلى حالتنا النفسية أو الجسمية . كذلك هي حال أغلب الناس عند إصدار أحكامهم على القضايا الخاصة بالخير والشر والكوارث والآفات .

فمثلاً ، إذا نزل المطر في منطقة ، فليس يعنينا تأثيره في المجموع العام ، بل لا تتعدى نظرنا محيط حياتنا وبيتنا ومزرعتنا ، أو مدينتنا في الحد الأقصى ، فإذا كان لهذا المطر تأثير ايجابي قلنا انه نعمة من الله ، وإذا كان تأثيره سلبياً ، أطلقنا عليه اسم « البلاء » .

عندما يهدمون عمارة توشك على الانهيار لكي يعيدوا بناءها ، ولا يكون نصيبنا من ذلك سوى الغبار الذي يدخل خياشيمنا أثناء مرورنا بالمكان ، نقول : ما أسوأ هذا! على الرغم من أن المستقبل القريب سوف يشهد بناء مستشفى حديث على انقاض العمارة المتهدمة يستفيد منه الناس ، أو على الرغم من أن لهطول المطر في المثال السابق تأثيراً مفيداً من حيث المجموع .

إننا في أحكامنا السطحية المألوفة نعتبر لسعة الحية شراً ، بغير ان نعلم ان هذه اللسعة وما فيها من سم إنما هي وسيلة دفاع في هذا الحيوان ، وان هذا السم نفسه يصنع منه دواء شاف قد ينقذ حياة الآلاف من بني البشر .

وعليه ، إذا كان علينا أن لا نقع ضحايا للخطأ ، فلا بد لنا أن نلقي نظرة على معلوماتنا المحدودة لكيلا نقيم أحكامنا على مجرد العلائق التي تربط الأشياء بنا ، وإنما ينبغي أن ننظر إلى الأمر من جميع الجوانب بحيث تكون أحكامنا جامعة شاملة .

إن جميع حوادث العالم ، من حيث الأساس ، أشبه بسلسلة مترابطة الحلقات . إن العاصفة التي تهبّ اليوم في مدينتنا ، والأمطار الغزيرة التي تهطل ، حلقات في هذه السلسلة المديدة التي ترتبط بحوادث تجري في مناطق أُخرىٰ ، وكذلك ترتبط بحوادث جرت في « الماضي » وأُخرىٰ سوف تجري في « المستقبل » .

وعليه ، فإن وضع الاصبع على نقطة صغيرة وإصدار حكم حاسم بشأنها بعيد عن العقل والمنطق .

إن ما يفعله الخلق « شر مطلق » ، ولكن إذا كان الأمر من جهة خيراً ومن جهة شراً ، مع الغلبة للخير ـ كالعملية الجراحية المؤلمة من جهة والمفيدة من جهات أُخرىٰ ـ يعتبر خيراً نسبياً .

وللتوضيح نعود إلى مثال الزلزلة : صحيح انها تؤدي إلى الدمار في مكان معيّن ، ولكننا إذا أخذنا بنظر الاعتبار علائق هذه الظاهرة المتسلسلة بأُمور أُخرىٰ في الطبيعة لتغير حكمنا .

هل الزلزلة ترتبط بحرارة باطن الأرض والأبخرة المتكونة فيه؟ أم انها ترتبط بقوة جاذبية القمر التي تجذب ما على الأرض من جوامد نحوه؟ أم انها ترتبط بكليهما؟ إن للعلماء نظريات مختلفة بهذا الخصوص .

ولكن مهما يكن السبب، فلا بد لنا ان ننظر إلى الآثار

الأُخرىٰ لهذه الظاهرة . من ذلك، مثلاً ، يجب أن نعرف تأثير حرارة باطن الأرض في تكوين منابع النفط الذي يعتبر من أهم مصادر الطاقة في عصرنا ، وكذلك في تكوين الفحم الحجري وأمثالهما . وعليه فإن حرارة باطن الأرض خير نسبي .

كذلك الأمر مع المد والجزر الحاصلين بتأثير جاذبية القمر لمياه البحار ، إذ ان لهما أهمية كبرى في حركة مياه البحار والابقاء على حياة المخلوقات البحرية ، وكذلك في ارواء السواحل الجافة في المناطق التي تصب فيها المياه العذبة في البحر . هذا أيضاً خير نسبي .

من هذا ندرك ان أحكامنا النسبية ومعلوماتنا المحدودة هي التي تظهر أمثال هذه الحوادث بصورة نقاط مظلمة على صفحة الخليقة . وكلما تعمّقنا في التأمل والتفكير في العلائق التي تربط هذه الحوادث ببعض ادركنا أهميتها .

يقول لنا القرآن المجيد :

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً ﴾ [سورة الإسراء، الآية : ٨٥]

فلا ينبغي لنا بعلمنا القليل هذا أن نتعجل إصدار الأحكام .

٢ ـ الحوادث المنغصة والتحذيرات :

إننا جميعاً نعرف أشخاصاً عندما غرقوا في نعمة ركبهم «الغرور» و«حب الذات» فنسوا ، وهم في هذه الحالة ، الكثير من واجباتهم الإنسانية .

كما اننا جميعاً نعرف أشخاصاً إذا ما كان بحر حياتهم هادئاً وكانوا متنعمين بالراحة والدعة ، انتابتهم حالة من «السبات

والغفلة»، وهي حالة إن دامت عندهم أدت إلى تعاستهم وشقائهم.

*لا شك أن بعضاً من الحوادث المنغصة هدفه وضع حد لتلك الحالة من الغرور وإلى إيقاظ الإنسان من سبات غفلته .

لا بد انكم سمعتم بأن سائقي السيارات المجربين يشكون من الطرق الممهدة الصافية المستقيمة الخالية من كل اعوجاج وارتفاع وانخفاض، قائلين ان هذه الطرق خطرة، وذلك لأن رتابتها تحمل السائق على الشعور بالنعاس ، وفي هذه الحالة يكمن الخطر .

لذلك نجد هذه الطرق في بعض البلدان وقد اصطنعوا لها الانحناءات والمرتفعات والمنخفضات للحيلولة دون وقوع السائقين في مثل تلك الحالات .

*إن خطر سير حياة الإنسان لا تختلف عن ذلك . فإذا خلت الحياة من المنعطفات والالتواءات والمنخفضات ، وإذا لم يعتورها أحياناً بعض المنغصات ، استولت على الإنسان تلك الحالة من نسيان الله والغفلة عن ذكره وعن القيام بالواجبات الملقاة على عاتقه .

إننا ، بالطبع ، لا نقول ان على الإنسان أن يصطنع لنفسه الحوادث المنغصة وان يستقبل الأحزان ، وذلك لأن أمثال هذه الحوادث كانت دائماً موجودة في حياة الإنسان . ولكننا نريد التذكير بأن فلسفة جانب من هذه الحوادث هي الوقوف بوجه الغرور والغفلة والنسيان التي هي أعدى اعداء سعادته . نكرر القول بأن هذه هي فلسفة بعض تلك الحوادث ، لا كلّها ، إذ ان هناك حوادث أخرىٰ سوف نتحدث عنها إن شاء الله .

يقول كتابنا السماوي العظيم .

﴿ فأَخذْنَاهُم بالبأْساء والضراء لعلَّهم يتضرعون ﴾

[سورة الانعام ، الآية : ٤٢]

فكّر وأجب

١ ــ من هم الـذين طرحـوا الكـوارث والآفـات في البحـوث العقائدية؟

٢ ــ هات نماذج للكوارث والآفات ، وهل صادفتك في حياتك؟

٣ ــ ماذا نقصد بالحكم النسبي والمطلق، ومـا هو «الشـر المطلق» و«الخير النسبي»؟

٤ ــ هل الأعاصير والزلازل مضرة دائماً؟

٥ ــ كيف يمكن أن تكون لمنغصات الحياة آثار إيجـابية في نفسيـة الإنسان؟

* * *

الدرس الرابع

حكمة المنغصات في حياة الإنسان

قلنا إن فريقاً من المعارضين العيّابين تناولوا الحوادث المنغصة وظهور الآفات والمشكلات والاحباطات التي تصيب الإنسان في حياته ، وجعلوها ذريعة لإنكار عدالة الله ، بل حتى إنكار وجود الله ذاته .

في البحث السابق حللنا بعضاً من تلك الحوادث وأشرنا إلى فلسفتين اثنتين لها . والآن نواصل البحث مرة أُخرىٰ .

١ ـ الإنسان يتربى في أحضان المشكلات :

نكرر مرة أُخرىٰ ان الإنسان ينبغي الاّ يخلق بيده المشكلات والمنغصات لنفسه . ولكن كثيراً ما يحدث ان تكون الحوادث الصعبة والمنغصة سبباً في تقوية ارادتنا وزيادة قدرتنا على التحمل ، كالفولاذ الذي يدخلونه النار الحامية ليسوقه فيزداد قوة

وصلابة . اننا ندخل أتون هذه الحوادث لنخرج أكثر تجربة وأصلب عوداً .

الحرب حدث سيء ، ولكن رب حرب ضروس طويلة الأمد كشفت عن مواهب الشعب الكامنة ، وأبدلت تشتته وحدة ، وأسرعت في جبران نواقصه .

يقول أحد المؤرخين الغربيين المعروفين :

« إن كل حضارة لامعة ظهرت على امتداد التاريخ في مكان ما ، ظهرت بسبب تعرض ذلك الشعب لهجوم دولة عظمى خارجية ، فأيقظت قواه الكامنة وحشدتها » .

بديهي أن تأثر جميع الأشخاص والمجتمعات بحوادث الحياة المرة ليس بمستوى واحد ، فبعض ينتابهم اليأس ويستولي عليهم الضعف والتشاؤم ، فيكون تأثرهم سلبياً ، وبعض آخر لهم الاستعداد والأهلية ليتفاعلوا مع تلك الحوادث تفاعلاً إيجابياً ، فيكون ذلك سبباً في تحريك مواهبهم ومؤهلاتهم فتفور وتغلي وتسرع لإصلاح نقاط الضعف فيهم .

ولكن بما أن معظم الناس يصدرون أحكاماً سطحية في مثل هذه الحالات ، فإنهم يرون المنغصات ويتذوقون مرارتها ، دون الالتفات إلى آثارها الايجابية البناءة .

إننا لا ندّعي بأن جميع الحوادث المرة لها مثل هذه التأثيرات في الإنسان ، ولكن لقسم منها ، في الأقل ، مثل هذه التأثيرات .

لو انك درست سير حياة نوابغ العالم للاحظت انهم في

غـالبيتهم قد كبـروا وترعـرعوا في خضـم المشكـلات والمصاعب . إنـك قلما تجـد بين المتنعمين المرفهين من أظهـر شيئاً من النبـوغ في حياته ووصـل إلى مراكـز رفيعة . إن القـادة العسكريين العـظام هم أولئك الذين شهدوا حروباً طويلة صعبـة . والعقول الاقتصـادية المتفكرة هي التي صارعت تقلبـات الأسواق والأزمـات الاقتصاديـة في العالـم . والسياسيون العظام الأقوياء هم الذين استطاعوا منازلـة المشكلات السياسية العويصة . باختصـار ، إن المشكلات والآلام هي التي تربي الإنسان في أحضانها . نقرأ في القرآن الكـريم قولـه تعالى :

﴿ . . . فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾

[سورة النساء ، الآية : ١٩]

٢ ـ المشكلات سبب العودة إلى الله :

قـرأنا في الـدروس السابقـة ان لكل جـزء من أجـزاء وجـودنـا هدفاً معينـاً . فالعين خلقت لهـدف ، والأذن خلقت لهدف آخـر ، وكـذلك القلب والـدمـاغ والأعصـاب خلقت ولكـل منهـا هـدف ، وحتى خطوط رؤوس أصابعنا لها في خلقها هدف وحكمة .

إذن ، كيف يمكن أن يكـون كـل وجـودنـا بــدون هـدف ولا حكمة؟

كذلك قرأنا في الـدروس السابقـة ان الهدف ليس سـوى بلوغ الإنسان التكامل من جميع الوجوه .

لا شـك في أن الـوصـول إلى هـذا التكـامـل يتـطلب بـرامـج

تعليمية وتربوية عميقة تستغرق كل كيان الإنسان . لذلك فإن الله سبحانه وتعالى ، فضلاً عن كونه قد وهب الإنسان فطرته التوحيدية الطاهرة ، أرسل الأنبياء العظام والكتب السماوية للإضطلاع بمهمة قيادة الإنسان في مسيرته التكاملية .

وفي غضون ذلك ، يريه الله أحياناً انعكاسات ذنوبه ويواجهه ببعض المشكلات والآلام في حياته ، للوصول به إلى التكامل عن طريق انكشاف عواقب أعماله القبيحة المشؤومة ، فيندم ويعود بتوجهه إلى الله . في هذه الحالة يكون بعض المشكلات والحوادث المؤلمة رحمة من الله ونعمة . وفي هذا يقول القرآن الكريم :

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

[سورة الروم، الآية : ٤١]

فإذا أخذنا بنظر الاعتبار هذا الذي قلناه ، تكون نظرتنا إلى الحوادث المؤلمة باعتبارها « شراً وبلاء » وانها تخالف العدالة الإلٰهية ، نظرة بعيدة كل البعد عن المنطق والدليل العقلي ، إذ اننا كلما ازددنا تعمقاً في هذا الموضوع ازداد أمامنا وضوح ما فيه من حكمة وما وراءه من فلسفة .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ ما الهدف من خلقنا؟ وكيف نصل إليه؟

٢ ـ كيف يزداد الإنسان خبرة وصلابة عن طريق مواجهة المشكلات ومقاومتها؟ .

٣ ـ هل سمعتم أو قرأتم عن أشخاص قويت شكيمتهم واشتدت عزائمهم وبلغوا مناصب مهمة ، بسبب احتمالهم المشكلات القاسية؟ احكوا لنا ما تعرفونه عنهم؟ .

٤ ـ ما الذي يقوله القرآن بشأن نتائج ذنوبنا؟

٥ ـ من يتوصل إلى نتائج ايجابية من الحوادث المؤلمة؟ ومن الذي يصل منها إلى نتائج سلبية؟

* * *

الدرس الخامس

عودة إلى الحكمة في الآفات والكوارث

لما كانت قضية الآفات والكوارث والحوادث المؤلمة تعتبر مشكلة مستعصية بوجه دارسي مسألة معرفة الله والتوحيد ، فلا بد لنا من العودة مرة أخرىٰ لبحث هذه القضية وتحليلها ومواصلة ما أوردناه بخصوص الحكمة في بعض الآفات والمصاعب .

٥ ـ التقلبات والمشكلات تهب الحياة روحاً وحيوية :

لعلّ من الصعب على الكثيرين أن يدركوا ان النعم والعطايا إذا استمرت على وتيرة واحدة تفقد قيمتها وأهميتها .

لقد ثبت اليوم علمياً أننا إذا وضعنا جسماً في حجرة مدورة ملساء تماماً وسلطنا عليه نوراً قوياً من جميع الجهات لما أمكنت رؤية ذلك الجسم، لأن وجود الظل الممتد من الجسم بسبب الضوء هو الذي يعيّن لنا ابعاد الجسم ويفصله عمّا يحيط به ، وعندئذٍ نستطيع أن نراه .

كذلك هي حال عطاءات الحياة ، فهي لا يمكن أن ترى

بغير الظلال الخفيفة والثقيلة . ولولا المرض في بعض فترات الحياة لما عرفنا لذة السلامة . اننا على اثر ليلة من الحمى الشديدة المحرقة والصداع القاتل الأليم ، يكون إحساسنا بطعم السلامة صباحاً بعد انقطاع الحمى وزوال الصداع من اللذة والحلاوة بحيث اننا كلما تذكرنا تلك الليلة العصيبة ادركنا قيمة درة السلامة الثمينة التي أعطيناها .

إن الحياة نفسها ، حتى المسرفة في الرفاهية والرخاء ، تكون مملة وعديمة الروح وقاتلة ، لو انها مضت على وتيرة واحدة . كثيراً ما لوحظ ان بعض الناس يعانون الألم والعذاب بسبب رتابة حياتهم المرفهة الخالية من كل منغص وقلق إلى درجة ان بعضهم يقدم على الانتحار ، أو لا يكف عن الشكوى من حياته .

إنك لن تجد مهندساً معمارياً يبني جدران غرفة للجلوس مثلما يبني جدران السجن رتيبة مسطحة ، بل إنه يضيف على تلك الجدران من الانعطافات والانحناءات المناسبة ليخرجها من الرتابة .

لماذا يتميّز عالم الطبيعة بكل هذا الجمال؟

لماذا تثير فينا الغابات على سفوح الجبال ، والانهار المنسابة بين الأشجار تلتوي في المنحنيات كالأفعى ، هذا الشعور بالبهجة؟ .

إن أحد الأجوبة هو : لأنها ليست رتيبة .

إن نظام « النور » و « الظلام » ، وتعاقب الليل والنهار الذي يشير إليه القرآن في عدد من آياته ، من أهم آثاره كسر رتابة

الحياة الإنسانية ، إذ لو ظلّت الشمس تسطع من مكان واحد في السماء على الكرة الأرضية ، بغيرانْ تغيّر موضعاً ولا ان تخلي مكانها لا ستار الليل الذهبية ، وبضرف النظر عن المشكلات الأُخرىٰ ، لانتاب البشر التعب والملل .

فعلى هذا الاعتبار لا مفر لنا من الاعتراف بأن قسماً ، في الأقل ، من حوادث الحياة المؤلمة لها تأثيرها في اضفاء الحيوية على الحياة ، فتجعلها حلوة يمكن تحملها ، وتبرز نعمها وقيمها ، وتتيح للإنسان الفرصة لكي يستفيد مما وهبه الله بأقصى ما يستطيع .

٦ ـ المشكلات المصطنعة :

النقطة الأُخرىٰ التي نرى ضرورة الإشارة إليها في ختام هذا البحث هو ان كثيراً من الناس يخطئون في معرفة علل هذه الحوادث المنغصة والصعاب ، فيضعون الظلم الذي يرتكبه الظالمون على حساب عدم عدالة الخليقة .

يقولون مثلاً : لماذا تكثر الأحجار في طريق الأعرج؟ لماذا تكون ضحايا الزلازل في المدن أقل ما هي في القرى والأرياف؟ فأي عدالة هذه؟ إذا كان لا بد من توزيع كارثة ما على الناس ، فلماذا لا تتوزع بالتساوي؟ لماذا تتوجه الحوادث المؤلمة إلى المستضعفين دائماً؟ لماذا تنتشر الأمراض الوبائية بين هؤلاء أكثر من انتشارها بين غيرهم؟

هؤلاء لا يدركون أن هذه الأُمور لا علاقة لها بعالم الخليقة وبعدالة الله، بل هي من نتائج ظلم الإنسان لأخيه الإنسان واستعماره واستغلاله .

لـو لم يكن القرويـون من ضحايـا ظلم المدنيين ويعيشـون في الفقر والحرمان بسبب ذلك ، بـل كانـوا قادرين على تشييـد دورهم بـالمتانـة التي يشيد بهـا المدنيـون دورهم في المدينـة ، لما وقعت أكثرية ضحايا الزلازل في القرية .

ولكن عندما لا يكون بمقدورهم أن يبنـوا دورهم إلّا بالـطين أو بـالحجـر والأخشـاب ، دون أن تصـل أيـديهم إلى الأسـمنت والحـديد ، بـل يضعون كتـل الطين أو الحجـر في صفـوف بعضـاً فوق بعض ، فلا شك أنها ستكون عرضـة للانهيـار عند هبـوب أية ريـح أو أية زلـزلة خفيفـة ، وفي هـذه الحـالـة لا يمكن أن نتـوقـع مصيراً أفضل لهم . ولكن ما علاقة هذا بعدالة الله؟ .

إننـا لا يجوز لنـا أن نعترض قـائلين : إن الله قد أعـطى بعض الناس مئة نعمة ونعمة ، واجلس آخـرين على تراب الـذلة ، فـذاك يسكن في قصر منيف ، وهذا في كوخ ضعيف!

هذه الانتقادات ينبغي أن تـوجه إلى الـوضع الاجتمـاعي الذي فقد توازنـه واختل نـظامـه وسـار في اتجـاه غلط. يجب النهـوض لـوضـع حـد للظلم الاجتمـاعي وفقـدان العـدالـة في المجتمـع ، وللقضـاء على الفقـر والحـرمـان ، ولإعـادة حقـوق المستضعفين لأصحابها ، لكيلا تحدث هذه الظواهر .

لـو ان جميـع طبقـات الشعب نـالـوا الغـذاء الكـافي والعـلاج الـطبي الـلازم ، لاسـتـطاعـوا جميعـاً ضمـان صحتهم ومقـاومـة الأمراض .

ولكن عنـدما تكـون الحـالـة الاجتمـاعيـة في نـظام اجتمـاعي غلطاً ، فيـوفر الحكم عليـه لطبقـة من الـطبقـات كـل الامكـانـات

بحيث ان كلابها وقططها تحظى بالعناية الطبية وبالعلاج والدواء ، بينما لا يتوفر لطبقة أخرى حتى الحد الأدنى البدائي من العناية الصحية للاهتمام بمواليدها الجدد ، فإن نسبة الوفيات بين افرادها ستكون حتماً مرتفعة ويرى الإنسان الكثير من تلك المشاهد المؤلمة .

ففي أمثال هذه الحالات ، بدلاً من توجيه النقد إلى أفعال الله ، علينا أن نوجهه إلى أفعالنا :

علينا أن نقول للظالم : لا تظلم :

وعلينا أن نقول للمظلوم : لا تخضع للظلم!

وعلينا أن نسعى لكي ينال جميع أفراد مجتمع ما الحد الأدنى ، في الأقل ، من العناية الصحية والعلاجية والغذائية ، ومن السكنى والثقافة والتعليم والتربية .

لذلك ليس لنا أن نلقي بتبعة ذنوبنا وآثامنا على عاتق نظام الخليقة . متى فرض الله تعالى علينا حياة كهذه؟ أين أمرنا بمثل هذا النظام؟

صحيح ان الله قد خلقنا أحراراً ، لأن الحرية هي أساس التكامل والتقدم ، ولكننا نحن الذين نسيء استغلال هذه الحرية ونستسيغ انزال الظلم بالآخرين . فتظهر نتائج هذا الظلم بصورة اضطرابات اجتماعية .

ولكن الذي يؤسف له أن يأخذ هذا الخطأ بخناق جماعات كثيرة من الناس ، حتى شوهدت آثار ذلك في شعر بعض الشعراء المعروفين .

يقول الله في كتابه المجيد :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئاً وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [سورة يونس، الآية: ٤٤]

وهكذا نصل إلى نهاية بحثنا في فلسفة الآفات والكوارث ، على الرغم من الكثير الذي يمكن أن يقال في هذا الموضوع . إلَّا أن الذي قلناه يكفي لهذا البحث المكثف القصير .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ لماذا أجرينا البحث في فلسفة الآفات والكوارث على امتداد ثلاثة دروس؟

٢ ـ ما الأثر السيء الذي تتركه الحياة الرتيبة؟ هل سبق لك أن رأيت شخصاً يتألم من حياته المرفهة؟

٣ ـ ماذا تعرف عن فلسفة النور والظلام في عالم الخلق؟

٤ ـ هل سبب مصائب المجتمع هو نظام الخليقة ، أم ان لنا يداً في بعضها أيضاً؟

٥ ـ هل هناك وسيلة صحيحة للقضاء على المشكلات الاجتماعية؟ ما هو واجبنا نحو المستضعفين؟ .

* * *

الدرس السادس

الجبر والتفويض

من المسائل التي لها علاقة بالعدل الإلهي هي مسألة الجبر والتفويض (أو الجبر والاختيار) .

يرى الجبريون أن الإنسان في أعماله وأقوله وسلوكه ليس مختاراً وأن حركات أعضائه أشبه بالحركات الجبرية في أقسام جهاز من الأجهزة الآلية .

هذه الفكرة تثير في الذهن هذا السؤال : ترى كيف تنسجم هذه الفكرة مع الاعتقاد بالعدل الإلهي؟ ولعلَّ هذه هي الفكرة التي حدت بالأشاعرة ـ الذين سبق أن قلنا إنهم ينكرون الحسن والقبح العقليين ـ إلى القبول بفكرة الجبريين عن إنكار عدالة الله ، إذ ان مع القبول بفكرة الجبريين لا يعود هناك للعدالة الإلهية أي مفهوم .

ولتوضيح هذا الأمر لا بد من التطرق بدقة إلى عدة من المواضيع :

١ ـ مصدر الاعتقاد بالجبرية :

كـل شخص يدرك في قـرارة نفسه انـه حر في اتخـاذ ما يشـاء من قرارات . فمثلاً يقرر أن يقدم عـوناً مـادياً لصـديقه الفـلاني ، أو لا يقـدم له شيئـاً ، أو انه عنـدمـا يكـون عـطشـان ويـرى المـاء أمـامه ، لـه الحريـة في أن يشرب أو لا يشـرب . أو أن فـلانـاً قـد أسـاء إليه ، فله أن يغفـر له أو لا يغفـر . إن كل شخص يميـز بين اليـد التي ترتعش بسبب الشيخـوخة ، واليـد التي تتحرك وفق إرادة صاحبها .

إذن ، فـإذا كـانت مســألـة حــريـة الإرادة شعــور عــام في الإنسان ، لماذا يتوجه نفر من الناس إلى المدرسة الجبرية؟

بديهي إن لذلك أسبابـاً متعددة ، نـورد لكم هنا واحـداً منها : يلاحظ الإنسان أن للمحيط تـأثيراً في الافـراد ، وكذلـك التربيـة ، والتلقين ، والاعلام ، والثقافة الاجتماعية . كل هـذه تؤثر في فكـر الإنسـان وروحه . كمـا أن الحالـة الاقتصاديـة تكون أحيـاناً بـاعثـاً على سلوك معيّن في الإنسـان . ولا يمكن أيضـاً إغفـال العـامـل الوراثي .

هـذه الظروف بمجمـوعها تجعـل الإنسان يـظن أن لا خيار لـه فيمـا يفعل ، وإنّمـا هي العوامـل الذاتيـة من الداخـل ومن الخارج تضـع يداً بيـد وتحملنـا على القيـام ببعض الأعمـال التي ربمـا لم نكن لنقدم عليها لولا تلك العوامل .

هـذه أُمـور يمكن أن تـوصف بـأنهـا ممـا يفـرضهـا المحيط أو الـظروف الاقتصـاديـة أو التعليم والتـربيــة أو الـوراثــة ، وهي من العوامل المهمة التي تدفع بالفلاسفة نحو الجبرية .

٢ ـ النقطة الرئيسية في خطأ الجبريين :

إن النقطة الرئيسة التي يغفل عنها هؤلاء هي أن القضية ليست قضية « الدوافع » و« العلل الناقصة » ، بل هي قضية « العلة التامة » وبعبارة أخرىٰ ما من أحد ينكر تأثير «المحيط» و« الثقافة » و« العامل الاقتصادي » في تفكير الإنسان وأفعاله . ولكن القضية هي إننا مع كل تلك العوالم نظل قادرين على اتخاذ القرار بغير إجبار ، بل بمحض اختيارنا .

إننا ندرك بكل جلاء أننا حتى في محيط طاغوتي غلط ، مثل النظام الطاغوتي الشاهنشاهي (في إيران) سابقاً ، حيث توفرت كل وسائل الانحرافات ، لم نكن مجبرين على الانحراف ، وفي ذلك المحيط وتلك الثقافة كنا نستطيع أن لا نرتشي ، وأن لا نرتاد مواخير الفساد ، وأن لا نحيا حياة متحللة .

لذلك علينا أن نفصل بين « الظروف » و« العلة التامة » . ولهذا كثيراً ما نرى أشخاصاً ترعرعوا في محيط عائلي مرفه ، أو في محيط اجتماعي منحط ، أو انهم ورثوا موروثات سيئة ، ومع ذلك فإنهم فصلوا طريقهم عن طريق الآخرين ، بل ثار بعضهم حتى ضد المحيط الذي عاشوا فيه . فلو كان الإنسان ابن محيطه وثقافة زمانه وإعلام عصره ، لكان على الجميع أن يخضعوا لذلك المحيط ، ولما كانت هناك أيّة ثورة ضد المحيط في محاولة لتغييره .

يتضح من كل هذا أن العوامل المذكورة ليست عوامل مصيرية حاسمة ، بل هي عوامل ممهدة ، فالمصير الأصل هو الذي يصنعه الإنسان بإرادته وقراره ، وهذا أشبه ما يكون بحالنا

في عزمنا على الصيام في صيف قائظ حارق ، فإن كل ذرة في كياننا تطلب الماء بإلحاح ، ولكننا ، إطاعة لأمر الله ، نتغاضى عن كل ذلك ونستمر في صيامنا ، ولكن قد يكون هناك من يضعف أمام العطش فلا يصوم .

الخلاصة هي ان وراء جميع العوامل والدوافع عاملاً مصيرياً اسمه حرية الإنسان في اتخاذ قراره .

٣ ـ العامل الاجتماعي والسياسي في المذهب الجبري :

الحقيقة هي ان مسألة « الجبر والتفويض » قد أسيء استعمالها إساءة بالغة على امتداد التاريخ ، واستطاعت عوامل ثانوية كثيرة أن تقوي جانب الجبر وانكار حرية إرادة الإنسان من تلك العوامل :

أ ـ العامل السياسي :

كثيراً من الحكام الجبارين المعاندين الذين سعوا لإطفاء مشاعل ثورة المستضعفين لإدامة حكمهم غير المشروع ، كانوا يتعهدون فكرة الجبرية ويشيعونها ، قائلين : إننا لا نملك حرية الاختيار ، وإن يد القدر وجبرية التاريخ تمسك بمصائرنا ، فإذا كان بعض أميراً ، وبعض أسيراً ، فذاك حكم القضاء والقدر والتاريخ .

لا يخفى ما لهذا الاتجاه في التفكير من تأثير في تخدير طبقات الشعب وفي تأييد استمرار السياسات الاستعمارية ، بينما الحقيقة هي إن مصائرنا ، عقلاً وشرعاً ، في أيدينا ، وإن القضاء والقدر بمعنى الجبر وسلب الإرادة لا وجود له ، فالقضاء والقدر الإلٰهي قد تعيّن بحسب حركتنا وإرادتنا وإيماننا وسعينا .

ب ـ العامل النفسي :

هناك أشخاص ضعفاء وكسالى غالباً ما يكون الاخفاق نصيبهم في الحياة ، ولكنهم لا يريدون الاعتراف بهذه الحقيقة المرّة ، وهي ان كسلهم أو أخطاءهم هي السبب في اخفاقهم ، لذلك ، ولكي يبرئوا أنفسهم ، يتمسكون بأذيال الجبرية ، ويضعون أوزارهم على عاتق مصيرهم الاجباري ، لعلّهم بهذا يعثرون على وسيلة تمنحهم شيئاً من الهدوء الكاذب ، فيعتذرون قائلين : ماذا نفعل؟ لقد حيك بساط حظنا منذ اليوم الأول . باللون الأسود ، وليس بمقدور مياه زمزم وكوثر أن تحيل سواده بياضاً . اننا كتلة من الهمة والاستعداد ، ولكن مع الأسف ، أن الحظ لا يحالفنا !

ج ـ العامل الاجتماعي :

يحب بعض الناس ان يكونوا أحراراً في التمتع واشباع أهوائهم وارتكاب ما تشاء لهم رغباتهم الحيوانية أن يرتكبوا من الجرائم والآثام ، وفي الوقت نفسه يقنعون أنفسهم بأنهم ليسوا مذنبين ، ويخدعون المجتمع بأنهم أبرياء . وهنا يلجأون إلى عقيدة الجبرية ، فيسوغون مباذلهم بقولهم بأنهم في أعمالهم ليسوا مختارين!

ولكننا ، بالطبع ، نعلم ان كل هذا كذب محض ، بل إن الذين يتذرعون بهذا العذر يؤمنون بأنه واهٍ ولا أساس له ، إلاّ أن انغماسهم في اللذائذ الزائلة لا تسمح لهم بإعلان هذه الحقيقة .

لذلك لا بد لنا في سعينا لبناءِ المجتمع بناءً سليماً أن نكافح هذه المعتقدات الجبرية والمقولات عن المصائر الاجبارية التي

يستغلهـا المستعمرون ، وتتخـذ وسيلة لتسـويـغ الاخفـاق الكـاذب ولإفشاء الفساد في المجتمع .

* * *

فكّر وأجب

١ ــ ما الفرق بين «الجبر» و«التفويض»؟

٢ ــ ما هي أَهم ادعاءات الجبريين؟

٣ ــ ما رأيك في تأثير المحيط والثقافة والوراثة؟

٤ ــ مـا هي العوامـل «السياسيـة» و«النفسية» و«الاجتمـاعيـة» التي تؤيد عقيدة الجبرين؟

٥ ــ ما هو واجبنا تجاه هذه العوامل؟

* * *

الدرس السابع

أجلى دليل على حرية الإرادة والاختيار

١ ـ الوجدان العام في البشر يدحض الجبرية :

على الرغم من أن الفلاسفة والعلماء الإلٰهيين أكثروا البحث في مسألة حرية إرادة الإنسان ، ولهم على ذلك أدلة مختلفة ، ولكننا لكي نختصر الطريق، نتناول أوضح الأدلة على حرية إرادة الإنسان وهو الوجدان الإنساني العام :

إذا استطعنا أن ننكر كل شيء فليس بإمكاننا أن ننكر هذه الحقيقة ، وهي إن جميع المجتمعات البشرية ، سواء أكانت تعبد الله أم كانت مادية ، شرقية أم غربية ، قديمة أم حديثة ، غني أم فقير ، متقدمة أم متخلفة، ومهما تكن ثقافتها، فإنها جميعاً وبدون استثناء تؤيد ضرورة وجود «قانون» يسود المجتمعات البشرية، أي إن الفرد (مسؤول) أمام القانون. وإن الذي يخالف القانون يجب أن يعاقب بشكل ما.

أي إن سلطة القانون ومسؤولية الأفراد، ومعاينة المتخلفين أمور اتفق عليها جميع عقلاء العالم . اللهم إلاّ الشعوب البدائية

التي لم تعترف بهذه المسائل الثلاث .

إن هذه المسألة التي نطلق عليها اسم (الرأي العام العالمي) تعتبر أوضح دليل على حرية إرادة الإنسان وتمتعه بحرية الاختيار .

كيف يمكن أن نصدق أن إنساناً يكون مجبراً في إرادته وعمله ولا يملك حرية في الاختيار ، ثم نعتبره مسؤولاً أمام القانون ، فإذا نقض القانون أتينا به إلى قاعة المحكمة واستنطقناه ، لماذا فعل هذا ، ولماذا لم يفعل ذاك؟ وبعد أن تثبت خروجه على القانون نحكم بسجنه أو بإعدامه .

هذا أشبه بجلبنا الصخور ، التي تتهاوى من الجبال فتقتل الناس في الطرقات ، إلى المحكمة لمحاكمتها!

صحيح ان الإنسان يختلف كثيراً في الظاهر عن صخرة من الصخور ، ولكننا إذا أنكرنا حرية إرادة الإنسان ، فلن يكون لهذا الاختلاف الظاهري أي أثر ، فكلاهما يكونان تحت تأثير عوامل قهرية مجبرة ، فالصخرة المحكومة بقانون الجاذبية تسقط على الناس في الطريق ، والإنسان المجرم أو القاتل يكون تحت تأثير عوامل قهرية مجبرة أخرىٰ . فبناء على عقائد الجبريين ، ليس هناك أي فرق بين هذين من حيث النتيجة ، فكلاهما لم يقم بما قام به باختياره ، فلماذا يحكم أحدهما دون الآخر؟

إننا على مفترق طريقين : أمّا أن نقول بخطأ الرأي العام في العالم ، ونعتبر كل القوانين والمحاكم ومعاقبة المجرمين عبثاً في عبث ، بل ظلماً فادحاً ، وإمّا أن ننكر ما يذهب إليه الجبريون واتباعهم .

لا شك إن الرأي الأخير هو الأرجح !

وإنه لمن الغرابة بمكان أن نجد الذين ينحون في عقائدهم وأفكارهم الفلسفية منحى الجبريين ويوردون الأدلة عليها ، ينحازون إلى جانب حرية الإرادة عند دخولهم في معترك الحياة! فهم إذا اعتدى أحد على حقوقهم أو ألحق بهم ضرراً وأذى ، يرون أنه جدير بالتوبيخ والعتاب ، وقد يشكونه إلى المحاكم ، بل ربما أثاروا وهاجوا ولم يهدأوا حتى ينال غريمهم العقاب القانوني !

حسن ، فإذا كان الإنسان حقاً غير مختار فيما يفعل ، وإن ما يفعله ليس بإرادته ، فلم كل هذا التوبيخ والعتاب والشكوى والهياج؟

على كل حال ، إن هذا الرأي العام لعقلاء العالم دليل حي على حقيقة كون الإنسان يؤمن في أعماقه بحرية الإرادة ، وكان دائماً كذلك ، بل إنه لا يستطيع أن يحيا يوماً واحداً بخلاف ذلك ، وبغير أن يدير عجلة حياته على محور هذا الإيمان .

يقول الفيلسوف الإسلامي العظيم (الخواجه نصير الدين الطوسي) في بحث الجبر والتفويض ، في عبارة قصيرة :

« . . . **والضرورة قاضية بإسناد أفعالنا إلينا** »[١] .

٢ ـ تضاد منطق « الجبرية » ومنطق « الدين » :

إن الكلام المذكور آنفاً كان على تضاد الجبرية مع الرأي

---

(١) كتاب «تجربة العقائد» في بحث الجبر والاختيار.

العام عند عقلاء العالم ، سواء الذين يدينون بدين والذين لا دين لهم اطلاقاً .

إلاَّ أن هناك دليلاً آخر حديث عن وجهة النظر الدينية تبطل مذهب الجبرية ، وهو إن الاعتقادات الدينية لا يمكن أن تنسجم مع المذهب الجبري ، إذ ان القبول به يصيب العقائد الدينية بالعطب والشلل .

كيف يمكن القول بعدالة الله ـ وهي التي أثبتناها بجلاء في الدروس السابقة ـ ثم نقول انها لا تناقض العقيدة الجبرية؟ كيف يمكن القول بأن الله يجبر إنساناً على القيام بعمل ، ثم يعاقبه على ما فعل؟ ليس هذا من المنطق في شيء!

وبناء على ذلك ، إذا قبلنا بالمدرسة الجبرية ، لا يكون هناك معنى للقول بوجود «ثواب» و«عقاب» و«جنة» و«نار». كما لا يكون هناك مكان هناك لمفاهيم مثل «صحيفة الأعمال» و«السؤال» و«الحساب الإلٰهي» و«ما جاء في القرآن من ذم المسيئين والثناء على المحسنين»، وذلك لأن رأي الجبريين يقول : لا المحسن كان مختاراً عندما أحسن ، ولا المسيء كان مختاراً عندما أساء .

ثم إننا إذا تغاضينا عن كل ذلك ، فإننا عند أول اتصال لنا بالدين نواجه «التكليف والمسؤولية». ولكن أيمكن أن نكلف شخصاً بأي تكليف ونحمله مسؤولية ذلك إذا لم يكن له الخيار فيما يفعل؟

أيجوز أن نأمر شخصاً في أصابعه ارتعاش لا إرادي بأن لا

يفعل ذلك؟ أم هل يجوز أن نطلب من شخص يتدحرج على سفح جبل شديد الانحدار أن يتوقف ولا ينحدر؟

ولهذا قال أمير المؤمنين علي عليه السلام يصف ما يقوله الجبريون :

« .. تلك مقالة إخوان عبدة الأوثان وخصماء الرحمن وحزب الشيطان »[1] .

* * *

فكّر وأجب

١ ــ ما هو أوضح دليل على بطلان الجبر؟
٢ ــ اشرح الرأي العام العالمي حول مبدأ حرية الإرادة .
٣ ــ هل مؤيدو الجبرية يلتزمون الجبرية في التطبيق العملي؟
٤ ــ هل ينسجم الاعتقاد بالجبر مع مبدأ العدالة الإلٰهية؟ لماذا؟
٥ ــ كيف تكون حرية الإرادة هي أساس القبول بالتكاليف والمسؤوليات؟

* * *

(١) «أصول الكافي» ج ١ ص ١١٩ باب «الجبر والقدر» .

الدرس الثامن

ما معنى « الأمر بين الأمرين »؟
المدرسة الوسط

١ ـ « التفويض » في قبال « الجبر » :

بإزاء الاعتقاد بالجبر ، الذي يقع في جانب «الافراط»، هنالك اعتقاد آخر باسم «التفويض»، ويقع في جانب «التفريط».

يرى الذين يعتقدون بالتفويض ان الله قد خلقنا وترك كل شيء بيدنا ولا يعود أي دخل له في أعمالنا وأفعالنا ، وبناء على ذلك يكون لنا الحرية كاملة والاستقلال التام فيما نفعل بلا منازع!

لا شك في ان هذا لا يتفق ومبدأ التوحيد ، إذ ان التوحيد قد علّمنا أن كل شيء ملك لله ، وما من شيء يخرج عن نطاق حكمه ، بما في ذلك أعمالنا التي نقوم بها مختارين وبملء حرية إرادتنا ، وإلاّ فذلك شرك .

وبعبارة أوضح : ليس بالإمكان القول بوجود إلٰهين ، أحدهما هو الإلٰه الكبير ، خالق الكون ، والآخر الإلٰه الصغير ، أي

الإنسان الذي يعمل مستقلاً وبكل حرية بحيث ان الله الكبير لا يستطيع أن يتدخل في أعماله!

هذا ، بالطبع شرك وثنائية في العبادة ، أو إنه تعدد في المعبود، فعلينا إذن أن نعتبر الانسان صاحب اختيار فيما يفعل، وفي الوقت نفسه نؤمن بأن الله حاكم عليه وعلى أعماله .

٢ ـ المدرسة الوسط :

إن النقطة المهمة والدقيقة هنا هي أن لا يختلط علينا الأمر فنحسب هذين الأمرين متناقضين . الدقة في الأمر هي إننا نؤمن بـ (عدالة) الله إيماناً تاماً ، وأن نؤمن في الوقت نفسه بحرية عباد الله ومسؤوليتهم، وبـ (التوحيد) وشمول حكمه عالم الوجود كله وهذا هو ما يعبر عنه أنه (الأمر بين الأمرين)، أي الأمر الوسط بين معتقدين متطرفين غير صحيحين .

ولما كان هذا الموضوع على شيء من التعقيد. فسنورد مثالاً توضيحياً :

أفرض أنك تقود قطاراً كهربائياً في سفرة . فلا بد أن يكون هناك سلك كهربائي قوي يمتد فوق القطار، تنزلق عليه الحلقة المتصلة بالقطار. فيتحرك هذا بانتقال طاقة كهربائية قوية من محطة لتوليد الكهرباء إلى محرك القطار باستمرار، بحيث لو انقطع التيار لحظة واحدة لتوقف القطار فوراً .

بديهي انك قادر أن تتوقف أثناء الطريق حيثما تشاء ، ولك أن تزيد من سرعة القطار أو ان تخفف منها . ولكنك على الرغم

من حـريتك هـذه ، فإن الشخص القـائم على إدارة محـطة تـوليـد الكهرباء قادر في أية لحظة أن يوقف حركتك ، وذلـك لأن قدرتـك كلهـا تعتمد على تلك الـطاقة الكهـربائيـة التي يتحكم فيها شخص غيرك .

إذا دققنا النظر في هذا المثال نجـد انه على الـرغم من حريـة سائق القطار في الحـركة والسكـون، إلاّ أنه يقـع في قبضة شخص آخر وأن هذين الأمرين لا يتعارضان .

مثال آخر :

افــرض ان شخصـاً أصيبت أعصــاب يـده بــالشلل على أثـر حادث مؤسف ، فلا يستطيع تحريكها ، ولكننا إذا أوصلناهـا بطاقـة كهـربـائيـة خفيفـة أمكن إيصــال الحـرارة إليهــا بحيث تتمكن من التحرك .

فــإذا ارتكب هـذا الشخص بــذلـك اليــد جـريمــة ، فقتـل شخصـاً ، أو صفـع أحـداً ، فـإن مسؤوليـة ذلـك لا شـك تكـون عليـه ، لأنـه كــانت لـه القــدرة والإرادة ، وإن الشخص إذا ملك (القدرة والإرادة) يكون مسؤولاً عن أعماله .

ولكن في هــذا الحـال فــإن الشخص الـذي يــوصـل القــوة الكهـربائيـة إلى يد الجـاني فيولّـد فيها القـدرة يكون هـو المسيـطر الحاكم عليه ، في الوقت الذي يكون فيه هـذا مالكـاً لحريـة إرادته واختياره .

فلنعد الآن إلى موضوعنا :

لقـد وهبنا الله القـدرة والقوة، ومنحنـا العقل والـذكـاء ، وهي طاقات لا ينقطع وصولهـا إلينا من الله ، ولـو توقف نبض لـطف الله

عنا لحظة واحدة وانفصمت رابطتنا به لقضي علينا قضاء تاماً .

إننا إذا كنا قادرين على إنجاز عمل، فقدرتنا هي التي وهبها الله لنا وما زالت تصل إلينا باستمرار غير منقطع ، بل إن حرية إرادتنا أيضاً من عنده . أي انه هو الذي ارادنا أن نكون أحراراً في ارادتنا ، لكي نواصل مسيرتنا نحو التكامل بهذه الهبات الإلٰهية .

بناء على ذلك ، فإننا في الوقت الذي نملك فيه حرية ارادتنا واختيارنا ، نظل تحت سيطرة القدرة الإلٰهية ولا يمكن أن نخرج من نطاق حكمه . إننا في لحظة القدرة والقوة نكون مرتبطين به تعالى ، ولا يمكن أن نكون شيئاً بدونه . هذا هو معنى (الأمر بين الأمرين) ، إذ إننا بهذا لا نكون قد وضعنا أحداً على قدم المساواة مع الله ليكون شريكاً له ، ولا نكون قد اعتبرنا عباد الله مجبرين في أعمالهم لنقول إنهم مظلومون ، فتأمل!

لقد تعلمنا هذا الدرس من مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فعندما كان الناس يسألونهم عما إذا كان هناك سبيل بين (الجبر والتفويض) كانوا يقولون : نعم، أرحب مما بين السماء والأرض[١] .

٣ ـ القرآن ومسألة الجبر والتفويض :

يؤكد القرآن المجيد في هذه المسألة على حرية إرادة الإنسان بجلاء ووضوح في المئات من الآيات التي تصرح بحرية إرادة الإنسان .

---

(١) المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٢١ ، باب (الجبر والقدر والأمر بين الأمرين) .

أ ـ جميع الآيات التي تتناول الأوامر والنواهي والفرائض تدل على حرية إرادة الإنسان في اختيار سبيله ، إذ لو كان الإنسان مجبراً في أعماله لما كان ثمة معنى في الأمر والنهي .

ب ـ جميع الآيات التي تذم المسيئين وتمدح الصالحين دليل على حرية الإرادة ، وإلّا فلا معنى في الذم والمدح إذا كان الإنسان مجبراً .

ج ـ جميع الآيات التي تتحدث عن الحساب يوم القيامة ومحاكمة الناس في تلك المحكمة ، ثم الحكم بالعقاب أو بالثواب ، أي النار والجنة ، إن هي إلَّا دليل على حرية الإنسان في ما يعمل ، لأنه بالفرض والإجبار لا يكون هناك معنى للمحاسبة والمحاكمة ، ويكون إنزال العقاب بالمسيئين ظلماً محضاً .

د ـ جميع الآيات التي تدور حول :

﴿ كُلُّ نفس بِمَا كَسَبَت رَهِينة ﴾ [سورة المدثر، الآية: ٢٨]

﴿ وكل امرىءٍ بِمَا كَسَب رهين ﴾ [سورة الطور ، الآية : ٢١]

تدل دلالة واضحة على حرية إرادة الإنسان .

هـ ـ ثمة آيات مثل :

﴿ إنَّا هَدَيْنَاه السَّبِيل إمَّا شَاكِراً وإمَّا كَفُورا ﴾

[سورة الانسان، الآية : ٣]

واضحة الدلالة على هذا الأمر .

إلَّا أن هناك آيات في القرآن المجيد تعتبر دليلاً على «الأمر

بين الأمـرين » ، غير أن بعض الجهـلاء يخطئـون فهمهـا فيـرونهـا دليلاً على (الجبر) . منها :

﴿ وما تَشَاءُون إلاَّ أَن يَشآء الله ﴾ [سورة الانسان، الآية : ٣٠]

من الواضح ان هذه الآية وأمثالها لا تعني تجـريد الإنسـان من حـرية الاختيـار ، بل تـريد أن تؤكـد للإنسـان انه في الـوقت الذي يكون فيه تـام الحريـة والاختيار ، لا يخـرج عن أمر الله ، كَمـا مرّ بنا توضيحه .

* * *

فكّر وأجب

١ ــ ما معنى «التفويض»؟ وما النقيصة الكامنة فيه؟
٢ ــ اشـرح بعبارات جليـة مبدأ «الأمـر بين الأمرين» الـذي تعلمناه من أئمـة أهـل البيت عليهم السـلام. أيّـد شـرحـك بمثـال واضح .
٣ ــ ماذا تقول الآيات التي تتحدث عن مسألة الجبر والتفويض؟
٤ ــ إذا نحن قبلنـا بعقيدة الجبـر، فما يكـون من أمر يـوم القيامـة والجنة والنار والحساب؟
٥ ــ هـل الآيات التي تشبـه : ﴿ ومـا تشـاءون إلاّ أن يشـآء الله ﴾ دليل على الجبر؟

* * *

الدرس التاسع

الهداية والضلال بيد الله

١ ـ أنواع الهداية والضلال :

هذا مسافر غريب بيده عنوان ، فيلتقيك ويسألك أن تدلّه . إن أمامك طريقين لدلالته وإرشاده إلى ما يريده :

الأول هو أن تصحبه بنفسك حتى توصله إلى مقصده ، ثم تودعه وتذهب . وهذا هو الكمال في عمل الخير .

والثاني هو أن تشير بيدك إلى حيث ينبغي أن يتوجه وتريه مختلف العلائم والمعالم في طريقه إلى حيث يريد .

في كلتا الحالتين تكون أنت قد « هديته » إلى هدفه ، ولكن مع اختلاف الحالتين ، فالحالة الثانية هي « إراءة الطريق » والأولى هي « إيصال إلى الهدف » . والهداية قد وردت في القرآن الكريم وفي أخبارنا الإسلامية بكلا المعنيين .

وأحياناً يكون للهداية جانبها (التشريعي) فقط، أي إنها تتحقق عن طريق التشريعات والقوانين ، وقد يكون لها جانبها

« التكـويني » ، وهو « هـدايـة » النـطفـة في طـريق الخلق بـاتجـاه تكـوين الإنسـان الكـامـل الخلق . وقــد ورد هـذان المعنيــان في القرآن والأخبار أيضاً . بمعرفتنا أنواع الهـداية (ويقـابلها الضـلال) نعود إلى الموضوع :

نقـرأ في كثير من الآيـات أن الهدايـة والضلال من عمـل الله . لا شـك ان «اراءة الطريق» تكـون من قبـل الله عن طـريق إرسـالـه الأنبياء والرسـل، وانزالـه الكتب السماويـة لكي يدل الإنسـان على الطريق .

غيـر أن «الإيصـال إلى الهـدف قسـراً لا يـأتلف ومبـدأ حـريـة الاختيـار. ولكن بما أن الله يضـع تحت تصرفنـا جميـع الـوسـائـل اللازمة للوصـول إلى الهدف ، وأنـه هو الـذي يشملنا بـالتوفيق في سيـرنا في هـذا الطريق : فـإن هـذه الهـدايـة تكـون أيضـاً ، بهـذا المعنى ، من قِبَـل الله ، أي عن طـريق تهيئـة الـوسـائـل وإعــداد المقدمات ووضعها في متناول الإنسان .

٢ ـ سؤال مهم :

هنــا يــظهــر هــذا السؤال المهم ، فنحن نقـرأ في القــرآن الكريم :

﴿ . . . فَيُضِـلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَـآءُ وَيَهْـدِي مَن يَشَـآءُ وَهُـوَ ٱلْعَـزِيـزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [سورة إبراهيم ، الآية : ٤]

بعض النـاس يغفلون عن معـاني آيـات القـرآن ومـا جـاء في تفسيرها وعلاقة بعضها ببعض ، فيبادرون حالما يقـرأون هذه الآيـة

إلى الاعتراض ، قائلين : ما دام الله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء فما ذنبنا نحن؟

القضية المهمة هي اننا يجب دائماً أن نأخذ بنظر الاعتبار علائق الآيات فيما بينها حتى نتعرف على مفاهيمها الحقيقية . هنا نورد لك نماذج أخرىٰ من الآيات الخاصة بالهداية والضلال لكي نضعها إلى جانب الآية المذكورة ، ثم نستنتج منها النتيجة المطلوبة :

وفي الآية ٢٧ من سورة إبراهيم نقرأ :

﴿ . . . وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ . . . ﴾

وفي الآية ٣٤ من سورة غافر نقرأ :

﴿ . . . كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ .

وفي الآية ٦٩ من سورة العنكبوت نقرأ :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ .

وهكذا نلاحظ أن (إشاءة) الله ليست بغير حساب ، فهو لا يوفق أحداً لهدايته ، ولا هو يسحب هدايته من أحد ، بغير حساب .

فالذين يجاهدون في سبيل الله ، ويتقدمون ليصارعوا المشكلات ، ويجالدون أهواءهم النفسية ، ويقفون بصلابة في وجه الاعداء الخارجيين ، فهو قد وعدهم بهدايته ، وهذا هو العدل بعينه .

أما الذين يقيمون صرح (الظلم والجور) ويسيرون في طريق

« الإسـراف والشك » وإيجـاد الريبـة والتردد « فـإن الله يحرمهم من التوفيق إلى الهداية ، وتصبح قلوبهم مظلمة سـوداء بسبب أعمالهم تلك ، فـلا يكون من نصيبهم الـوصول إلى منـزل السعادة . وهـذا هـو معنى إن الله يضـل من يشـاء ، وذلـك بـوضعنـا أمـام نتـائـج أعمالنا ، وهو العدالة بعينها أيضاً ، فتأمل!

٣ ـ العلم الأزلي سبب العصيان :

آخـر نقطة أود بحثهـا في مـوضـوع « الجبـر والتفـويض » هي الذريعة التي يتذرع بها بعض الجبريين ، وهي علم الله الأزلي .

يقـولون : هـل يعلم الله إن فلانـاً يقـوم في السـاعـة الفـلانيـة بجـريمة قتـل ، أو يشرب الخمـر؟ إذا قلت : لا يعلم فقد أنكـرت علم الله . وإذا قلت : يعلم ، فـلا بد لهـذا الشخص أن يفعـل مـا فعل ، وإلاَّ ظهر علم الله مغايراً للواقع .

ولـذلـك فلكي يمكن تحقق علم الله ، فـإن العصـاة مجبـرون على ارتكـاب خطايـاهم ، كما أن الصـالحين مجبرون على القيـام بأعمالهم الصالحة!

إن الـذين اتخـذوا هـذه الـذريعــة ليخفـوا وراءهـــا جـرائمهم وآثـامهم قد فـاتتهم في الواقـع حقيقة واحـدة ، وهي اننا نقـول ان الله عالم منذ الأزل بـأننا سنقـوم بإرادتنـا وبملء اختيـارنا بـالأعمال الصالحة أو الطالحة ، أي إن اختيـارنا وإرادتنـا معلومان عنـد الله ، وهذا يعني إن إجبارنا يعني إن علم الله جهل، فتأمل!

اسمحــوا لي ان أجســد هــذا المــوضــوع ببعض الأسئلة : لنفرض أن معلماً يعرف ان الطالب الفـلاني الكسلان سـوف يسقط

في آخر السنة ، وانه واثق من ذلك كل الثقة استناداً إلى ما لديه من خبرة وتجارب طويلة .

فهل يحق لهذا الطالب، إذا سقط في النهاية ، أن يأخذ بخناق هذا المعلم بحجة أن تنبؤه ومعرفته أجبرته على السقوط؟

وإذا ارتفعنا في أمثلتنا ، نقول : لنفرض ان هناك شخصاً معصوماً من الخطأ ، وان هذا الشخص قد علم بأن حدثاً جنائياً سوف يقع في اليوم الفلاني ، فيرى من المصلحة أن يتدخل في الأمر ، فهل علم هذا الشخص المعصوم يرفع المسؤولية عن المجرم ويعتبره مجبراً على ارتكاب ما ارتكب؟

مرة أخرى أفرض انهم اخترعوا جهازاً يتنبأ بحدوث الحوادث قبل وقوعها بساعات ، فتخبر بأن فلاناً سوف يقوم بملء اختياره بالعمل الفلاني في الساعة الفلانية . فهل هذه المعلومات تكون سبباً في اعتبار الشخص مجبراً على أن يفعل ما يفعل؟

الخلاصة هي ان علم الله لا يجبر أحداً على القيام بعمل أبداً .

* * *

فكّر وأجب

١ ــ ما أنواع الهداية؟ إشرحها .
٢ ــ اذكر بعض الآيات التي تنسب الهداية والضلال إلى الله .
٣ ــ كيف تفسر الهداية والضلالة الإلٓهيتين؟ .
٤ ــ ما معنى علم الله الأزلي؟
٥ ــ هل يجردنا العلم الأزلي من حرية إرادتنا ويرفع عنّا المسؤولية؟ إضرب لذلك مثلاً .

الدرس العاشر

العدل الإلٓهي ومسألة الخلود

نقرأ في القرآن الكريم الكثير من الآيات التي تتحدث عن ان عقاب بعض الكفار والآثمين هو (الخلود) في العذاب والنار.

الآية ٦٨ من سورة التوبة تقول :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا . . . ﴾ .

وفيما يلي من تلك الآية نفسها يعد الله الرجال والنساء بما يلي :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا . . . ﴾ [سورة التوبة، من الآية: ٧٢]

هنا يبرز أمامنا السؤال التالي : كيف يجوز أن يعاقب شخص ارتكب إثماً خلال عمره ، الذي قد لا يتجاوز ثمانين سنة أو مئة ، فيعاقب على ذلك بالبقاء في العذاب ملايين السنين أو أكثر؟

هذا التساؤل ليس مهماً ، بالطبع ، بالنسبة للثواب ، إذ ان بحر رحمة الله واسع ، وكلما ازداد الثواب كان ذلك أدل على رحمته وفضله . ولكن بالنسبة للأعمال السيئة ، كيف يمكن أن يعاقب المرء على سيئات محدودة بعذاب خالد؟ كيف يمكن لهذا أن ينسجم مع العدالة الإلهية؟ ألا يجب أن يكون هناك نوع من التعادل بين الجريمة والعقاب؟

الجواب :

للوصول إلى جواب شاف ونهائي لهذا السؤال ينبغي أن نلاحظ الأمور التالية :

أ ـ إن العقوبات يوم القيامة لا تشبه كثيراً العقوبات في هذه الدنيا ، كأن يرتكب أحدهم في هذه الدنيا جريمة السرقة مثلاً فيعاقب بالسجن مدة معينة ، بل إن عقوبات يوم القيامة أكثر ما تكون بهيئة آثار أعمال الإنسان وخصائصها .

وبعبارة أوضح ، ان العذاب الذي يعاني منه المذنبون في عالم الآخرة هو نتيجة لأعمالهم التي تصيبهم . يقول القرآن في تعبير صريح :

﴿ فَٱلْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة يّس ، الآية : ٥٤]

ولنضرب مثلاً بسيطاً يجسد هذه الحقيقة :

يندفع شخص ما في تعاطي المخدرات والمشروبات الكحولية ، وكلما نصحوه بترك هذه المواد السامة التي تضر بمعدته وتضعف قلبه وتحطم أعصابه ، لم يجدوا عنده أذناً

صاغية ، بل يمضي بضعة أسابيع أو شهور في الاستمتاع الموهوم بهذه المواد القاتلة حتى تظهر عليه آثار قرحة المعدة وانهيار الأعصاب وأمراض القلب ، ويبقى بعد ذلك طوال عمره يعاني الآلام من تلك الأمراض ، يئن منها ليله ونهاره .

فهل يمكن أن نعترض هنا فنقول إن هذا الشخص الذي لم يذنب سوى لبضعة أسابيع أو أشهر ، كيف يظل يعاني بقية عمره ولسنوات عديدة تلك الآلام ويتحمل كل ذلك العذاب؟ لا شك إن الجواب سيكون فوراً : تلك هي نتائج أعماله! وحتى لو أعطى عمر نوح أو أكثر وعاش آلاف السنوات ، فإنك كلما رأيته يتألم من تلك الأمراض قلت : هذا العذاب هو الذي أنزله بنفسه بمحض إرادته وكامل وعيه .

إذن « أكثر » عقوبات يوم القيامة من هذا القبيل ، وعليه فلا يبقى أي مجال للاعتراض على عدالة الله .

ب ـ من الخطأ أن يظن بعضهم أن مدة العقاب يجب أن تتناسب مع مدة الذنب ، لأن العلاقة بين الذنب وعقابه ليست علاقة زمنية ، بل تتعلق بكيفية الذنب ونتائجه .

فقد يقتل شخص رجلاً بريئاً في لحظة واحدة ، فيحكم عليه بالسجن المؤبد حسب قوانين بعض البلدان . فهنا نلاحظ أن زمن الذنب لم يتجاوز بضع لحظات ، بينما العقاب يمتد عشرات السنين ، ومع ذلك لا يعترض أحد على ذلك بأنه ظلم وذلك لأن القضية هنا ليست قضية دقائق وساعات وأشهر وسنوات ، بل هي قضية كيفية الجرم ونتائجه .

ج ـ « الخلود » في النار والعقاب والأبدي إنما يحيق بالذين

يغلقون أمام أنفسهم جميع منافذ النجاة ، ويغرقون عن عمد ووعي في الفساد والكفر والنفاق ، بحيث إن ظلام الإثم يغطي جميع أرجاء وجودهم حتى يصبحوا قطعة من الكفر والعصيان .

وفي هذا يقول القرآن في تعبير رائع :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ أُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٨٢]

وهؤلاء هم الذين قطعوا كل صلة لهم بالله ، وأغلقوا في وجوههم جميع نوافذ النجاة والسعادة . انهم أشبه بالطائر الذي يقوم عمداً بكسر أجنحته وإحراقها ، فيمسي مجبراً على المكوث على الأرض دائماً ، محروماً من التحليق في أجواء السماء العالية .

إذا أخذنا النقاط الثلاث المذكورة بنظر الاعتبار اتضح لنا ان قضية الخلود في العذاب الأبدي الذي يكون من نصيب بعض المنافقين والكفار لا تناقض مبدأ العدالة ، لأن الخلود في العذاب جاء نتيجة لأعمالهم هم ، على الرغم من أن الأنبياء والرسل قد أبلغوهم أن لتلك الأعمال نتائج مرة ومشؤومة .

لا ريب في أن الذين لم تصلهم دعوة الأنبياء ، فارتكبوا ما ارتكبوا من باب الجهل ، فإن عقابهم لا يكون بتلك الشدة .

ولا بد من القول بأنه يستفاد من الآيات والأخبار الإسلامية أن بحر رحمة الله من السعة والانفتاح بحيث انها تغسل بأمواجها ذنوب الكثيرين من الآثمين :

فبعض بالشفاعة . .

وبعض بالعفو والغفران ،

وبعض لما قاموا به من أعمال صالحة صغيرة ، ولكن الله بعظمته يثيبهم عليها ثواباً عظيماً ،

وبعض آخر يقضون فترة العقاب ليتطهروا في بوتقة التصفية الإلَهية ، ثم يعودون إلى كنف الرحمة الإلَهية .

ولا يبقى إلّا أولئك المعاندون ، أعداء الله ، الذين أصروا على الظلم والفساد والنفاق حتى استغرقهم ظلام كفرهم وضلالهم كلياً .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ كيف يظن بعضهم أن الخلود في النار يتعارض مع العدل الإلَهي؟

٢ ـ هل تشبه عقوبات العالم الآخر العقوبات في هذه الدنيا؟ فإن لم تكن، فكيف هي؟

٣ ـ هل تقتضي العدالة أن يكون هناك تناسب بين فترة الإثم وفترة العقاب؟

٤ ـ من هم الذين يكون عقابهم الخلود في النار؟

٥ ـ من هم الذين يشملهم العفو الإلَهي؟ .

سلسلة الدروس الدينية في العقائد الإسلامية

القسم الثالث

معرفة النبوّة

الدرس الأول

حاجتنا إلى القادة الإلهيين

قصور علمنا :

قـد يتساءل بعضهم : أمن الضـروري أن يبعث الله الأنبياء كي يهـدوا الإنسـان؟ ألا يكفي عقلنـا وحكمتنـا لإدراك الحقـائق؟ ألا يساهم تقدم العلوم عند البشر في كشف الأسرار الغامضـة وتوضيـح الحقائق جميعها؟

ثم إن مـا يأتي بـه الأنبياء لا يخـرج عن حالتين اثنتين : فـإمّـا أن يدركه عقلنا ، وإما أنه لا يدركه .

ففي الحالة الأولى ، لا حاجة بنـا لتجشم الأنبياء هـذا العناء ، وفي الحالة الثـانية ، لا يمكننـا أن نتقبل أمـوراً هي خلاف مـا يراه عقلنا .

ثم من جهة أُخرىٰ ، هـل يصحّ أن يضـع الإنسان نفسـه تحت تصـرف شخص آخر كليـاً ويطيـع أوامره بغيـر أي اعتراض؟ أوليس الأنبيـاء بشـراً مثلنـا؟ فكيف نضـع أنفسنـا تحت تصـرف إنسـان لا يختلف عنّا بشيء؟ .

للإجابة عن هذه الأسئلة لا بد من الأخذ بنظر الاعتبار النقاط التالية التي سوف تبيّن أهمية الأنبياء في نظام حياة البشر :

١ ـ علينا أن ندرك أن علمنا قاصر ومحدود، فعلى الرغم من كل هذا التقدم العلمي الذي حققه الإنسان في مختلف ميادين العلوم ، فإن ما نعلمه بالنسبة لما لا نعلمه لا يكاد يبلغ مقدار قطرة الماء بإزاء البحر ، أو بإزاء الجبال ، أو كما قال أحد كبار العلماء : إن كل ما نعلمه اليوم لا يزيد على الألف باء في كتاب عالم الوجود العظيم .

وبعبارة أُخرىٰ ، ان المساحة التي يحكمها عقلنا وإدراكنا مساحة صغيرة تضيؤها أشعة العلم ، أما ما هو واقع وراء ذلك فلا علم لنا به إطلاقاً . فيأتي الأنبياء ليلقوا لنا الضوء على مناطق أوسع بالقدر الذي نحتاجه . صحيح ان عقلنا أشبه بكاشف قوي النور ، ولكن الأنبياء بما يأتون به من الوحي الإلٓهي يكونون أشبه بالشمس التي تسطع على الكائنات . أفهناك من يقول : ما دمنا نملك هذا الكاشف القوي ، فما حاجتنا بالشمس؟

وبتعبير أوضح نقول إن أُمور الحياة يمكن تقسيمها إلىٰ ثلاثة أقسام : « **المعقول** » و « **غير المعقول** » و « **المجهول** » .

والأنبياء لا يمكن أن يقولوا شيئاً « غير معقول » وخلافاً لما يقول به العقل وتحكم به الحكمة ، فإذا قالوا فهم ليسوا أنبياء . إنما الأنبياء يعينوننا على إدراك المجهولات ، وهو أمر مهم لنا .

وعليه ، فإن الذين كانوا يقولون : إننا بوجود العقل والحكمة لا نحتاج إلى أنبياء (مثل الطائفة البرهمية في الهند وفي أماكن أُخرىٰ) ، أو الذين يتقولون اليوم : مع العلم وانجازاته وانتصاراته

العلمية ، لم تعد حاجة إلى الأنبياء وتعليماتهم . كلاهما لم يعرفا حدود العلم عند البشر ، ولا رسالة الأنبياء الإلّهية .

هذا يكون أشبه بالصبي الذي درس الحروف الهجائية في المدرسة ثم قال إنه أصبح عالماً بكل شيء ولم يعد بحاجة إلى المعلم والأستاذ .

ثم إن الأنبياء ليسوا مجرّد معلمين ، فإن مركزهم كقادة له حكاية قائمة بذاتها سوف نتناولها بالشرح إنْ شاء الله .

٢ ــ لم يقل أحد أن على المرء أن يضع نفسه كلياً تحت تصرف شخص آخر مثله ، فالكلام هنا على الأنبياء الذين ينطقون عن الوحي الإلّهي ، فعلينا أن نتأكد من ارتباطهم بعلم الله اللامتناهي عن طريق الأدلة الدامغة . ففي هذه الحالة وحدها يمكن أن نتقبل أقوال هؤلاء القادة الربانيين بمجامع قلوبنا . إذا أنا عملت بحسب إرشاد طبيب ماهر ، فهل أكون قد ارتكبت عملاً مرفوضاً؟

إن الأنبياء أطباء روحانيون عظام!

فإذا أنا استوعبت درس معلم ينسجم مع عقلي وفكري ، فهل أكون قد أخطأت؟

إن الأنبياء معلمون كبار!

يحسن بنا أن نبحث أدلة ضرورة إرسال الأنبياء من قِبَل الله .

إن هناك ثلاثة أدلة حية تؤكد حاجتنا إلى هداية الأنبياء :

١ ــ الحاجة إلى التعلم :

لو اننا امتطينا سفينة خرافية متخيلة مصنوعة من أمواج النور ،

تنطلق بسرعة ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية في هذا الفضاء اللامتناهي ، فإننا سوف نحتاج إلى الآلاف من مثل عمر نوح حتى نستطيع أن نستكْشف زاوية من هذا الكون المترامي الأطراف السحيق .

إن هذا الكون باتساعه المخيف لا بد أنه لم يخلق عبثاً . لقد علمنا من دروس « معرفة الله » إن خلق هذا العالم لا ينفع الله بشيء ، لأنه كامل ، وغير محتاج ، ولا نهاية له ، فليس به نقص لكي يسعى لسدّه عن طريق خلق العالم والبشر .

نستنتج من هذا ان هدفه هو أن يفيض على البشر من جوده ورحمته ، ليوصل الكائنات الأُخرىٰ إلى التكامل ، كالشمس التي تشرق بنورها على أهل الأرض بغير أن تكون محتاجة إليهم ، بل إنما نحن الذين نحتاج إلى ضوئها ، وإلَّا فما الذي نستطيع أن نفعله لصالح الشمس؟

ثم ، من جهة أُخرىٰ ، أتكفي معلوماتنا وحدها للسير بنا في طريق التكامل وإيصالنا إلى مرحلة الإنسان الكامل من جميع الوجوه؟

تُرىٰ كم نعرف من أسرار العالم؟ ما هي حقيقة الحياة؟ متى وجد هذا العالم؟ إن أحداً لا يعرف الجواب القاطع عن هذه الأسئلة .

حتى متى سنبقى؟ لا أحد يعرف الجواب كذلك .

ومن حيث الحياة الاجتماعية والاقتصادية كل عالم من علماء البشر له رأي أو نظرية .

فبعض يوصون بالرأسمالية ، وفريق آخر يرتأون الاشتراكية والشيوعية ، وآخرون يرفضون هذا وذاك كليهما .

وفي مسائل الحياة الأُخرىٰ تجد مثل هذا الاختلاف قائماً وبكثرة ويصاب الإنسان بالحيرة ، ترى أيها يختار؟

هنا لا بد لنا من أن نعترف بأننا ، لكي نصل إلى هدف الخلق الأصيل ، وهو « نمو الإنسان وتكامله وتربيته على جميع المستويات » ، نحتاج إلى مجموعة من التعليمات الصحيحة والسليمة والخالية من كل خطأ ، والمستندة إلى حقائق الحياة الواقعية ، تمكّن الإنسان من السير في الطريق الطويل الموصل إلى هدف الخلق الأصيل .

وهذا لا يكون إلّا عن طريق العلم الإلٰهي ، أي الوحي السماوي الذي ينزل على الأنبياء . ولهذا فإن الله الذي خلقنا لكي نسير في هذا الطريق لا بد له أن يتيح لنا مثل هذا العلم وهذه المعرفة .

٢ ـ الحاجة إلى القائد اجتماعياً وأخلاقياً :

إن فينا ، كما نعلم ، إضافة إلى العقل ، غرائز وميولاً قوية ، مثل غرائز حب الذات ، والغضب ، والجنس ، وغرائز أُخرىٰ كثيرة .

لا شك أننا إذا لم نكبح جماح غرائزنا وتركناها تسيطر علينا ، فإن عقلنا سيكون مقيداً محجوراً عليه ، ويتحول الإنسان إلى مثل جبابرة التاريخ وطغاته وأشد خطراً من ذئاب الصحارى المفترسة .

لـذلك فنحن بحـاجة إلى التـربية الأخـلاقية على يـد مـرب ، وإلى « الأسوة » الذي علينا أن نحاكيـه في الأقوال والأفعـال ونحذو حذوه .

إن أسـوة كهـذا يجب أن يكـون ذا تـربيــة كـاملة من جميـع الجهـات بحيث يستطيـع أن يأخـذ بيـدنـا في هـذا الـطريق الكثيـر المنعطفات وينقذنا من طغيان غرائـزنا ، ويـزرع في نفوسنـا أصول الفضائل والأخلاق بأعماله وأقواله ، ويربينا على الشجـاعة ، وحب بني البشــر ، والمـروءة ، والتضحيــة ، والــوفــاء ، والصـــدق ، والأمانة ، وطهارة الروح .

فمن الـحـق بأن يكون هذا المربي والقـائد غيـر نبي معصوم؟ ولهـذا فإن الله القـادر الرحيم لا يمكن أن يحـرمنا من أمثـال هؤلاء الأنبياء المربين الهداة .

(ستأتي بقية هذا البحث في الدرس القادم)

* * *

فكّر وأجب

١ ـ إذا ازددنـا علمـاً ومعـرفـة فهــل تـظن أن معلومــاتنـا تفــوق مجهولاتنا؟ مثّل لذلك .
٢ ـ أتستطيع أن تبيّن الفرق بين التقليد الأعمى واتّباع الأنبياء؟ .
٣ ـ إذا سرنا على طريق مجهولة بدون هـاد يهدينـا ، فما الأخـطار التي قد تهددنا؟
٤ ـ بيّن أبعاد حاجتنا إلى قيادة الأنبياء .
٥ ـ ما الموضـوع الذي تـظن أنه بقي إلى الـدرس القادم في هـذا البحث؟

الدرس الثاني

الحاجة إلى الأنبياء كمشرعين

في الدرس السابق أدركنا الحاجة إلى الأنبياء من حيث « التربية » و « التعليم » . والآن جاء دور القوانين الاجتماعية والدور المهم الذي يضطلع به الأنبياء بهذا الشأن .

إننا نعلم أن أهم سمة تتسم بها حياة الإنسان ، والتي تعد أهم عامل في تقدم الإنسان وإنجازاته في مختلف أدوار حياته ، هي الحياة الاجتماعية .

لو أن الإنسان بقي يعيش منفصلاً عن اخوته ، لكان الآن باقياً على مستواه الفكري والحضاري المنحط الذي كان عليه إنسان العصر الحجري .

نعم ، إن المحاولات والمساعي الجماعية هي التي أوقدت مشعل الثقافة والحضارة ، وهي التي كانت الدافع إلى بلوغ كل هذه الاكتشافات والاختراعات العلمية .

خذ مثلاً الوصول إلى القمر ، تجد أن هذا الانجاز كان

حصيلة عمل عدد من العلماء ، بل الآلاف منهم تضافرت جهودهم على مدى آلاف السنين ، في البحث والتجربة . وما كان هذا ليتم لولا الحياة الاجتماعية التي تراكمت فيها الخبرات والمعارف حتى حققت هذا الانجاز العظيم .

أو إذا نجح طبيب حاذق في عصرنا في ، زرع قلب إنسان ميت في صدر إنسان حي ذي قلب مريض ، فأنقذه من موت محتم ، فإنه يكون مديناً بنجاحه إلى آلاف التجارب السابقة التي أجراها آلاف الأطباء والجراحين انتقلت على امتداد التاريخ من طبيب إلى طبيب حتى وصلت إليه .

غير أن للحياة الاجتماعية مشكلاتها إلى جانب محاسنها الكثيرة ، كتضارب المصالح والرغبات والحقوق ، مما يؤدي أحياناً إلى اندلاع نيران المصادمات الدموية والحروب الطاحنة .

هنا تظهر حاجتنا إلى القوانين والتعليمات الواضحة التي تحل لنا ثلاث مشكلات كبيرة :

١ ـ القانون يحدد واجبات كل فرد نحو المجتمع ، وواجبات المجتمع نحو الافراد ، بحيث تنفتح المواهب ضمن مساع متعاونة .

٢ ـ القانون يمهد طريق الإشراف على حسن أداء الافراد لواجباتهم .

٣ ـ القانون يحول دون قيام الافراد بالاعتداء على حقوق الآخرين ، ويمنع انتشار الفوضى والتضارب بين الافراد والجماعات ، ويقرر العقوبات المناسبة على المعتدين .

في هـذه الحالـة يتعين علينا أن نعـرف من هو أفضـل شخص يستـطيع أن يسن القـوانين التي تتطلبهـا حياة البشـر الاجتمـاعيـة ، بحيث تتحقق فيهـا المبـادىء الثـلاثـة المـذكـورة : بيـان الحقـوق والـواجبـات للفـرد والمجتمـع ، والإشـراف السليم على تنفيـذ القوانين ، ووقف عدوان المعتدين .

ولنضرب هنا مثلاً بسيطاً :

يمكن أن نشبـه المجتمـع البشـري بقـطار كبيـر ، والهيئـة الحاكمة بمـاكنة القـطار والتي تحرك القـطار في مسيره ، والقـانون بمثـابة السكـة الحديـد التي تعيّن الخط الذي يجب أن يسيـر عليه القـطار كي يصـل إلى غـايتـه ، مـاراً بـالمنعـطفـات والمـرتفعـات والمنخفضات والجبال والوديان .

لا شك أن السكة الحديد الجيـدة يجب أن تتوفـر فيها الأُمـور التالية :

الأرض التي تمتـد عليها السكـة يجب أن تكون صلبـة تتحمل أقصى ضغط يمكن أن يسلّط عليها .

الفاصلة بين الخطين يجب أن تكون متساويـة على امتدادهمـا بدقة متناهية بحيث تسـاوي الفاصلة بين عجـلات القطار . كمـا أن جدران الانفاق وارتفاعاتها يجب أن تناسب القطار الذي يمرّ بها .

الارتفـاعات والانحـدارات يجب أن لا تكون حـادة إلى درجـة لا تستطيع معهما الماكنة سحب القطار ، أو إيقافه عند اللزوم .

ثم هناك احتمالات الانهيـارات الجبلية وتهـاوي أحفّة الـوديان

التي يمر بها القطار ، وكذلك السيول والثلوج الساقطة ، يجب أن تؤخذ كلها بالحسبان الدقيق لكي يستطيع القطار أن يواصل مسيرته في مختلف الظروف والحالات ، وان يصل هدفه بسلام .

نعود إلى « المجتمع الإنساني » لتطبيق هذا المثال عليه :

إن المشرّع الذي يريد أن يضع خير القوانين للبشر يجب أن تتوفر فيه الشروط التالية :

١ ـ أن يكون عارفاً معرفة تامة بالبشر ، بغرائزهم ، وعواطفهم ، وحاجاتهم ، ومشكلاتهم وكل ما يتعلق بهم .

٢ ـ أن يأخذ بنظر الاعتبار جميع مؤهلات الناس واستعداداتهم ومواهبهم لكي يستخدم القوانين في سبيل تفتحها وازدهارها .

٣ ـ أن يكون قادراً على التنبؤ بما يمكن أن يقع في المجتمع من حوادث وبطرق مواجهتها على أفضل وجه .

٤ ـ أن لا تكون له أيّة مصالح شخصية ولا أي من أقربائه والمختصين به .

٥ ـ أن يكون عارفاً بكل ما حققه الإنسان في تقدمه ، وما أصابه من احباط وإخفاق .

٦ ـ أن يكون في أقصى درجة من العصمة ضد الخطأ والنسيان .

٧ ـ وأخيراً ، على هذا المشرع أن يكون شجاعاً وجريئاً ، فلا ترهبه أيّة قوة ولا شخصية في المجتمع ، ولا يخشىٰ أحداً

أبـداً ، على أن يكون ، في الـوقت نفسـه ، على قـدر كبيـر من المحبة والعطف .

من الذي تتوفر فيه هذه الشروط؟

هل يكون الإنسان أفضل مشرّع؟

أهنـاك من عرف الإنسـان حتى الآن معرفـة تـامّـة؟ كتب أحـد كبـار العلماء المعـاصرين مؤخـراً كتابـاً عنوانـه : « الإنسان ، هـذا الكائن المجهول » .

هل عرفت نفسية الإنسان وغرائزه وميوله وعـواطفه معـرفة تـامّة حتى الآن؟ .

هل يمكن العثور بين الناس على شخص لا تكون لـه مصالـح خاصة في المجتمع؟ .

أهنـاك بين الناس العـاديين إنسان يكـون مصونـاً من كل خـطأ ونسيـان ، وله معـرفـة تـامّـة بجميـع مشكـلات المجتمـع البشـري وأفراده؟ .

إذن ، لن تجـد بين النـاس العـاديين من تـوفـر فيـه الشـروط المطلوبة ، لـذلك ليس سـوى الله ، وذاك الذي يتلقى وحيـه ، من يمكن أن يكون أفضل مشرّع لبني البشر .

وهكـذا نصل إلى هـذا الاستنتـاج : ان الله الـذي خلق البشـر ليسيروا في طريق التكامل ، لا بـد أن يبعث أُناسـاً يأمـرهم بهدايـة البشـر نحـو الله ، ويبيّن لهم شـريعـة السمـاء الإلّهيـة الجـامعـة والشاملة .

ولا ريب أن الناس إذا علموا أن الشريعة التي بين أيديهم نازلة من الله ، فإنهم يطبقونها بكل ثقة واطمئنان ، أي أن علمهم بذلك يضمن تطبيق القوانين تطبيقاً لائقاً .

العلاقة بين التوحيد والنبوّة :

هنا ينبغي أن نلتفت إلى هذه النقطة ، وهي ان نظام الخلق نفسه خير شاهد حي على ضرورة وجود الأنبياء ورسالاتهم الإلّهية .

وذلك لأن نظرة واحدة إلى نظام الخليقة العجيب تدلنا على أن الله تعالى لم يغفل بلطفه عن تأمين أي حاجة من حاجات الإنسان فهو عندما خلق العين لكي ننظر بها ، خلق معها الأجفان والأهداب للحفاظ عليها ولتنظيم سقوط الضوء عليها .

وخلق في زوايا العين غدداً تفرز الدموع لكي يبقى سطحها رطباً دائماً ، إذ أن جفافها يذهب بها .

وفضلاً عن ذلك خلق في العين نافذة صغيرة تسيل خلالها الدموع الزائدة إلى الأنف ، ولولا هذه النافذة الصغيرة لاستمرت الدموع تسيل على وجوهنا .

ويمنح بؤبؤ العين من الحساسية الشديدة بحيث انه يتأثر بشدة الضوء وضعفه فيضيق ويتسع تبعاً لذلك بصورة لا إرادية لكيلا يصيب العين ضرر من جراء شدة الضوء .

وفي أطراف كرة العين عضلات مختلفة تسهّل عليها الدوران إلى الجهات المختلفة بغير حاجة إلى إدارة الرأس والجسم .

فهل الله الذي لا يغفل عن حاجات الإنسان الدقيقة هذه يمكن أن يحرم الإنسان من هاد وقائد موثوق به ومعصوم من الخطأ ويأتمر بأوامر الله ووحيه؟

يقول الفيلسوف المعروف ابن سينا في كتابه « الشفاء » المشهور :

« لا شك أن حاجة الإنسان إلى إرسال الأنبياء إليهم لبقاء النوع ولبلوغ الكمالات أشد ضرورة من نمو الأهداف والحواجب وتقعر باطن القدم وأمثالها ، وذلك لأنه ليس من الممكن أن يوجب الله سبحانه وتعالى تلك الأمور ولا يوجب هذا الأمر .

* * *

فكّر وأجب

١ ــ ما هي أعظم مميزات حياة البشر؟

٢ ــ لماذا لا يمكن للإنسان أن يعيش بغير قانون؟

٣ ــ هات مثالاً حياً لتوضيح دور القانون في حياة البشر.

٤ ــ ما الصفات التي يجب أن يتحلى بها أحسن مشرّع؟

٥ ــ لماذا يجب أن يكون الأنبياء من البشر؟

* * *

الدرس الثالث

لماذا الأنبياء معصومون؟

الصيانة من الإثم والخطأ

لا بد لكل نبي أن يكون موضع ثقة عموم الناس قبل كل شيء بحيث لا يجدون في كلامه أي احتمال للكذب والخطأ والتناقض . إذ أن مركزه سوف يتزلزل في غير هذه الحالة .

إذا لم يكن الأنبياء معصومين فإن الباحثين عن الاعذار سوف يحتجون بكونهم معرضين للخطأ ، كما أن الباحثين عن الحقيقة يتزعزع ايمانهم بصحة محتوى دعوتهم ، فيرفض الطرفان رسالاتهم ، او انهم ، في الأقل ، لا يكون تقبلهم لها مصحوباً بحرارة الثقة والإيمان .

هذا الدليل ـ الذي يسمى « دليل الاعتماد » ـ يعتبر من أهم أدلة عصمة الأنبياء .

وبتعبير آخر : كيف يمكن أن يأمر الله الناس أن يطيعوا شخصاً غير ملتزم ومعرض للخطأ ولأرتكاب المعاصي؟ لأنهم ان

اطاعوه فقد تابعوا الخطأ والإثم ، وإن لم يطيعوه فقد نسفوا مقامه كقائد، خاصة ان مركز قيادة الأنبياء يختلف تماماً عن القيادات الأخرىٰ ، لأن الناس يستقون منهم جميع عقائدهم وبرامج سلوكهم .

ولهذا نجد كبار المفسرين عندما يصلون إلى هذه الآية : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسول وأُولي الأَمر مِنْكُم ﴾[1] .

يقولون إن الأمر بالإطاعة المطلقة دليل على أن النبي معصوم وأولي الأمر معصومون أيضاً . وأولو الأمر هم الأئمة المعصومون مثل عصمة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإلَّا لما أمر الله بإطاعتهم طاعة مطلقة أبداً .

الطريق الآخر لاثبات معصومية الأنبياء ، من كل إثم هو ان « عوامل ارتكاب الإثم في نفوس الأنبياء محكوم عليها بالهزيمة » .

إننا إذا راجعنا أنفسنا نجد اننا أنفسنا نكاد نكون معصومين من ارتكاب بعض الأعمال السيئة أو القبيحة ، لاحظ المثال التالي :

هل تستطيع أن تعثر على إنسان عاقل يفكر في أكل النار ، أو الازبال ، أو القذارات ؟ .

هل هناك إنسان عاقل يخرج عارياً تماماً ليسير في الطرقات؟ .

طبعاً لا ، وإذا صدر هذا عن شخص لقلنا فوراً انه خارج عن حالته الطبيعية وانه مصاب ببعض الأمراض النفسية ، وإلَّا فإن

من المستحيل أن يقدم إنسان مالك لقواه العقلية الكاملة على ذلك .

عندما نحلل أمثال هذه الأعمال نلاحظ أن قبح هذه الأعمال على درجة من الوضوح في أذهاننا بحيث لا يوجد عاقل يرتكبها .

هنا نستطيع بجملة مكثفة أن نجسد هذه الحقيقة ، فنقول : إن كل عاقل وسليم « مصون » من ارتكاب بعض الأعمال القبيحة . وبعبارة أُخرىٰ ، انه « معصوم » منها .

ثم نخطو خطوة أُخرىٰ فنقول : هناك أشخاص معصومون من ارتكاب بعض الأعمال غير اللائقة التي لا يجد الناس العاديون حرجاً في ارتكابها .

فمثلاً ، هذا الطبيب العارف بأنواع الميكروبات لا يمكن أن يقبل الشرب من الماء الملوّث الناتج عن غسل ملابس المرضى المصابين بمختلف الأمراض الفتاكة ، في الوقت الذي لا يجد شخص جاهل أُمّي مانعاً من شربه .

وبتحليل بسيط نستنتج انه كلما كان وعي المرء بالنسبة لموضوع ما أعمق ، كانت « عصمته » إزاء ما ينافي ذلك أكبر .

والآن ، بالاستمرار في هذه المعادلة ، نقول : إذا كان « إيمان » شخص ما و « وعيه » وثقته بالله وبمحكمته العادلة من العمق بحيث انه يكاد يراها متجسدة أمام عينيه وشاخصة أمامه ، فإن شخصاً هذا شأنه يكون ، دون ريب ، مصوناً من ارتكاب أي ذنب ، ويرى كل عمل قبيح كرؤية العاقل الخروج إلى الشارع عارياً .

إن المال الحرام في نظر هذا الشخص أشبه بالجمر الملتهب فكما اننا لا نضعه في فمنا ، فهو كذلك لا يضع المال الحرام في فمه .

نستنتج من جماع هذا الكلام أن الأنبياء ، بما وهبهم الله من علم ووعي وإيمان خارق للعادة ، يستطيعون أن يخمدوا صوت كل دافع للعصيان بحيث ان أقوى المغريات لارتكاب الآثام لا تستطيع أن تغلب عقولهم وتضعف إيمانهم . وهذا هو معنى قولنا ان الأنبياء معصومون من كل إثم .

العصمة مدعاة للفخر :

بعض الذين لا يدركون جيداً معنى العصمة وعواملها يعترضون قائلين : إذا كان الله هو الذي يحول بين الشخص وارتكاب الإثم ويزيل من كيانه عوامل ارتكاب الذنوب ، فلا يكون هذا مدعاة لفخر هذا الشخص ، إذ ان عصمته من الإثم إجبارية ، والفضيلة الإجبارية لا تكون مفخرة لأحد .

إن جواب هذا الاعتراض قد جاء في الإيضاحات التي مرَّ ذكرها : إن عصمة الأنبياء من الإثم ليست إجبارية مطلقاً ، بل هي وليدة إيمان الأنبياء القوي الكامل وعلمهم الذي لا يدانيه علم ، وهذا مدعاة لأعظم الفخر!

إذا قام الطبيب بوقاية نفسه من الأمراض السارية ، فهل يدل هذا على أنه مجبر على ذلك؟ وإذا قام شخص بالتزام قواعد الصحة بدقة تامّة ، أفلا يدعو هذا إلى اعتزازه وفخره؟

وإذا تجنّب حقوقي ارتكاب جريمة ما لكونه يعرف العقوبات

القاسية التي تحكم بها المحاكم ، فهل يفقد بذلك فضله؟ .

وبناء على ذلك ، فإن معصومية الأنبياء اختيارية ، وهي مفخرة عظيمة من مفاخرهم .

* * *

فكّر وأجب

١ ــ ما هي تفرعات العصمة؟

٢ ــ ماذا كان سيحدث لو لم يكن الأنبياء معصومين؟

٣ ــ ما حقيقة مقام العصمة؟

٤ ــ هل تستطيع إيراد أمثلة ، غير التي وردت في الدرس يتصف الناس ، كلهم أو بعضهم ، بالعصمة من ارتكابها؟

٥ ــ هل عصمة الأنبياء اختيارية أم إجبارية؟ ما الدليل على ذلك؟

* * *

الدرس الرابع

أفضل الطرق لمعرفة النبي

لا شك أن تصديق ادعاءات كل مدع يعتبر خلاف العقل والمنطق.

إن مدعي النبوّة وحمل رسالة الله قد يكون صادقاً ، إلاّ ان من المحتمل أن يقوم أحد الانتهازيين النصابين بادعاء النبوّة . لذلك كان لا بد من وجود معيار دقيق نزن به دعوات الأنبياء وصحّة مجيئهم من قبل الله .

هنالك طرق عديدة للوصول إلى هذه الغاية ، أهمها ما يلي :

١ ــ دراسة محتوى رسالة النبي ودعوته ، وتجميع القرائن والدلائل .

٢ ــ معجزاته الخارقة للعادة .

ولنبدأ أولاً بالكلام على الإعجاز ، فنقول :

ثمة أشخاص يتعجبون من كلمة « معجزة » ، أو يعتبرونها

مرادفة للخرافات والأساطير . ولكننا إذا دققنا النظر في معنى المعجزة العلمي لوجدنا أن هذه التصورات خطأ محض .

ليست المعجزة عملاً مستحيلاً ، ولا معلولاً لا علة له ، بل المعجزة ، بتفسير بسيط ، هي عمل خارق للعادة ومما هو فوق قدرات الافراد العاديين ، ولا تتحقق إلَّا بالاستناد إلى قوة فوق الطبيعة .

وبناء على ذلك لا تكون المعجزة إلَّا بشروط :

١ ـ انها عمل ممكن ومقبول.

٢ ـ الناس العاديون ، وحتى النوابغ منهم ، ليس بمقدورهم أن يقوموا بمعجزة باستخدام القدرات البشرية .

٣ ـ لا بد أن يكون صاحب المعجزة واثقاً من نفسه بحيث انه يتحدى الناس ويدعوهم لمنافسته .

٤ ـ أن لا يستطيع أي شخص الإتيان بمثل تلك المعجزة ، أي أن يعجز الآخرون عن القيام بمثلها ، كما يفهم من معنى الكلمة .

٥ ـ المعجزة لا بد أن تأتي ممن يدعي النبوّة أو الإمامة (ولذلك فإن الأعمال الخارقة للعادة التي يأتي بها غير الأنبياء والأئمة تدعى كرامات ، لا معجزات) .

بعض الأمثلة الواضحة :

نعلم جميعاً أن من معجزات النبي عيسى عليه السلام احياءه الموتى وابراءه المرضى الميؤوس منهم .

هل هناك أي دليل علمي وعقلي يثبت أن الإنسان الذي تتوقف أجهزة جسمه عن العمل والحركة لا يمكن أن يعود إلى الحياة مرة أخرى؟ .

هل هناك دليل علمي وعقلي على أن مرض السرطان الذي عجزنا عن شفائه ليس له في الحقيقة أي علاج؟

صحيح أن الإنسان بما يملكه في الوقت الحاضر من قوى وبما هو فيه من ظروف غير قادر على إحياء الموتى ولا إبراء بعض الأمراض . حتى وإن تضافر جميع أطباء العالم واستعانوا بما لديهم من خبرات وتجارب .

إلّا أن هذا لا يمنع من أن يقوم إنسان يملك قوة إلٰهية خارقة للعادة واطلاعاً وعلماً يستقيان من بحر علم الله اللامتناهي ، بإحياء ميّت ، أو بإبراء مريض ، بإشارة من يده .

العلم يقول : لا أدري . أنا عاجز . ولكنه لن يقول إن ذلك مستحيل .

مثال آخر : إن الوصول إلى القمر بدون سفينة فضائية غير ممكن لأي إنسان . ولكن ما الذي يحول دون أن تكون هناك قوة أكبر مما عندنا من قوة ، ومركبة أكثر تقدماً مما لدى البشر ، توضع تحت تصرف شخص بحيث يتاح له أن يرحل إلى القمر أو إلى الكرات الأُخرىٰ بغير سفينة فضائية والمركبة القمرية .

فإذا استطاع أحد أن يقوم حقاً بمثل هذه الأُمور الخارقة للعادة ، وادعي النبوة وتحدى الناس إلى أن يفعلوا مثله ، فعجز الجميع عن ذلك ، عندئذٍ نؤمن بأنه مرسل من قبل الله ، إذ لا

يمكن أن يضع الله كل هذه القدرة في يد إنسان كذاب يدعو الناس إلى الضلال، فتأمل!

المعجزات ليست خرافات :

كان «الافراط» و«التفريط» دائماً منشأ الفساد والضياع وإخفاء وجه الحقيقة .

وهذا يصدق على المعجزة أيضاً . ففي الوقت الذي نجد فيه بعضاً من « المتنورين » ينكرون صراحة أو تلميحاً كل أنواع المعجزات ، نجد بعضاً آخر يصنعون من كل شيء معجزة ، فيبحثون عن الأخبار الضعيفة والقصص الخرافية التي صاغتها أيدي الأعداء ويعرضونها زاعمين أنها معجزات ، فيخلطون ملامح معجزات الأنبياء العلمية والحقيقية بالخرافات والأوهام المزيفة التي لا أساس لها من الواقع . فما لم تتطهر المعجزات الحقيقية من أمثال هذه الأساطير ، فإن ملامحها الأصيلة لن تظهر للعيان .

لهذا ما فتىء علماؤنا العظام يعنون بأن تبقى الأحاديث الإسلامية التي تدور حول المعجزات بعيدة عن أمثال تلك الحكايات المزيفة المدسوسة .

وبناء على ذلك وضعوا الكتب في «علم الرجال» للتعرف على الرواة الموثوق بهم ، ولتمييز الأحاديث «الصحيحة» من «الضعيفة» ، ولئلا تختلط الحقائق بالأوهام .

إن السياسات الاستعمارية والإلحادية نشطة اليوم لجعل الأفكار الواهية تقوم مقام العقائد الدينية الطاهرة وتسعى لإظهارها بمظهر « معتقدات غير علمية » . فعلينا أن نحبط مساعي الاعداء التخريبية .

اختلاف المعجزات عن خوارق العادات الأخرى :

كثيراً ما نسمع عن أصحاب الرياضيات الروحية أنهم قاموا بأعمال خارقة للعادة ، وان الذين شاهدوا تلك العجائب كثيرون . وهذا حقيقة لا أسطورة .

هنا يتبادر إلى الذهن هذا السؤال: ما الفرق بين أعمال هؤلاء الخارقة للعادة ومعجزات الأنبياء؟ وكيف التمييز بينهما؟

لهذا السؤال أجوبة كثيرة ، أوضحها جوابان :

١ ـ هؤلاء المرتاضون يقومون بأعمال خارقة للعادة معيّنة ومحدودة ، أي انهم لا يمتثلون لمقترحات المقترحين بالقيام بأعمال يطلبها منهم هؤلاء . إنما هم يقومون بما يعرفون هم كيف يجدونه بسبب كثرة التمرين .

وسبب هذا واضح ، إذ ان قوى كل شخص محدودة ، فهو لا يستطيع أن يقوم إلاّ بعدد محدود من الأعمال .

أما معجزات الأنبياء فليست لها حدود ولا شروط . فهم قادرون على الإتيان بمعجزة بحسب اقتراح الطالب وفي أي وقت ، لأنهم يستندون إلى قوى الله اللامتناهية ، وهي التي لا تحدها حدود ، بخلاف قدرات الإنسان .

٢ ـ العمل الذي يقوم به أحد المرتاضين يستطيع أن يقوم به مرتاض آخر ، أي انه ليس خارجاً عن قدرة البشر . ولهذا فإن المرتاض لن يتحدى أحداً بطلب المنافسة ، لأنه يعلم انه لا بد أن يكون في أطراف المدينة شخص أو أشخاص قادرون على الإتيان بمثل ما يفعل .

أمـا الأنبيـاء فـإنهم يتحـدون النـاس بكـل ثقـة واطمئنـان ، قـائلين : « **لو اجتمـع أهل الأرض جميعـاً على أن يأتـوا بمثـل مـا نأتي لعجزوا** » .

هـذا الاختلاف يصـدق في « السحـر » أيضـاً ، فـالاختـلافـان اللذان ذكـرنـاهمـا يحـددان الحـد بين المعجـزة والسحـر أيضـاً ، فتأمل!

* * *

فكّر وأجب

١ ـ لماذا تسمى « المعجزة » معجزة؟ .
٢ ـ هل المعجزة استثناء في قانون العلة والمعلول؟
٣ ـ مـا الـطرق التي بهـا نستـطيـع أن نميـز المعجـزة عن أعمـال المرتاضين والسحرة؟
٤ ـ ما هي الشروط الأصيلة في المعجزة؟
٥ ـ هل سبق لك أن شاهدت عملاً يشبه المعجزة في حياتك؟ .

* * *

الدرس الخامس

أعظم معجزة لنبي الإسلام

يعتقد جميع علماء الإسلام أن القرآن الكريم أعظم معجزات نبي الإسلام . إن أفضلية القرآن آتية من كونه .

أولاً : معجزة عقلية تتعامل مع أرواح الناس وأفكارهم .

وثانياً : من كونه معجزة خالدة أبداً .

وثالثاً : من كونه معجزة قد مضى عليها أكثر من أربعة عشر قرناً وهي تتحدى البشر كافة منادية : إذا كنتم تزعمون أن هذا الكتاب السماوي ليس من عند الله فأْتوا بمثله . وقد جاء هذا التحدي مرات عديدة في القرآن الكريم :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنْسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾

[سورة الإسراء، الآية : ٨٨]

وفي موضع آخر يقول :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

[سورة هُود ، الآية : ١٣]

ثم يضيف مباشرة قائلاً :

﴿ فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾

ثم يسهّل شروط التحدي فيقول :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

[سورة البقرة ، الآية : ٢٣]

وفي الآية التالية يقول :

﴿ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٤]

إن هذه التحديات المتتالية لمواجهة المنكرين إن دلَّت على شيء فإنما تدل على أن أكثر استناد النبي صلى الله عليه وآله كان على إعجاز القرآن ، على الرغم من أنه كانت له معجزات أُخرىٰ أيضاً حسبما ورد في كتب التاريخ .

وبما أن القرآن هو المعجزة الحيّة الموجودة في متناول أيدينا فإن بحثنا سيدور عليه أكثر .

كيف عجزوا عن قبول التحدي؟ :

مما يلفت النظر ان القرآن ألحّ كثيراً على منكريه للنزول إلى ميدان المنافسة ، مستعملاً تعبيرات مهيجة مثيرة ، لكيلا يبقى عذر لأحد ، تعبيرات مثل ﴿ **إنْ كُنْتُم صَادِقِين** ﴾ و ﴿ **فإن لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلوا** ﴾ و ﴿ **لا يأْتون بمِثلِه ولَو كانَ بعضُهُم لِبَعض ظهيراً** ﴾ و ﴿ **فأْتُوا بِسُورةٍ مِّن مِثْله** ﴾ و ﴿ **فاتقوا النَّار التي وَقُودُها النَّاس** ﴾ .

هذا من جهة ، ومن جهة أُخرىٰ لم يكن الصراع بين الرَّسول الكريم والكفّار صراعاً سهلاً ، إذ ان الإسلام لم يتهدد مصير دينهم ، الذي كانوا أشد ما يكونون تعلقاً به ، فحسب ، بل كان خطراً على مصالحهم الاقتصادية والسياسية وحتى على كياناتهم .

وبعبارة أُخرىٰ ، كان تقدم الإسلام ونفوذه يحيلان حياتهم كلها إلى ركام ، لذلك لم يكن أمامهم سوى النزول إلى ميدان الصراع بكل ما لديهم من قوة .

ولكي يجردوا نبي الإسلام من أقوى سلاح عنده ، كان عليهم أن يأْتوا ، بأي ثمن كان ، ببضع آيات مثل آيات القرآن لكيلا يتحداهم به بعد ذلك ويعتبرهم جميعاً عاجزين أمام هذا الدليل القوي على صدقه وأحقيته .

فحشدوا لذلك فصحاء العرب وبلغاءهم ، ولكنهم كلما دخلوا الميدان باءوا بهزيمة منكرة ونكصوا على أعقابهم هاربين . وقد جاءت تفاصيل ذلك في كتب التاريخ .

حكاية الوليد بن المغيرة :

من بين الذين دعوا لقبول تحدي القرآن كان الوليد بن

المغيرة من بني مخزوم ، وكـان معروفـاً بين العرب بفكـره الصائب وحسن تـدبيره . فـطلبوا منـه أن يشير عليهم بتـدبير ليـرى رأيـه في آيات القرآن العجيبة وتأثيرها الشديد في الناس .

فجاء الوليـد إلى رسول الله صلى الله عليـه وآله وطلب منـه أن يقـرأ له بعض آيـات من القرآن ، فتلى عليـه النبي بضـع آيـات من سورة « حم » السجدة ، فـأثارت هـذه الآيات في الـوليد انفعـالات عارمة بحيث انه انطلق عـائداً إلى حيث كـان بنو مخـزوم مجتمعين وقـال لهم : والله لقد سمعت كـلامـاً لا هـو يشبـه كـلام البشـر ولا كلام الملائكة « وإن له لحـلاوة وان عليه لـطلاوة وان أعلاه لمثمـر وان أسفله لمغدق وانه يعلو ولا يعلى عليه » .

وشاع في أوساط قـريش أن وليداً قـد عشق محمداً! فهـرع أبو جهل إليه وأخبره بما تقـول قريش ، ودعـاه إلى حضور مجلسهم ، فصحبه الوليد إليهم وقال لهم : أتحسبـون أن بمحمد جُنّـة؟ أرأيتم عليه منها أثراً؟ فقالوا : كلاّ .

فقال : أترونـه كاذبـاً؟ ألم يشتهر بيننـا بالأمـانة والصـدق حتى سميتموه الصادق الأمين؟

فقال بعض سراة القوم : فماذا ننسب إليه إذن؟ .

ففكر الوليد برهة ثم قال لهم : قولوا انه لساحر!

وعلى الرغم من أنهم كانوا بإطـلاق هذه الصفـة عليه يـريدون أن يبعـدوا عنه النـاس الذين سحـرتهم آيات القـرآن ، فإن اطـلاق تعبير « السحر » ليدل دلالة قاطعة على قـوة جاذبيـة القرآن ، وانهم أطلقـوا كلمة « السحـر » على تلك الجاذبيـة ، وإن لم تكن سحـراً في الواقع .

فراحت قريش تشيع مقولة الوليد في كل مكان عن أن محمداً ساحر ماهر ، وان الآيات من سحره ، وطلبوا من الناس الابتعاد عنه وان لا يستمعوا إلى ما يقول .

إلاّ أن خِطتهم هذه لم تفلح ، وراح المتعطشون إلى الحقيقة المنتشرون في الزوايا والحنايا يفدون على رسول الله صلى الله عليه وآله زرافات ووحداناً ، يرتوون من معين الرسالة الإلهية الرائق ، ونكص الأعداء على أعقابهم .

واليوم أيضاً ما يزال القرآن يتحدى العالم بأسره ويطلبهم للمبارزة ، قائلاً : إن كنتم ترتابون في صحة نسبة هذه الآيات إلى الله ، وتعتقدون أنها من صنع أفكار بني البشر ، فلتأتوا بمثلها ، يا أيُّها العلماء والفلاسفة والأدباء والكتاب ، من كل قوم وملّة!

وليس خافياً ان أعداء الإسلام ، وبخاصة رجال الدين المسيحيين الذين يعتبرون الإسلام ، كدين ثوري عميق المحتوى ، منافساً خطيراً لهم ، فيصرفون سنوياً ملايين الملايين من الدولارات للدعاوة ضد الإسلام وفي البلدان الإسلامية نفسها تحت واجهات مزيفة من ثقافية وعلمية وصحية ، فما أحراهم أن يطلبوا من العلماء المسيحيين العرب وشعرائهم وأدبائهم وفلاسفتهم أن ينشئوا آيات كآيات القرآن إن هم استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ليسكتوا صوت الإسلام .

لا شك لو أن شيئاً كهذا كان ضمن قدراتهم لما توانوا في تحقيقه بأي ثمن كان . غير أن عجزهم في هذا الأمر لدليل أسكت الأعداء وبرهان ناطق على إعجاز القرآن .

فكّر وأجب

١ ـ لماذا يعتبر القرآن أهم معجزة من معجزات نبي الإسلام؟

٢ ـ كيف يتحدى القرآن أعداءه؟

٣ ـ لماذا أطلق أعداء الإسلام صفة «السحر» على القرآن؟

٤ ـ لماذا يعتبر الإسلام منافساً عنيداً للمسيحية اليوم؟.

٥ ـ ما حكاية الوليد بن المغيرة؟

* * *

الدرس السادس

نافذة على إعجاز القرآن

لم الحروف المقطعة؟

نلاحظ في أوائل عدد من سور القرآن بعض « الحروف المقطعة » ، مثل « ألم » و « ألمر » و « يّس » .

تقول بعض الروايات الإسلامية ان واحداً من أسرار هذه الحروف المقطعة هو ان الله يريد أن يرينا كيف أن هذه المعجزة الخالدة العظيمة ، القرآن ، قد بنيت من حروف الألفباء البسيطة التي تعتبر من أبسط مواد البناء ، وكيف أن هذا الكلام الرائع العظيم قد تألّف من هذه الحروف التي يستطيع التكلم بها حتى الأطفال الصغار . لا شك إذن في أن ظهور هذا الأمر العظيم من هذه المواد البسيطة إعجاز لا يدانيه إعجاز .

هنا يتبادر للذهن أن يسأل : من أية ناحية يكون إعجاز القرآن؟ أمن حيث البلاغة والفصاحة ، أي من حيث حلاوة عباراته ودخولها إلى القلب بنفوذ عجيب ، أم ان هناك جوانب أُخرىٰ لإعجازه؟ .

الحقيقة هي انك من أي زاوية وجهة نظرت إلى القرآن ، لـمنعتك إمارات الإعجاز واضحة . من ذلك مثلاً :

١ ـ الفصاحة والبلاغة : هنا تجد حلاوة الألفاظ والجاذبية العجيبة التي تتجلى لك في المعاني والمفاهيم .

٢ ـ المحتوى الرفيع وخاصة العقائد البعيدة عن كل انحراف .

٣ ـ المعجزات العلمية ، فالقرآن يكشف الستار عن مسائل علمية لم يكن الإنسان قد اكتشفها يومذاك .

٤ ـ الأخبار عن الغيب والتنبؤ بحدوث بعض الحوادث في المستقبل .

٥ ـ ليس فيه تضاد ولا اختلاف ولا تشتت .

الفصاحة والبلاغة :

لكل كلام جانبان : « ألفاظه » و« محتواه » . عندما تكون الألفاظ والكلمات جميلة ولائقة وتتميز بالانسجام والترابط اللاّزم وخالية من التعقيد ، ويوصل تركيب الجمل المعنى المراد إيصالاً كاملاً وتاماً بطريقة مقبولة وجذابة ، قيل عن ذلك الكلام انه فصيح وبليغ .

وفي القرآن يتجسد هذان الجانبان تجسداً لا مزيد عليه ، بحيث أن احداً لم يستطع حتى الآن أن يأتي بآيات وسور تضاهي آياته وسوره من حيث الجاذبية والحلاوة والتناغم .

قلنا في درس سابق ان الوليد بن المغيرة ، منتخب مشركي العرب ، هاجت مشاعره وانفعل عند سماع بضع آيات من القرآن ، ولم يتوصل تفكيره العميق إلى إلصاق أي تهمة به إلاّ ان

يصفه بالسحر وإلاَّ ان يصف رسول الله بالساحر !

وعلى الرغم من انهم راحوا يكررون إلصاق صفة السحر بآيات القرآن على سبيل الذم والتنديد ، إلاَّ أن ذلك كان في الواقع مدحاً وتكريماً ، إذ ان فيه اعترافاً ضمنياً بسيطرة القرآن الخارقة للعادة على السامع ونفوذه إلى أعماقه . بحيث انك لا تستطيع أن تفسر ذلك تفسيراً عادياً ، إلاَّ ان تقول إن فيه جاذبية غامضة مجهولة .

ولكنهم بدلاً من أن يتقبلوا تلك الحقيقة ويعتبروها معجزة فيؤمنوا بها ، انحرفوا عن جادة الصواب وقالوا انها سحر وأساطير .

يذكر لنا التاريخ أمثلة كثيرة عن أشخاص من غلاظ خشنين كانوا يفدون على رسول الله صلى الله عليه وآله ، وما ان يستمعوا إلى بضع آيات منه حتى تتغير حالهم وتشرق شمس الإيمان في قلوبهم ، الأمر الذي يدل بوضوح على ان ما في القرآن من فصاحة وبلاغة معجز .

بل إننا في أيامنا هذه نجد العارفين بآداب اللغة العربية كلما كرروا تلاوة القرآن ازداد احساسهم بما فيه من حلاوة وما يثيره فيهم من لذة بحيث انهم لا يتعبون من تكرار تلاوته .

تتصف العبارات القرآنية بالدقة المتناهية المحسوبة ، فالقرآن عف البيان متين البنيان ، وهو في الوقت نفسه ناطق صريح ، وصارم شديد عند الاقتضاء .

ولا بد من الإشارة إلى أن العرب يومئذ كانوا قمة في الفنون

الأدبية من شعر ونثر وصناعة كلام ، وما زالت قصائد من الشعر الجاهلي تعتبر من أرفع الشعر ، وكان سوق عكاظ موضعاً يجتمع فيه فطاحل الشعراء كل سنة ينشدون فيه أشعارهم ويتنافسون في أجودها ، ويختارون أفضلها طراً ويعلقونها على جدار الكعبة باعتبارها خير قصيدة قيلت في تلك السنة . وعند ظهور الدعوة الإسلامية كانت هناك سبع قصائد ما زالت معلقة على حائط الكعبة ، أطلق عليها اسم « المعلقات السبع » .

ولكن بعد نزول القرآن لم يبق لتلك المعلقات أي لون ولا طعم ، فأزيلت الواحدة بعد الأخرىٰ وطواها النسيان .

ولقد سعى المفرسون جهد طاقاتهم للإشارة إلى دقائق الإبداع الإلّهي العجيبة في القرآن ، فيمكن الرجوع إلى تلك التفاسير للتوسع في الاطلاع [1] .

(١) يمكنكم الرجوع إلى « تفسير نمونه » بهذا الخصوص .

إن معرفة القرآن تؤكد أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يبالغ حين قال : « **ظاهره أنيق وباطنه عميق لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه** » .

والإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام ، تلميذ مدرسة القرآن العظيم ، يقول في نهج البلاغة واصفاً القرآن : « **فيه ربيع القلب ، وينابيع العلم ، وما للقلب جلاء غيره** » .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ ما هي فلسفة الحروف المقطعة في القرآن؟

٢ ـ هل القرآن معجزة من جانب واحد أم من عدة جهات؟

٣ ـ لماذا أطلق أعداء النبي عليه صفة الساحر؟

٤ ـ ما الفرق بين الفصاحة والبلاغة؟

٥ ـ متى كانت «المعلقات السبع» وما معناها؟.

* * *

الدرس السابع

نظرة القرآن إلى العالم

قبل كل شيء ينبغي أن تتعرف على المحيط الذي نزل فيه القرآن على الصعيدين الفكري والثقافي .

يجمع المؤرخون على أن أرض الحجاز كانت من أكثر بلدان العالم تخلفاً بحيث انهم كانوا يعبرون عن سكانها بأنهم متوحشون أو شبه متوحشين . كانوا متمسكين بعبادة الأصنام تمسكاً شديداً ، يصطنعونها من الحجر والخشب بأشكال متنوعة ، فكانت تلقي بظلها المشؤوم على كل ثقافتهم ، حتى قيل انهم كانوا يصنعون الأصنام من التمر ويسجدون لها ، ولكنهم إذا مستهم المسغبة أكلوها!

وعلى الرغم من كرههم البنات بحيث انهم كانوا يئدونهن احياء فإنهم كانوا يقولون : الملائكة بنات الله . ويتنزلون بالله إلى حد اعتباره إنساناً مثلهم .

كانوا ينتابهم العجب من التوحيد وعبادة إلٰه واحد . وعندما دعاهم نبي الإسلام إلى عبادة الله الأحد ، قالوا بدهشة :

﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَـٰهاً وَاحِداً إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾

[سورة صّ ، الآية : ٥]

وكانوا يلصقون صفة الجنون بكل من يخالف خرافاتهم وأساطيرهم المزيفة ويتعرض لمعتقداتهم الواهية .

كان النظام القبلي هو السائد على المجتمع ، حيث المنازعات القبلية كانت على أشدها ، حتى ان نار الحروب لم تخمد يوماً بينهم ، وكثيراً ما اصطبغت أرضهم بحمامات الدم ، يفتخرون بالقتل والنهب والسبي .

وإذا ظهر بينهم من يعرف القراءة والكتابة أصبح ناراً على علم ، وكان من النادر أن تعثر بينهم على عالم مفكر .

هذا هو المحيط الذي بزغ فيه إنسان أمّي لم يدخل مدرسة ولا رأى معلماً ، ولكنه أتى بكتاب عميق المحتوى إلى درجة ان العلماء والمفسرين ما يزالون بعد أربعة عشر قرناً مشغولين باستكانة معانيه واستخراج حقائق جديدة منه لا تنتهي .

إن الصورة التي يرسمها القرآن لعالم الوجود ونظامه صورة دقيقة مدروسة ، فيعرض التوحيد بأكمل حالاته ، ويعرض أسرار خلق الأرض والسماء والليل والنهار والشمس والقمر والنباتات والأشجار والإنسان على أن كلاً منها آية تدل على وحدانية الله الأحد .

ويتعمق أحياناً في اغوار النفس الإنسانية ويتحدث عن التوحيد الفطري ، فيقول :

﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة العنكبوت ، الآية : ٦٥]

وقد يسلك سبيل العقل والمنطق لإثبات التوحيد مستنداً إلى السير في الآفاق وفي الأنفس ، ومذكراً الإنسان بأسرار خلق السموات والأرض والحيوانات والجبال والبحار ، وهطول الأمطار ، وهبوب الرياح ودقائق أعضاء الإنسان :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ ﴾

[سورة فُصِّلَت ، من الآية : ٥٣]

وعند الكلام على صفات الله يختار أعمقها وأجلبها للنظر ، فيقول :

﴿ ... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... ﴾ [سورة الشورىٰ ، من الآية : ١١]

وفي مواضع أُخرىٰ يقول :

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

سورة الحشر ، الآيات من : ٢٢ ـ ٢٤]

ويعبّر تعبيراً جميلاً عن وصف علم الله ولا محدوديته ، فيقول :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة لقمان ، الآية : ٢٧]

وعن إحاطة الله بكل شيء وحضوره في كل مكان ، يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ. . . ﴾

[سورة البقرة ، من الآية : ١١٥]

﴿ . . . وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

[سورة الحديد ، من الآية : ٤]

وعندما يدور الكلام على البعث ويوم القيامة ، يواجه دهشة المشركين وإنكارهم بقوله :

﴿ . . . قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة يّس ، الآيات من : ٧٨ ــ ٨٢]

في تلك الأيام التي لم يكن فيها قد تم اكتشاف التصوير وتسجيل الأصوات ، يقول القرآن بشأن أعمال الإنسان :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾

[سورة الزّلزَلة ، الآيتان : ٤ ــ ٥]

وقد يتحدث عن شهادة أعضاء الإنسان فيقول :

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم . . . ﴾ [سورة يٓس ، من الآية : ٦٥]

﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ . . . ﴾ [سورة فُصِّلت ، من الآية : ٢١]

إن قيمة العلوم القرآنية وعظمة محتواها وخلوها من الخرافات لا تتضح إلَّا إذا وضعت إلى جانب التوراة والإنجيل المحرفة كلماتهما للمقارنة بين ما فيها ، لنرى ما تقول التوراة بشأن خلق آدم وما يقول القرآن بهذا الشأن .

وماذا تقول التوراة بشأن الأنبياء ، وما يقوله القرآن .

وما تقوله التوراة والانجيل في وصف الله ، وما يقوله القرآن في ذلك . عندئذٍ يتبيّن الفرق واضحاً بينهما[1] .

* * *

فكّر وأجب

١ ــ ماذا كانت خصائص المحيط الذي ظهر فيه القرآن؟ .

٢ ــ ماذا كان تأثير عبادة الأصنام في أفكار الناس؟

٣ ــ ما الفرق بين التوحيد الفطري والاستدلالي؟

٤ ــ كيف يصف القرآن الله ويعرّفه؟ مثّل لذلك .

٥ ــ ما أفضل الطرق لمعرفة محتوى القرآن؟ .

(١) لمزيد من التوضيح راجع كتاب « رهبران بزركه » . .

الدرس الثامن

القرآن والاكتشافات العلمية المعاصرة

لا شك أن القرآن ليس كتاباً من كتب العلوم الطبيعية أو الطبيّة أو النفسية أو الرياضية .

القرآن كتاب يهدي الإنسان ويصنعه ، فهو لا يترك شيئاً ضرورياً في هذا السبيل إلاّ وأتى به .

لذلك ليس لنا بالطبع أن نرى في القرآن دائرة معارف عامة ، بل لنا أن نجد فيه نور الإيمان والهداية والتقوى والإنسانية والأخلاق والنظام والقانون ، فهو يضم كل هذه الأمور .

غير أن القرآن ، للوصول إلى هذه الأهداف ، يشير أحياناً إلى جانب من العلوم الطبيعية وأسرار الخلق وعجائب عالم الوجود وخاصة خلال بحوث التوحيد والاستدلال بنظام الكون ، فيرفع الستار عن بعض أسرار عالم الخلق ويكشف أموراً لم يكن أحد يعرف عنها شيئاً يومذاك وفي ذلك المحيط ، حتى العلماء منهم .

هـذه البيانـات تجتمـع تحت عنـوان « معجـزات القـرآن العلمية » ، نشير إلى بعض منها في ما يلي :

القرآن وقانون الجاذبية :

لم يكن أحـد قبل (نيـوتن) يعرف شيئاً عن قانـون الجـاذبيـة العـام . من المعروف أن (نيـوتن) هذا كـان يـومـاً جـالسـاً تحت شجـرة تفـاح ، فـانفصلت تفـاحـة من الشجـرة وسقـطت على الأرض ، فـاستولى هـذا الحدث الصغيـر على كل تفكيـره وامضى سنوات يفكر في القوة التي جذبت التفـاحة إليهـا . لماذا لم تسقط إلى السمـاء؟ وبعـد سنـوات تـوصـل إلى وضـع قـانـون الجـاذبيـة الأرضية التي تقول :

« تتجاذب الكتلتان بنسبـة طردية مع حـاصل ضـرب كتلتيهما وعكسياً مع مربع المسافة بين مركزي ثقليهما » .

على اثـر صيـاغـة هـذا القـانـون اتضـح وضـع المنـظومـة الشمسية .

لمـاذا تـدور هـذه الكـواكب العـظيمـة كـل في مـدار حـول الشمس؟ لمـاذا لا تهرب من هـذا المدار وتنـطلق في كل اتجـاه ؟ لمـاذا لا تتراكم بعض فـوق بعض؟ ما هـذه القوة التي تمسـك هذه الأجـرام في مـدارات دقيقـة في هـذا الفضـاء الشـاسـع ، دون أن تتجاوزها حتى بمقدار رأس الإبرة؟

اكتشـف (نيوتن) أن حركـة الجسم الدائـرية تجعله يبتعـد عن المـركز ، وقـانون الجـاذبية يجـذبه إلى المـركز ، فـإذا ما تعـادلت هـاتان القـوتان ، القـوة الطاردة عن المـركز ، والقـوة الجاذبـة نحو

المركز ، أي إذا أوجدت « الكتلة » و « المسافة » من القوة « الجاذبة إلى الداخل » والقوة « الطاردة إلى الخارج » مقادير متعادلة ، بقي الجسم يدور في مداره ولا يتعداه .

غير أن القرآن قبل أكثر من ألف سنة من اكتشاف هذه القوانين قال في الآية الثانية من سورة الرعد :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾

[سورة الرعد ، الآية : ٢]

وقد جاء في تفسير هذه الآية عن الإمام علي بن موسىٰ الرضا عليه السلام قوله :

« أليس الله يقول بغير عمد ترونها؟ قلت : بلى . قال : ثمّ عمد لكن لا ترونها » .

أهناك تعبير أوضح وأبسط في الأدب العربي من هذا القول عن قوة الجاذبية : أعمدة غير مرئية ، ليفهمه عامة الناس؟

وفي حديث عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام نقرأ :

« هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمود من نور » .

يقول العلماء المعاصرون ان بين نجوم السماء ملايين منها تسكنها كائنات حية وعاقلة ، وان لم يكتشفوا بعد تفاصيلها .

دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس :

يقول التاريخ إن (غاليليو) الايطالي كان أول من اكتشف دوران الأرض حول نفسها قبل نحو أربعة قرون ، بينما كان العلماء قبله يؤمنون بنظرية بطليموس المصري القائلة ان الأرض هي مركز الكون وان جميع الأجرام الأخرىٰ تدور حولها .

وكان جزاء (غاليليو) على اكتشافه العلمي هذا ان حكمت الكنيسة بتكفيره ، ولم ينج من الموت إلّا بإظهار الندم على اكتشافه ذاك . غير أن علماء آخرين تابعوا نظريته وأكّدوها بحيث انها أصبحت اليوم من الأمور التي لا يختلف فيها اثنان ، بل لقد ثبت بالتجارب الملموسة أن الأرض تدور حول نفسها ، وخاصة بعد التحليقات الفضائية الأخيرة .

وعليه فقد فقدت الأرض مركزيتها بالنسبة للكون بعد أن تبيّن اننا كنا من قبل ضحية خطأ حواسنا ، فكنا نخلط حركة الأرض بحركة مجموعة الثوابت والسيارات . اننا نحن الذين نتحرك ، وكنا نعتبرها هي التي تتحرك .

على كل حال ، لقد سيطرت نظرية بطليموس نحو ألف وخمسمائة سنة على عقول العلماء . وعند ظهور القرآن لم يكن أحد يجرؤ على القول بخلاف ذلك . ولكننا إذا ما رجعنا إلى آيات القرآن نجد أنه في الآية ٨٨ من سورة « النمل » يتحدث عن حركة الأرض فيقول :

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

هذه الآية تشير بوضوح إلى حركة الجبال مع اننا نراها ساكنة جامدة . ان تشبيه حركتها بحركة السحاب يفيد السرعة مع الهدوء .

أما التعبير عن حركة الأرض بحركة الجبال ، فهو لكي يبيّن أهمية الموضوع ، إذ لا حركة للجبال بغير حركة الأرض من تحتها ، أي إن حركتها هي حركة الأرض نفسها ، سواء أكان المقصود دورانها حول نفسها ، أم حول الشمس ، أم كليهما .

تصوّر الآن عصراً كانت فيه جميع المحافل العلمية في العالم والإنسان العادي ، يؤمنون بنظرية سكون الأرض ودوران الشمس والكواكب الأخرىٰ حولها ، ألا يكون الإخبار بحركة الأرض بهذا البيان معجزة علمية؟ خاصة أن المخبر إنسان أمي لم يدخل مدرسة ، بل انه نشأ في محيط متخلّف لا مدرسة فيه ولا تعليم . أفلا يكون هذا دليلاً على كون القرآن كتاباً سماوياً؟ .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ ما المقصود بمعجزات القرآن العلمية؟

٢ ـ من اكتشف قانون الجاذبية ، ومتى كان ذلك؟ .

٣ ـ في أيّة آية يخبر القرآن عن قانون الجاذبية العام ، وكيف يعبّر عن ذلك؟ .

٤ ـ لمن فرضية سكون الأرض ، ومن الذي اكتشف حركتها ، وكم ظلّت تلك الفرضية تسيطر على العلماء؟ .

٥ ـ في أيّة آية يخبر القرآن عن حركة الأرض ، وكيف يعبّر عن ذلك؟ .

الدرس التاسع

دليل آخر على صدق نبوّة نبي الإسلام

هناك طريق آخر غير طلب المعجزة لإثبات صحّة دعوى النبوّة أو عدمها ، وهو طريق يعتبر بحد ذاته دليلاً حياً آخر للوصول إلى الهدف المنشود ، وذلك هو دراسة القرائن التالية وتوفّر عدد منها في مدعي النبوّة :

١ ــ مميزاته الأخلاقية وتاريخه الاجتماعي .
٢ ــ الظروف التي تسود المحيط الذي ظهرت فيه الدعوة.
٣ ــ الظروف الزمانية .
٤ ــ محتوى الدعوة .
٥ ــ خطط الدعوة التنفيذية ووسائل الوصول إلى الهدف.
٦ ــ مقدار الأثر الذي تتركه الدعوة في المحيط .
٧ ــ مقدار إيمان صاحب الدعوة بهدفه ومدى تضحيته في سبيله .
٨ ــ عدم التساوم مع الأعداء لحرفه عن طريقه .
٩ ــ سرعة تأثير الدعوة في الرأي العام .

١٠ ـ دراسة الذين يؤمنون بالدعوة وطبقتهم الاجتماعية .

علينا أن ندرس هذه الأمور دراسة دقيقة وأن ننظم ملفاً خاصاً بذلك بحيث يسهّل علينا معرفة صدق مدعي النبوة أو كذبه .

والآن بعد الأخذ بنظر الاعتبار النقاط السابقة ، نباشر بإجراء دراسة دقيقة ومكثّفة عن شخص نبي الإسلام ، على الرغم من أن هذا يتطلب المجلدات الكثيرة :

١ ـ فيما يتعلّق بمميزات نبي الإسلام الأخلاقية ، فإن كتب التاريخ التي كتبها المحبون والكارهون تؤكد لنا أنه كان على درجة من الطهارة والنقاء والاستقامة بحيث انهم في ذلك العصر الجاهلي وصفوه بالصادق الأمين . يقول التاريخ : عندما أراد الهجرة إلى المدينة طلب من علي عليه السلام أن يؤدي عنه الأمانات إلى أصحابها .

أما شجاعته وثباته وحسن خلقه وسعة صدره وفتوته وتضحياته فيمكن التعرف عليها من خلال حروبه وفترات سلمه . وعلى الأخص نجد أن العفو العام الذي أصدره بالنسبة لأهل مكّة بعد فتحها واستسلام أعدائه الألداء للمسلمين خير دليل حي على خلقه النبيل .

٢ ـ إننا نعلم أن الناس العاديين ، بل حتى النوابغ منهم ، يصطبغون بصبغة المحيط الديني الذي يعيشون فيه شاؤوا أم أبوا ، وإن يكن اصطباغهم على درجات متفاوتة .

تصور ، إذن ، رجلاً عاش أربعين سنة في محيط كله جهل وعبادة أصنام ، وتسوده ثقافة الخرافات والأباطيل ، كيف يمكن له

أن يدعو إلى التوحيد الخالص ، وإن يبادر إلى مصارعة مظاهر الشرك كلها ؟ كيف يمكن أن يصدر عن محيط جاهل أعلى التجليات العلمية التي تعشي الأبصار؟ أيمكن أن نصدق أن ظاهرة عجيبة كهذه يمكن أن تظهر إلى الوجود بغير أن تكون مؤيدة من الله من ما وراء الطبيعة؟

٣ ــ علينا أن نعرف العصر الذي ظهر فيه النبي . لقد كان عصر القرون المتوسطة ، عصر الاستبداد والمحاباة والامتيازات الظالمة ، عصر العنصرية والطبقية . تعال نستمع إلى وصف ذاك العصر من لسان علي بن أبي طالب عليه السلام ، إذ يقول :

« بعثه والناس ضلّال في حيرة ، وحاطبون في فتنة ، قد استهوتهم الأهواء ، واستنزلتهم الكبرياء ، واستخفتهم الجاهلية الجهلاء ، حيارى في زلزال من الأمر ، وبلاء من الجهل. . . »[(١)] .

فتصور ديناً شعاره المساواة بين الناس والقضاء على التبعيض العرقي والطبقي : « إنما المؤمنون إخوة » كيف ينسجم مع مثل ذلك العصر؟ .

٤ ــ محتوى دعوته التوحيد من جميع الجهات إلغاء الامتيازات الظالمة ، توحيد عالم الإنسانية ، مكافحة الظلم والجور ، إقامة حكومة عالمية ، الدفاع عن المستضعفين ، واعتبار التقوى والطهارة والأمانة من أهم معايير القيم الإنسانية .

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٩٥ (إعداد صبحي الصالح).

٥ ــ بالنسبة للخطط التنفيذية لم يُجِز أبداً المقولة القائلة أن الغاية تسوّغ الواسطة للوصول إلى أهدافه المقدسة . كان يقول :

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ . . . ﴾

[سورة المائدة ، من الآية : ٨]

أما علو أخلاقه فيتضح من تعليماته في التزام المبادىء الأخلاقية في ميادين الحرب ، عدم الاعتداء على غير المقاتلين ، الامتناع عن قطع شجرة ، وعن تلويث مياه شرب العدو ، ومعاملة الأسرىٰ بكل محبة ، وعشرات أخرى من أمثال هذه التعليمات .

٦ ــ مقدار تأثير دعوته في ذلك المحيط كان من الشدة بحيث ان الأعداء كانوا يخشون الاقتراب منه ، خوفاً من أن ينجذبوا إليه ، فكانوا إذا أخذ يتكلم يثيرون الجلبة والضوضاء لئلا يسمع الناس ما يقول فتنجذب إليه قلوبهم العطشىٰ . ولكي يموهوا على الناس تأثيره المعجز وصفوه بالساحر الذي ينطق بالسحر ، وهذا بذاته اعتراف ضمني بقوة تأثير دعوته الخارقة للعادة .

٧ ــ أما مقدار تضحيته في سبيل دعوته ، فلقد كان أشد الناس إيماناً بهذا الدين الذي عهد إليه به .

في بعض الحروب التي فرّ منها الجديدون على الإسلام ، وقف هو بثبات ، ولم ينفع معه ترغيب الأعداء ولا ترهيبهم ، بل ظلّ ثابتاً على دينه ، لا يظهر عليه شيء من الضعف والتردد .

٨ ــ كثير ما سعوا لجره إلى التساوم مع المنحرفين ، ولكنه لم يتزحزح قيد شعرة عن موقف ، بل قال :

« والله لـو وضعـوا الشمس في يميني والقمـر في يسـاري على أن أترك هذا الأمر ما تركته » .

٩ ـ لم يكن تأثير دعوته في الـرأي العام عجيبـاً فحسب ، بل كانت سرعة انتشارها خارقة للعادة أيضاً .

إن الذين قرأوا ما كتبه المستشرقون الغربيون حـول الإسلام لا بـد أنهم لاحـظوا أن أولئـك يبـدون دهشتهم من سـرعـة انتشـار الإسـلام من هؤلاء ثلاثـة من الأسـاتـذة الغـربيين الـذين كتبـوا عن تـاريـخ حضـارة العـرب يعتـرفـون بهـذه الحقيقـة دون مـواربـة ، ويقولون :

« على الـرغم من البحوث والـدراسات التي أجـريت لمعرفـة سبب انتشـار الإسـلام السـريـع في العـالم بحيث انـه سيـطر على جـانب واسع من العـالم في أقل من قـرن ، فإن القضيـة مـا زالت غامضة » .

نعم ، انـه للغـز غـامض! تـرى كيف استـطاع الإسـلام في ظـروفـه تلك أن ينفـذ إلى قلوب مـلايين النـاس بتلك السـرعـة العجيبـة ، وان يهضم في ذاته مختلف الحضـارات ويخلق حضارة جديدة؟!

١٠ ـ نصـل أخيراً إلى أعـدائه، فقـد كانـوا من رؤساء الكفـر والـظالمين المستكبرين والكـانزين لـلأموال والأنـانيين ، في الوقت الذي كان فيه الذين آمنـوا به ، في غـالبيتهم ، فتية طهـرت قلوبهم فـراحوا يـطلبون الحق ، وهم جميـع الفقراء المحـرومين والعبيد ، أنـاس مـا كـان لهم من رأسمـال سـوى الـطهـارة وصفـاء النفس والتعطش إلى الله .

من مجموع هذه البحوث ـ التي يطول شرحها وتفصيلها ـ يمكن أن نستنتج أن دعوته دعوة إلّهية ، دعوة انبعثت مما وراء الطبيعة ، وانه قد بعثه الله لينقذ الإنسان من الفساد والضياع والجهل والشرك والظلم والجور .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ هل هناك طريق لمعرفة صدق النبي غير طريق المعجزة؟ ما هي؟

٢ ـ ما هي القرائن التي نقول اننا يجب أن نجمعها ، وما النقاط التي يجب أن نؤكد عليها؟ .

٣ ـ بيّن ما تعرفه عن العرب خصوصاً والعالم عموماً في العصر الجاهلي .

٤ ـ هل يمكن معرفة شيء من المقارنة بين حال العرب قبل الإسلام وبعده؟ .

٥ ـ لماذا اتهم أعداء الإسلام النبي بالسحر؟

الدرس العاشر

نبي الإسلام خاتم الأنبياء

معنى الختم

نبي الإسلام آخر أنبياء الله ، فيه اختتمت سلسلة النبوة ، وهذا من « ضرورات الدين الإسلامي » .

والضرورة هنا تعني أن من يدخل صفوف المسلمين سرعان ما يدرك أن جميع المسلمين يحملون العقيدة نفسها وهي من الأمور الواضحة والمسلّم بها عندهم . فمثلما ان كل شخص له تعامل مع المسلمين يعلم انهم يؤكدون مبدأ « التوحيد » يعلم أيضاً انهم متفقون جميعاً على أن نبي الإسلام هو خاتم الأنبياء ، وليس هناك أي مسلم يتوقع مجيء نبي جديد .

والواقع ان قافلة البشرية قد طوت خلال مسيرتها نحو التكامل مراحل عديدة ومختلفة الواحدة بعد الأخرىٰ حتى بلغت مرحلة من الرشد والتكامل تستطيع معها ان تقف على قدميها ، أي انها تستطيع أن تحل جميع مشكلاتها باتباع التشريعات الإسلامية الجامعة .

وبعبارة أخرىٰ : إن الإسلام هو القانون النهائي الشامل في مرحلة بلوغ البشرية ونضجها ، فهو من حيث العقائد بلغ الكمال في محتواه ، ومن حيث التطبيق العلمي بلغ أعلى مراحله في التنظيم بحيث انه يسد حاجات الإنسان في كل عصر وزمان .

الدليل على أن النبي خاتم الأنبياء :

هنالك لاثبات هذا القول أدلة عديدة ، أهمها ما يلي :

١ ـ ضرورة هذه القضية : قلنا إن من يتصل بالمسلمين في أي مكان من العالم يدرك انهم يعتقدون بأن نبي الإسلام هو خاتم الأنبياء ، وعليه فإذا تقبّل أحد الإسلام عن طريق الدليل والمنطق ، فلا مندوحة له من أن يقبل بمبدأ اختتام النبوة بنبي الإسلام. وبما اننا في الدروس السابقة أثبتنا صحّة هذا الدين وصدقه بالأدلة الكافية ، فلا بد من القبول بأن مبدأ ختم النبوة بنبوة رسول الله صلى الله عليه وآله من ضرورات هذا الدين .

٢ ـ في القرآن آيات تؤكد كون النبي هو خاتم الأنبياء ، منها :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّنَ ﴾ [سورة الأحزاب ، من الآية : ٤٠]

وقد نزلت هذه الآية في الوقت الذي راج فيه بين العرب تبني الأبناء ، إذ كانوا يتبنون أبناء أبوين آخرين ويتخذونهم أبناء حقيقيين لهم ضمن أفراد الأسرة، يرثونهم ومحرم عليهم .

غير أن الإسلام ألغى هذه العادة الجاهلية ، وقال إن الابن

بالتبني لا يمكن أن يكون كالابن الشرعي من حيث الحقوق القانونية ، بما فيهم « زيد » الذي كان نبي الإسلام قد تبنّاه ، فجاءت الآية تقول للمسلمين إنكم بدلاً من أن تصفوا النبي بكونه أباً لأحد ، صفوه بصفتيه الحقيقيتين : كونه رسول الله ، وكونه خاتم النبيين . وهذا يدل على أن هاتين الصفتين كانتا من الأمور المسلّم بهما بين المسلمين .

السؤال الوحيد الذي يطرأ هنا هو ما المعنى الحقيقي للختم؟ « الخاتم من مادة « ختم » التي تعني بلوغ نهاية الشيء ، مثل الختم الذي كان يوضع في نهاية الخطاب المكتوب . ومن هنا وضعت كلمة « الخاتم » على ما يلبس في الاصابع ، لأن فص الخواتم كان ينقش عليه اسم أو رسم ويستعمل لختم المكاتبات في ذلك الزمان ، وكل ختم كان يخص شخصاً بعينه .

جاء في الروايات الإسلامية : عندما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يكتب الرسائل لملوك العصر وزعمائه يدعوهم إلى الإسلام ، قيل له ان من عادة ملوك العجم انهم لا يقبلون كتاباً ما لم يكن فيه ختم صاحبه . وذلك لأن رسائل النبي حتى ذلك الحين كانت خلواً من كل ختم . فأمر أن يحفروا « لا إله إلاّ الله محمد رسول الله » على فص خاتم ، وأخذ يختم به رسائله منذئذ .

وعليه ، فإن المعنى الأصلي للخاتم هو وضع النهاية والاختتام .

٣ ــ هنالك أحاديث كثيرة تبيّن كون النبي كان آخر الأنبياء وخاتمهم ، منها الحديث المعتبر المروي عن جابر بن عبدالله

الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال :

« مثلي بين الأنبيـاء كمثـل من بنى داراً كـاملة لا تنقصهـا إلاَّ آجـرة واحـدة ، فمن دخلهـا اعجب بجمـالهـا ولكن يعيبهـا هـذا النقص . فأنا تلك الآجرة الناقصة والأنبياء ختموا بي » .

وقـد قال الإمـام الصـادق (عليـه السـلام) : **« حـلال محمـد حلال أبداً إلى يوم القيامة وحرامه حرام أبداً إلى يوم القيامة**[1] .

وثمة حديث يذكره الشيعة والسُّنَّة انه قال لعلي عليـه السلام : **« أنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ إلاَّ أنه لا نبي بعدي »** .

* * *

ثمـة تساؤلات تبـرز في موضـوع ختم النبوّة لا بـد من الإشارة إليها :

١ ــ يقول بعضهم ان إرسال الأنبيـاء فيض إلّهي عظيم فلمـاذا حرم أناس هـذا الزمن من هـذا الفيض؟ لماذا لا يكـون لأهل هـذا الزمان هاد وقائد جديد يدهيهم ويقودهم؟

إن الـذين يقولـون هـذا قـد غفلوا ، في الحقيقـة ، عن نقـطة مهمة ، وهي أن حرمـان عصرنـا لم يكن لعدم جـدارتهم ، بل لأن قـافلة البشريـة في هذا العصـر قد بلغت في مسيـرتها الفكـرية وفي وعيها مرحلة تمكنها من ادامة مسيرتها باتباع الشريعة .

ولنضرب هنا مثلاً :

---

(١) « أصول الكافي » ج ١ ، ص ٥٨ .

أولو العزم هم الأنبياء الذين جاءوا بدين جديد وبكتاب من السماء ، وهم خمسة (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد) عليهم السلام . وقد ظهر هؤلاء كل في فترة معينة من الزمان ، وسعوا لهداية البشر ووضعهم على طريق التكامل ، فأوصل كل منهم القافلة البشرية من مرحلة إلى المرحلة التي تليها وسلّمها إلى النبي الذي يليه من أولي العزم ، إلى أن بلغت القافلة من مسيرتها إلى الطريق النهائي ، كما بلغت القدرة التي تمكنها من مواصلة مسيرتها وحدها نهايتها ، مثلها مثل التلميذ الذي يطوي مراحل الدراسة الخمس حتى يتخرج في الكلية (وبالطبع لا يعني هذا انه انتهى من التعلم ، بل يعني أهليته للاستمرار بمفرده دونما حاجة إلى معلم أو مدرسة) . وهذه المراحل هي : المرحلة الابتدائية ، المرحلة المتوسطة ، المرحلة الاعدادية ، المرحلة الجامعية ، وأخيراً مرحلة الحصول على الدكتوراه .

فإذا لم يواصل دكتور الدراسة في الجامعة ، فلا يعني هذا إنه ليس جديراً بالدراسة ، بل يعني ان لديه من المعلومات ما يمكنه من حل مشكلاته العلمية بالاستعانة بها ، ومن الاستمرار في مطالعاته ومواصلة تقدمه .

٢ ــ لما كان المجتمع البشري دائم التغير ، كيف يمكن أن تكون التشريعات الإسلامية الثابتة قادرة على مواجهة تلك التغيرات؟ .

في الجواب نقول : في الإسلام نوعان من التشريعات : نوع هو أشبه ما يكون بصفات الإنسان الثابتة ، فهو أيضاً ثابت لا يتغير ، مثل لزوم الاعتقاد بالتوحيد ، وتطبيق العدالة ، ومكافحة

كل أنواع الظلم والتعسف والعدوان وأمثالها .

أما النوع الآخر من التشريعات فيتألف من مجموعة من القواعد الكلية العامة التي تتخذ اشكالاً جديدة بحسب تغير مواضيعها بحيث انها تسد الحاجة في كل عصر وزمان .

فمثلاً هنالك مبدأ عام في الإسلام يقول : « أوفوا بالعقود » لا شك أن تعاقب الأزمان يخلق أنواعاً جديدة من العقود الاجتماعية والتجارية والسياسية المفيدة التي يستطيع الإنسان أن يعقدها مع أخذ المبدأ الأصلي بنظر الاعتبار .

هنالك قاعدة كلية أُخرىٰ هي « قاعدة لا ضرر » التي تعني أن كل حكم أو قانون يسبب الضرر للفرد أو المجتمع يجب أن يتحدد بحدود . لاحظ كيف أن هذه القاعدة الإسلامية العامة تمنع الأضرار بالآخرين وتحلّ المشكلات .

إن في الإسلام الكثير من أمثال هذه المبادىء الكلية العامة التي يمكن بتطبيقها حل أعقد المشكلات التي قد تبرز في الحياة الاجتماعية .

٣ ـ لا شك اننا في المسائل الإسلامية بحاجة إلى القائد وعند عدم وجود النبي وغياب وصيه تتوقف قضية القيادة ، كما ان اختتام النبوة بنبي الإسلام لا يكون معه انتظار لنبي آخر ، أفلا يعني هذا خسارة للمجتمع الإسلامي ؟

في الجواب نقول : هذه الحالة أيضاً قد تم الاعداد لها من جانب الإسلام ، فعن طريق « ولاية الفقيه » يمنح الفقيه الجامع للشروط من علم وتقوى ورؤية سياسية على مستويات عالية حق

القيـادة . كما أن أُسلوب معـرفة مثـل هذا القـائد قـد بيّنه الإسـلام في قـوانينـه . وعليـه فليس هنـاك مـا يـدعـو إلى القلق من هـذه الناحية .

وبناء على ذلك فـإن مبدأ «ولايـة الفقيه» استمـرار لخط الأنبياء وأوصيائهم . إن قيادة الـولي الفقيه الجـامع للشـروط دليل على أن المجتمع الإسلامي لم يترك بدون رعاية وهداية[1] .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ ما المعنى الدقيق لكلمة «خاتم»؟

٢ ـ كيف نستدل من آيات القرآن على أن النبي خاتم الأنبياء؟ .

٣ ـ لماذا حرم الناس في عصرنا من ظهور الأنبياء بينهم؟ .

٤ ـ مـا أنواع القـوانين الإسـلاميـة ، وكيف تسـد حـاجـات كـل زمان؟ .

٥ ـ هـل يمكن للمجتمع الإسـلامي أن يبقى بدون قـائـد؟ كيف حلّت مسألة القيادة الإسلامية في عصرنا؟ .

(١) لمزيد من التوضيح راجع كتابنا «طرح حكومت إسلامي» .

الفهرست

القسم الثاني
العدل الإلهي

الدرس الأول

الدرس الثاني

الدرس الثالث

الدرس الرابع

الدرس الخامس

الدرس السادس

الدرس السابع

الدرس الثامن

الدرس التاسع

الدرس العاشر

القسم الثالث
معرفة النبوّة

الدرس الأول

الدرس الثاني

الدرس الثالث

الدرس الرابع

الدرس الخامس

الدرس السادس

الدرس السابع

الدرس الثامن

الدرس التاسع

الدرس العاشر

سلسلة الدروس الدينية في العقائد الاسلامية

تأليف

ناصر مكارم الشيرازي

منشورات
مؤسسة النور للمطبوعات
بيروت - لبنان

مؤسسة النور للمطبوعات
بيروت. شارع المطار. قرب كلية الهندسة ص. ب - ١١/٨٦٤٥

سلسلة الدروس الدينية في العقائد الإسلامية

القسم الرابع

معرفة الامامة

الدرس الأول

متى بدأ البحث في الإمامة؟

بعـد أن تـوفي نبي الإسـلام انقسم المسلمـون إلى فـريقين :
فريق قال إن النبي صلى الله عليه وآله لم يعيّن خليفـة بعده ، وانـه أوكل ذلك إلى الأُمَّة كي تختار بنفسها قائـداً لها . هـذا الفريق هم « أهل السُّنَّة » .

الفريق الآخر قال إن خليفة الـرسول صلى الله عليـه وآله يجب أن يكـون معصـومـاً مثله من الخـطأ والإثم ، عـالـمـاً ، قـادراً على قيـادة الأُمَّة قيـادة معنويـة وماديـة ، والحفاظ على مبـادىء الإسلام الأصيلة وادامتها .

يقــول هؤلاء إن مثـل هــذا الخليفـة يجب أن يعيّنــه الله عن طـريق رسولـه ، وان رسول الله قـد فعـل ذلـك ، وعيّن عليـاً عليـه السلام خليفة له . وهؤلاء هم « الإمامية » أو « الشيعة » .

إن هدفنا من هـذه البحوث المكثفـة هو أن نتـابع هـذه القضية على هـدى الأدلـة العقلية والتـاريخيـة والآيـات القـرآنيـة والسُّنَّـة النبوية .

ولكن قبل الدخول في الموضوع لا بد من الإشارة إلى بضع نقاط :

١ ـ هل البحث في هذا الموضوع يثير الخلاف؟

بعض الناس ما ان يطرق سمعهم الكلام على الإمامة حتى ينبرون فوراً قائلين إن الظرف اليوم لا يسمح بذلك . فاليوم هو يوم وحدة المسلمين ، بينما الكلام على خليفة نبي الإسلام سيكون مدعاة للتفرقة وتشتت الكلمة ، أو ان لنا اليوم أعداء مشتركين يجب أن نوجه اهتمامنا إليهم : الصهيونية والاستعمار الغربي والشرقي . وعليه يجب أن نتجنب المسائل المختلف فيها .

غير أن هذا الطراز من التفكير خطأ محض ، للأسباب التالية :

أولاً : أن ما يسبب الخلاف والتشتت يدخل ضمن البحوث المتعصبة غير المنطقية المثيرة للأحقاد .

أما البحث المنطقي الاستدلالي البعيد عن التعصب واللجاجة والخصام ، والذي يجري في جو من الود الحميم ، فإنه فضلاً عن كونه لا يسبب التفرقة فإنه يقلل مسافة الانفصال ويقوي نقاط الالتقاء المشتركة .

إنني في سفراتي المتكررة لزيارة بيت الله الحرام بمكة ، ومن مباحثاتي مع علماء أهل السنة ، كنت أحسّ ، كما كانوا هم أيضاً يحسون ، بأن هذه المباحثات فضلاً عن كونها ليس لها أي أثر سيء على علائقنا ، فإنها ابعث على التفاهم وحسن الظن ، والتقارب وإزالة ما قد يكون في بعض الصدور من ضغينة .

المهم أن هذه البحوث تنير الكثير من نقاط الالتقاء فيما بيننا ، مما يمكن لنا أن نستند إليها في مواجهة أعدائنا المشتركين .

ينقسم أهل السنة أنفسهم أقساماً أربعة : الحنفية ، والحنابلة ، والشافعية ، والمالكية ، ومع ذلك فإن هذا الانقسام لم يتسبب في تفرقتهم ، وإذا ما اعتبروا فقه الشيعة ، في الأقل ، مذهباً فقهياً خامساً فإن الكثير من العقد والتشتت يزول من الوجود ، كما حدث فعلاً بعد أن خطا مفتي أهل السنة الكبير ، شيخ الأزهر ، الشيخ شلتوت ، تلك الخطوة المهمة بإعلانه المذهب الشيعي مذهباً إسلامياً رسمياً ، فكان بذلك عوناً كبيراً ومؤثراً في عملية التفاهم الإسلامي ، وانعقدت بينه وبين المرحوم آية الله البروجردي ، مرجع عالم التشيّع الكبير ، أواصر الصداقة .

ثانياً : اننا نعتقد أن الإسلام قد تبلور في المذهب الشيعي أكثر من أي مذهب آخر . وفي الوقت الذي يحترم مذهب الشيعة المذاهب الإسلامية ، فإننا نعتقد أن المذهب الشيعي أقدر على تعريف الإسلام الصادق بجميع أبعاده ، وعلى حل القضايا بالحكومة الإسلامية .

فلماذا لا نعلّم أبناءنا هذا المذهب والمنطق؟ بل اننا إن لم نفعل فقد خنّاهم!

إننا على يقين تام بأن النبي (ص) قد عيّن خليفته من بعده ، فما الذي يحول دون تتبع هذا الموضوع على هدى الاستدلال والمنطق؟ إنما نحن ملزمون في امثال هذه البحوث أن نحذّر كيلا نجرح مشاعر الآخرين المذهبية .

ثالثاً : ان أعداء الإسلام ، لكي يوقعوا بين المسلمين ويفكّوا وحدتهم لم يألوا جهداً في اتهام الشيعة عند أهل السنة بشتى التهم والافتراءات ، كما انهم لم يألوا جهداً في اتهام أهل السنة عند الشيعة بشتى التهم والافتراءات ، بحيث انهم استطاعوا في بعض البلدان ان يحققوا القطيعة بينهم . اننا عندما نعرض موضوع « الإمامة » بالأسلوب الذي سبق ذكره ، نوضح النقاط التي يستند عليها الشيعة لتوثيق رأيهم ، مع أدلة من الكتاب والسنة ، يتبيّن تماماً ان كل تلك الدعاوي كانت كاذبة ، وان أعداءنا المشتركين هم الذين بثوا تلك السموم .

كمثال على ذلك ، لا أنسى انني في إحدى زياراتي للحجاز التقيت أحد كبار رجال الدين السعوديين وجرت بيننا بحوث ، فكان يقول انه سمع أن للشيعة قرآناً يختلف عن قرآنهم .

فاستولى عليَّ العجب ، ولكني قلت له : أخي ، إن التحقق من هذا الأمر سهل للغاية . انني أدعوك شخصياً أو من يمثلك أن تأتي معي ، بعد انتهاء العمرة ، إلى إيران دون اخبار أحد . هناك ستجد في كل شارع وزقاق مسجداً ، وفي كل ، مسجد ستجد عدداً من المصحف الشريف ، كما أن القرآن موجود في بيوت جميع المسلمين . ولسوف نزور أي مسجد شئت ، أو نطرق باب أي منزل أردت ونطلب منهم أن نرى القرآن الذي يتلونه ، وعندئذٍ يتبيّن إن كان هناك أي اختلاف ، حتى في كلمة واحدة أو في حرف واحد ، بين ما عندنا وعندكم من كتاب الله بل ان الكثير من نسخ المصحف الشريف المتداولة عندنا هي من طبع الحجاز أو مصر أو سائر البلاد الإسلامية .

لا شك ان هذا الكلام الاخوي الصادق المنطقي تماماً قد أزال من ذهن أحد الرجالات المعروفين تلك السموم العجيبة .

وعليه ، فإن الحديث فيما يتغلق بالإمامة ـ بالأسلوب الذي ذكرناه ـ يقوي وحدة المسلمين ويساعد على إلقاء الضوء على الأمور ويضيق من شقة التباعد .

٢ ـ ما هي الإمامة؟

« الإمام » كما هو واضح من الكلمة ، هو الذي يقتدي به في الإسلام ويتقدم المسلمين ويقودهم . وفي عقائد الشيعة يطلق « الإمام المعصوم » على من يكون خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله في كل شيء ، سوى أن النبي هو مؤسس الإسلام ، والإمام حافظه وحاميه ، والنبي يتلقى الوحي ، والإمام لا يأتيه الوحي ، بل يأخذ تعليماته من رسول الله صلى الله عليه وآله ويمتاز بعلم غزير خارق للعادة .

الإمام المعصوم ، عند الشيعة ، لا يعني رأس الحكومة الإسلامية فحسب ، بل هو القائد «المعنوي» و«المادي» و«الظاهري» و«الباطني» وقائد كل جوانب المجتمع الإسلامي أيضاً . انه عليه تقع مسؤولية حماية العقائد والأحكام الإسلامية بدون أي خطأ أو انحراف ، وهو عبد اختاره الله من بين عبيده .

إلّا أن أهل السنة لا يفسرون الإمامة هكذا ، وإنما هم يعتبرونه رئيس حكومة المجتمع الإسلامي . وبعبارة أخرى انهم يعتبرون الحكام في كل عصر وزمان خلفاء رسول الله وأئمة المسلمين !

ولسوف نثبت في بحوثنا التالية انه يجب أن يكون في كل عصر وزمان ممثل إلٰهي نبي أو إمام معصوم ـ على هذه الأرض ، لكي يحرس هذا الدين الحق ، ويهدي السائرين إلى الله . وإذا ما غاب عن الأنظار لسبب من الأسباب ، عهد إلى آخرين بتمثيله في تبليغ الأحكام وتشكيل الحكومة .

فكّر وأجب

١ ـ ما منطق الذين يزعمون أن الوقت ليس وقت الخوض في بحث الإمامة؟

٢ ـ كم جواباً استدلالياً عندنا لإثبات ضرورة القيام بهذا البحث في مواجهة منطق أولئك؟

٣ ـ كيف أوقع أعداء الإسلام الفرقة بين المسلمين؟ وكيف يمكن ردم الهوة بينهم؟ .

٤ ـ هل تتذكر أمثلة على ما قام به الأعداء لتفريق المسلمين؟

٥ ـ ما الاختلاف في معنى «الإمامة» عند الشيعة وعند أهل السنة؟

* * *

الدرس الثاني

فلسفة وجود الإمام

إن البحوث التي أثبتنا بها ضرورة بعث النبيين تبيّن كذلك إلى حد كبير ضرورة وجود الإمام بعد النبي ، لأن الموضوعين يشتركان في جانب مهم من المناهج ، إلاَّ أن موضوع الإمامة يتطلب مزيداً من البحث :

١ ـ التكامل المعنوي إلى جانب وجود القادة الإلٰهيين :

قبل كل شيء نتوجه إلى الهدف من خلق الإنسان، فهو أساس عالم الخليقة .

إن الإنسان يطوي طريقاً طويلاً كثير المنعطفات والعثرات في سيره نحو الله ، نحو الكمال المطلق ، نحو التكامل المعنوي بجميع أبعاده .

من البديهي انه لا يستطيع أن يقطع هذا الطريق بنجاح بغير هداية قائد معصوم ، ولا ان يطويه بغير معلم سماوي ، لأنه طريق محفوف بالظلمات وبمخاطر الضلال .

صحيح ان الله قد وهب الإنسان العقل والحكمة ، ومنحه وجداناً قوياً مثمراً ، وأرسل إليه كتباً سماوية ، ولكن هذا الإنسان ، مع كل هذه الوسائل التكوينية والتشريعية ، قد يخطىء في تمييز خط سيره ، لذلك فإن وجود دليل معصوم يأخذ بيده يقلل كثيراً من احتمالات الانحراف والضياع . فبناء على ذلك :

« وجود الإمام يكمل الهدف من خلق الإنسان » .

وهذا هو ما يطلق عليه في كتب العقائد اسم «قاعدة اللطف»، ويقصدون بها ان الله الحكيم يمد الإنسان بجميع الأمور اللازمة له لكي يصل إلى هدف الخلق ، ومن ذلك بعث الأنبياء وتعيين الأئمة المعصومين ، وإلاّ فإنه يكون قد (نقض الغرض) من ذلك . فتأمل!

٢ ـ حماية الشرائع السماوية :

إن الأديان الإلٓهية عند أول نزولها على قلوب الأنبياء تكون أشبه بقطرات المطر النقية الشفافة الزلال التي تمنح الحياة وتربي الروح . ولكنها عندما تدخل المحيط الملوث والأدمغة الضعيفة غير النظيفة تتلوث بالتدريج ، وتضاف إليها الخرافات والأوهام ، بحيث انها تفقد شفافيتها ولطافتها الأولى ، وعندئذٍ لا يبقى لها شيء من جاذبيتها وتفقد الكثير من تأثيرها التربوي ، فلا هي تروي عطش العطاشى ، ولا هي تنبت برعماً لفضيلة .

هٰهنا تتضح ضرورة وجود القائد المعصوم بصفته انه هو الذي يحمي أصالة الدين ، وخلوص المناهج الدينية ، ويحول دون كل اعوجاج وانحراف وفكر وافد ونظرة سقيمة غريبة ، وكل الخرافات

والأساطير ، إذ لو بقي الدين بدون وجود مثل هذا القائد والحامي لفقد في فترة قصيرة أصالته ونقاءه .

ولهذا نجد الإمام علياً عليه السلام يقول في إحدى خطبه :

« اللهم بلى ، لا تخلو الأرض من قائم الله بحجة ، إما ظاهراً مشهوراً ، وإمّا خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج الله وبيّناته »[1] .

في الواقع ان قلب الإمام ، من هذه الناحية ، أشبه بالخزانة المتينة التي تحفظ فيها الوثائق والمستندات المهمة ، لكي تبقى مصونة من أيدي اللصوص والعابثين والحوادث . وهذا وجه آخر من وجوه فلسفة وجود الإمام .

٣ ـ قيادة الأُمَّة سياسياً واجتماعياً :

لا شك أن الجماعة من الناس إذا لم يكن لها نظام اجتماعي يقف على رأسه قائد قادر ، لا تكون قادرة على إدامة حياتها . ولهذا نجد الأقوام منذ أقدم العصور حتى الآن قد اختاروا لأنفسهم زعيماً وقائداً . وهذا القائد قد يكون صالحاً ، ولكنه كثيراً ما لا يكون . ولطالما استطاع كثير من طالبي الجاه والسلطة استغلال حاجة الناس إلى المرشد والقائد لفرض أنفسهم بالقوة والتزوير على الناس ، فاستحوذوا على أزمة الأمور في أيديهم . هذا من جهة ، ومن جهة أُخرىٰ ، لكي يتمكن الإنسان من الوصول إلى هدفه المعنوي ، يجب عليه أن لا ينفرد في

(١) نهج البرغة . الكلمات القصار (١٤٧) .

مسيرته ، بل عليه أن ينضم إلى المجتمع في مسيرة عظمى ، لأن طاقات الفرد الفكرية والجسمية والمادية والمعنوية ليست شيئاً يذكر بإزاء طاقات المجتمع الجبارة .

ولكن المجتمع المطلوب هو الذي يسوده نظام سليم ، تتضح فيه مواهب الإنسان ، ويقف بوجه الانحرافات ، ويحافظ فيه على حقوق جميع الافراد ، ويضع الخطط والمناهج للوصول إلى أهدافه الكبرى ، ويعبىء الدافع المحرك في المجتمع ضمن إطار من الحرية يشمل المجتمع كله .

ولما كان الإنسان العادي المعرض للخطأ غير قادر على حمل مثل هذه الرسالة العظيمة ، بدليل ما نراه بأم أعيننا من انحراف قادة العالم السياسيين عن جادة الصواب ، كان لا بد أن يختار الله قائداً معصوماً يضطلع بمهمة الاشراف على تحقيق هذه الرسالة ، بالاعتماد على طاقات البشر الكامنة وأفكار العلماء في الوقت الذي يقف بوجه الانحرافات بحزم .

وهذا وجه آخر من أوجه فلسفة وجود الإمام المعصوم وفرع آخر من فروع « قاعدة اللطف » . ونكرر هنا قولنا انه عند غياب الإمام المعصوم بعلة من العلل وفي ظرف استثنائي ، فإن ما ينبغي أن يفعله الناس واضح أيضاً ، ولسوف نتناول هذا ، إن شاء الله ، في البحوث الخاصة بالحكومة الإسلامية بالشرح والتفصيل .

٤ ـ ضرورة اتمام الحجة :

إن وجود الإمام لا يقتصر على إنارة القلوب المستعدة للهداية والسير في طريق التكامل ، بل يعتبر اتماماً للحجة على الذين

ينحرفون متعمدين عن الطريق السوي ، وذلك كيلا يكون العقاب الذي ينزل بهم بدون سبب ، ولكيلا يعترض معترض منهم انهم لو أخذ بأيديهم مرشد إلٓهي ليقودهم إلى طريق الرشاد ، لما ساروا في طريق الانحراف .

أي أن وجود الإمام يقطع الطريق على كل عذر وحجة ، بواسطة بيان الأدلة الكافية ، والتوعية اللازمة لغير الواعين ، وتطمين الواعين وتقوية ارادتهم .

٥ ــ الإمام واسطة الفيض الإلٓهي :

كثير من العلماء ، استناداً إلى الأحاديث الإسلامية ، يشبهون وجود النبي والإمام في المجتمع الإنساني ، أو في كل عالم الوجود ، بالقلب بالنسبة لجسم الإنسان .

فالقلب إذ ينبض يرسل الدم إلى جميع العروق ، ويغذي جميع الخلايا في الجسم .

ولما كان الإمام المعصوم ، باعتباره إنساناً كاملاً وطليعة قافلة الإنسانية ، وسبب نزول الفيوضات الإلٓهية التي ينهل منها كل فرد على قدر ارتباطه بالنبي أو الإمام ، فلا بد أن نقول انه مثلما كان القلب ضرورياً لحياة الإنسان ، كذلك كان وجود واسطة نزول الفيض الإلٓهي ضرورياً في جسد عالم البشرية ، فتأمل!

ينبغي ألَّا يغرب عن البال إن النبي والإمام لا يملكان شيئاً من نفسيهما ليمنحاه للآخرين ، فكل ما عندهما هو من عند الله ، ولكن مثلما كان القلب واسطة إيصال الفيض الإلٓهي لسائر

أنحاء الجسم ، كان النبي أو الإمام واسطة أيضاً الفيوضات الإلّهية لسائر أبناء البشر .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ ما دور الإمام في تكامل الإنسان تكاملاً معنوياً؟
٢ ـ ما دور الإمام في حماية الشريعة الإسلامية؟
٣ ـ ما دور الإمام في مسألة قيادة الحكومة ونظام المجتمع؟
٤ ـ ما معنى إتمام الحجة؟ وما دور الإمام فيه؟
٥ ـ ما هي واسطة الفيض؟ وما هو أفضل تشبيه للنبي والإمام بهذا الشأن؟ .

* * *

الدرس الثالث

شروط الإمام الخاصة وصفاته

قبل كل شيء ينبغي أن نلتفت إلى نقطة مهمة في هذا البحث :

يستفاد من القرآن المجيد بوضوح ان مقام « الإمامة » أرفع مقام يمكن أن يصل إليه إنسان ، أرفع حتى من مقام « النبوة » و « الرسالة » فنحن في حكاية النبي إبراهيم ، محطم الأصنام ، نقرأ :

﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ .

أي إن إبراهيم ، بعد أن طوى مرحلة النبوة والرسالة واجتاز بنجاح مختلف ما امتحنه به الله ، ارتقى إلى هذه المرحلة الرفيعة ، مرحلة مقام الإمامة الظاهرية والباطنية والمادية والمعنوية في قيادة الناس.

نبي الإسلام صلى الله عليه وآله كان ، بالإضافة إلى مقام

النبوة والرسالة ، في مقام إمامة الخلق وقيادتهم . وهناك عدد آخر من الأنبياء بلغوا هذه المرحلة الرفيعة أيضاً .

هذا من جهة ، ومن جهة أُخرىٰ إننا نعلم أن الشروط والصفات اللازمة لتحمل مسؤولية منصب من المناصب تتناسب مع الواجبات والمسؤوليات التي ينبغي على المرء تنفيذها وتحملها ، وكلما كان المنصب أرفع ومسؤولياته أصعب ، كانت الشروط والصفات اللازم توفرها في المنتخب لذلك المقام أهم وأثقل .

فمثلاً يشترط الإسلام فيمن يتسلم منصب القضاء ، وحتى الشاهد وإمام الجماعة ، أن يكون عادلاً . فإذا كان الذي يريد أن يدلي بشهادة ، أو الذي يريد أن يقرأ الحمد والسورة ، يجب أن يكون عادلاً ، فما بالك بالشروط اللازمة لبلوغ مقام الإمامة الخطير الرفيع !

إن الشروط التالية ، على وجه العموم ، لازمة التوفر في الإمام :

١ ـ العصمة من الخطأ والإثم :

الإمام ، كالنبي ، يجب أن يكون معصوماً ، أي ان يكون مصوناً من كل «خطأ» و«إثم» ، وإلَّا ما كان قادراً على أن يكون قائداً ونموذجاً وقدوة وأسوة للناس يعتمدونه ويتبعونه .

لا بد للإمام من أن يستحوذ على قلوب الناس ، فيأتمرون بأمره دون اعتراض . فمن كان ملوثاً بالإثم لا يمكن أبداً أن يبلغ هذا المبلغ في القلوب ولا يكون موضع ثقة الناس واطمئنانهم .

ومن كان في أعماله اليومية عرضة للأخطاء والهفوات ، كيف يمكن أن يوثق به في إدارة أعمال المجتمع ويطمأن إلى آرائه وتنفيذها بدون أي اعتراض؟

إذن ، لا شك في أن النبي يجب أن يكون معصوماً ، وهذا الشرط لازم في الإمام أيضاً ، كما ذكرنا .

هذه المقولة يمكن اثباتها من طريق آخر أيضاً ، وهي طريق « قاعدة اللطف » نفسها التي يستند إليها لزوم وجود النبي والإمام ، وذلك لأن الهدف من وجود النبي والإمام لا يتحقق بدون هذه العصمة فيهما ، وما ذكرناه في الدرس السابق عن فلسفة وجودهما يظل ناقصاً .

٢ ـ العلم الغزير :

الإمام ، كالنبي ، هو الملجأ العلمي للناس ، فلا بد أن يكون عارفاً بجميع أصول الدين وفروعه ، وبظاهر القرآن وباطنه ، وبسنة رسول الله وبكل ما له علاقة بالإسلام معرفة تامّة ، وذلك لأنه حافظ الشريعة وحاميها ، كما هو قائد الناس ومرشدهم .

إن الذين يرتبكون إذا ما واجهوا مشكلة معقّدة ، أو انهم يرجعون إلى الآخرين يطلبون عندهم الحلول ، لأن ما عندهم من علم يقصر عن الإجابة على أسئلة المجتمع المسلم ، ليس لهم ان يتحملوا مسؤولية إمامة الأمّة وقيادتها .

الخلاصة هي ان الإمام يجب أن يكون أعلم الناس وأوعاهم لدين الله ، وأن يملأ الفراغ الذي يتركه النبي بأسرع ما يمكن

مسيرته .

٣ ـ الشجاعة :

الإمـام يجب أن يكون أشجـع أفراد المجتمـع ، إذ إن القيـادة بغير شجاعة غير ممكنة : الشجاعة عند مـواجهة الحـوادث الصعبة المرة ، الشجاعـة عند الـوقوف بـوجه الأقـوياء الغـلاظ الظالمين ، الشجاعة في صد الأعداء الداخليين والخارجيين .

٤ ـ الزهد والتحرر :

من المعلوم أن الـذين يميلون إلى مبـاهـج الـدنيـا وزخـرفهـا سرعان ما ينخدعـون ويسهل اغـراؤهم بالانحـراف عن طريق الحق والعدالة بواسطة الترغيب أحياناً والترهيب أحيانـاً أخرىٰ . وشخص هذا شأنـه يكون في الـواقع «أسيـراً» للدنيا ، بينمـا الإمام يجب أن يكون «أميراً» بـالنسبة لمتـاع الدنيـا وبهرجهـا . انه يجب أن يكـون متحـرراً من أسر أهـواء النفس ومنـطلقـاً من قيـود الثـروة والجـاه ، لكيـلا يستـطيـع أحـد إغـراءه ويؤثـر فيـه ويحمله على الاستسـلام والمساومة .

٥ ـ الجاذبية الأخلاقية :

يقول القرآن في رسول الله صلى الله عليه وآله :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ . . . ﴾ [سورة آل عمران ، من الآية : ١٥٩]

إن النبي الذي هو إمام وقائـد معاً ليس هـو وحده الـذي يجب أن يملك ذلك الخلق الرفيع الذي يجـذب إليه النـاس كما يجـذب

المغناطيس الحديد . لا شك أن كل خشونة وسوء خلق مما يثير النفور والتباعد في الناس يعتبر من العيوب الكبيرة في النبي أو الإمام لذلك فإن الأنبياء والأئمة منزهون عن هذا العيب ، وإلّا كان كثير من فلسفة الوجود عبثاً لا طائل تحته .

هذه هي أهم الشروط التي ذكر كبار العلماء انها يجب أن تتوفر في الإمام .

بديهي أن هناك صفات أُخرىٰ غير هذه الصفات الخمس يجب توفرها أيضاً في الإمام ، إلّا أن هذه أهمها .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ ما الدليل على أن الإمامة أرفع مقام يمكن أن يبلغه إنسان؟ .
٢ ـ هل كان نبينا وسائر الأنبياء أولي العزم أئمة أيضاً؟
٣ ـ إذا لم يكن الإمام معصوماً فما المشكلات التي تحدث جراء ذلك؟
٤ ـ لماذا يجب أن يكون الإمام ذا علم غزير؟
٥ ـ لماذا يجب أن يكون الإمام أشجع الناس وأزهدهم وأشدهم تحرراً وأحسنهم أخلاقاً وجاذبية؟ .

* * *

الدرس الرابع

من المسؤول عن تعيين الإمام؟

يعتقد بعض المسلمين من أهل السنة أن النبي صلى الله عليه وآله قد أغمض عينيه عن هذه الدنيا دون أن ينصب خليفة بعده ، ويعتقدون أن هذه المهمة تقع على عاتق المسلمين أنفسهم ، فهم الذين عليهم أن يختاروا قائدهم بطريق « إجماع المسلمين » باعتباره أحد الأدلة الشرعية .

ويضيفون إلى ذلك قولهم إن ذلك قد حصل فعلاً واختير الخليفة الأول بإجماع الأمّة .

ثم اختار الخليفة الأول الخليفة الثاني ..

وعيّن الخليفة الثاني شورى مؤلفة من ستة أشخاص يختارون أحدهم . وكانت هذه الشورى تتألف من علي عليه السلام ، وعثمان ، وعبدالرحمن بن عوف ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص .

كان الخليفة الثاني قد اشترط أنه إذا انقسمت الشورى كل

ثلاثة في طرف ، فإن الطرف الذي فيهم عبدالرحمن بن عوف (صهر عثمان) هو الذي يختار الخليفة ، وهذا ما حصل ، إذ الأكثرية المؤلفة من سعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف وطلحة اختاروا عثمان .

وفي أواخر عهد عثمان نهض الناس لأسباب مختلفة ضده ، وكان ان قتل قبل أن يستطيع تعيين أحد أو شورى .

وعلى أثر ذلك أقبل الناس برمتهم متجهين إلى الإمام علي عليه السلام ، وبايعوه خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله ، باستثناء معاوية الذي كان عامل عثمان على الشام ، لأنه كان واثقاً ان علياً لن يبقيه في منصبه . فرفع راية المعارضة ، فكان مصدر حوادث مشؤومة ودموية في التاريخ أدت إلى إراقة دماء الكثيرين من الأبرياء .

هنا تبرز أسئلة كثيرة لا بد منها لالقاء الضوء على البحوث العلمية والتاريخية ، سنورد بعضاً منها :

١ ـ هل للأُمَّة أن تختار خليفة رسول الله؟

ليس من الصعب الجواب على هذا السؤال ، فنحن إذا اعتبرنا الإمامة بمعنى الحكم الظاهري على مجتمع المسلمين ، فإن اختيار الحاكم بالرجوع إلى آراء الناس أمر متداول .

ولكن إذا كانت الإمامة بالمعنى الذي شرحناه من قبل والذي استقيناه من القرآن الكريم ، فلا شك في انه ليس لأحد الحق في تعيين خليفة النبي سوى الله ورسوله (وبأمر من الله) .

إذ ان شرط الإمامة بحسب هذا التفسير هو العلم الوافر

بجميع أصول الدين وفروعه ، ذلك العلم الذي ينبع من مصدر سماوي ويستند إلى علم رسول الله صلى الله عليه وآله ، لكي يستطيع الحفاظ على الشريعة الإسلامية .

الشرط الآخر هو معصومية الإمام ، أي ان يكون مصوناً صيانة إلٰهية ضد كل خطأ وإثم لكي يستطيع أن يتحمل مسؤولية مقام الإمامة وقيادة الأُمَّة قيادة معنوية ومادية وظاهرية وباطنية ، كما يجب أن يكون متمتعاً بالزهد والتحرر والتقوى والجرأة ، مما هو لازم لمن يتصدى للاضطلاع بمهمات هذا المنصب الجليل .

إن تمييز هذه الصفات في شخص ما ليست مستطاعة إلَّا بواسطة الله ورسوله ، فهو الذي يعلم في من وضع صفة العصمة ، وهو الذي يعلم في من يتوفر حد النصاب من العلم والزهد والتحرر والشجاعة والجرأة اللازمة لمقام الإمامة .

إن الذين عهدوا باختيار الإمام والخليفة إلى الناس قد غيروا في الحقيقة المفهوم القرآني للإمامة ، وقصروا هذا المفهوم على الحكم العادي وإدارة شؤون الناس الدنيوية ، وإلَّا فإن شروط الإمامة بمعناها الجامع الكامل لا تعرف إلَّا عن طريق الله تعالى ، لأنه هو العالم بهذه الصفات .

إن القضية أشبه بانتخاب النبي ، فالنبي لا يمكن أن ينتخبه الناس بالتصويت ، بل الله هو الذي يختاره ، ويتعرف عليه الناس عن طريق معجزاته ، لأن الصفات اللازم توفرها في النبي لا يعرفها إلَّا الله .

٢ ـ ألم يعين النبي أحداً ليخلفه؟

إن الدين الإسلامي ، ولا شك ، دين « عالمي » و « خالد »

ولا يقتصر على زمان ولا مكان معينين ، كما يصرح القرآن بذلك .

ولا شك أيضاً في أن الدين الإسلامي لم يكن قد تجاوز شبه الجزيرة العربية عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله .

ومن جهة أخرى نجد أن النبي أمضى ثلاث عشرة سنة من عمره الشريف في مكة يحارب الشرك وعبادة الأصنام ، والسنوات العشر التالية التي بدأت بالهجرة واستغرقت فترة تفتح الإسلام ، أمضاها رسول الله صلى الله عليه وآله هي الغزوات والحروب التي فرضها على المسلمين أعداؤهم .

وعلى الرغم من أن الرسول الأكرم لم يترك لحظة من عمره الشريف دون أن يستغلها لنشر الدعوة والتعاليم الإسلامية ، والسعي لتعريف الإسلام الفتى بجميع أبعاده . ولكن الذي لا شك فيه أن تحليل كثير من المسائل الإسلامية كان يتطلب إلى زمان أطول ، فكان لا بد لشخص مثل النبي (ص) ان يضطلع بهذه المهمة بعده .

وفضلاً عن ذلك ، فإن التنبؤ بمستقبل الأُمَّة ، وإعداد المقدمات للاستمرار في إدامة مدرسة الإسلام ، كان من أهم الأُمور التي لا بد أن يفكر فيها كل قائد . ولا يمكن أبداً أن يسمح لهذه المسألة الأساس أن يلفها النسيان .

وإذا تجاوزنا عن كل ذلك ، نلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان أحياناً يصدر تعليمات خاصة في كثير من الأُمور البسيطة العادية في الحياة اليومية ، فكيف يمكن أن يهمل قضية

مهمة كقضية الخلافة والزعامة والإمامة ولا يضع لها منهاجاً خاصاً؟

كل هذه النظرات الثلاث دليل واضح على أن النبي الكريم لا يمكن أن يهمل تعيين الخليفة من بعده .. ولسوف نذكر ان شاء الله روايات إسلامية مؤكدة تلقي مزيداً من الضوء على هذا الموضوع، وتثبت أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يغفل طوال حياته عن هذه المسألة المصيرية ، على الرغم من المساعي السياسية التي جرت بعد الرسول كي تدخل في أذهان الناس أن رسول الله لم يعين خليفة بعده .

أيصدق أحد أن رسول الله (ص) لم يترك المدينة لبضعة أيام (مثل ذهابه إلى غزوة تبوك) إلَّا بعد أن عيّن من يقوم مقامه فيها ، ولكنه لا يعين أحداً ليخلفه بعد مغادرة الدنيا نهائياً ، بل يترك الأُمَّة نهب الاختلافات والاضطرابات والحيرة ، دون أن يضمن للإسلام استمراريته على يد هاد ومرشد يعتمده؟

لا يشك أحد أن عدم تعيين خليفة ينطوي على أخطار كبيرة على الإسلام اليافع ، ان العقل والمنطق يحكمان بأن أمراً كهذا يستحيل صدوره من نبي الإسلام .

إن الذين يقولون انه عهد بذلك إلى الأُمَّة عليهم ان يبينوا أدلتهم ويثبتوا أن رسول الله (ص) قد صرَّح بذلك علانية ، ولكن ليس ثمة دليل من هذا القبيل .

٣ ـ الاجتماع والشورى :

لنفرض أن رسول الإسلام أغمض عينيه عن هذا الأمر

الحيوي ، وأن المسلمين هم المطلوب منهم ان يختاروا خليفة رسول الله عن طريق الاجماع. ولكننا نعلم أن «الاجماع» يعني اتفاق المسلمين ، ولكننا نعلم أيضاً أن اجماعاً كهذا لم يحصل عند انتخاب الخليفة الأول، إلاَّ اللهم ما حصل عند اجتماع عدد من الصحابة الذين كانوا في المدينة ، حيث قرروا قرارهم ، مع أن سائر المسلمين في سائر بلاد الإسلام لم يشاركوا مطلقاً في هذا الاجتماع ولا في الإدلاء بآرائهم ، بل إن في المدينة نفسها كان كثيرون ، كالإمام علي عليه السلام وبني هاشم ، لم يحضروا ذلك الاجتماع وعليه ، فإن إجماعاً كهذا لا يمكن قبوله .

ثم إذا كان هذا الأُسلوب هو الصحيح الذي يجب اتباعه ، فلماذا لم يتبعه الخليفة الأول في انتخاب خليفته ؟ لماذا عين بنفسه خليفته؟ فإذا كان يجوز للفرد أن يعين خليفة ، فقد كان النبي أولى اذن بذلك من أي فرد آخر، وإذا كانت البيعة العامة التي تلي الانتخاب تحل المشكلة ، فإن ذلك وارد أيضاً بالنسبة للنبي ، وعلى وجه أفضل .

ثم فضلاً عن ذلك تبرز المشكلة الثالثة بالنسبة للخليفة الثالث ، وهي لماذا خالف الخليفة الثاني الأُسلوب الذي اتبعه الخليفة الأول في انتخاب الخليفة الثاني نفسه ، وكسر السنّة التي أتت به إلى الخلافة ، أي انه لم يلتزم الاجماع ولا التعيين الفردي ، بل جاء بمجلس الشورى ليقوم بذلك؟

إذا كانت «الشورى» صحيحة ، فلماذا تقصر على أشخاص ستة يعينهم ، وان يكتفي برأي ثلاثة من ستة؟

هذه أسئلة لا بد أن تخطر ببال كل باحث ومحقق يتعامل مع التاريخ الإسلامي ، وبقاؤها دون جواب يدل على أن تلك الأساليب لم تكن هي الطريق الأمثل لنصب الإمام .

٤ ـ الإمام علي (ع) أليق الجميع :

لنفرض أن نبي الإسلام لم يعين أحداً يخلفه من بعده ، ولنفرض أن اختيار الخليفة كان على عاتق الأُمَّة ، فهل يجوز عند الانتخاب أن نتجاوز الأعلم والأتقى والأكثر تميزاً عن الآخرين من جميع الوجوه ، لنبحث عن الخليفة بين من هم يأتون بعده في المرتبة؟

لقد صرَّح كثير من علماء المسلمين ، بما فيهم علماء أهل السنة ، بأن علياً كان أعلم الناس بالدين الإسلامي ، كما أن آثاره الباقية منه تؤكد هذا القول. يقول التاريخ انه كان ملجأ الأُمَّة في كل مشكلة علمية ، وان الخلفاء كانوا يرجعون إليه إذا ما واجهتهم معضلة دينية معقّدة .

وكان في الشجاعة والجرأة والتقوى والزهد والصفات البارزة الأُخرىٰ أسمى منزلة من غيره . وعليه ، إذا فرضنا أن انتخاب الخليفة كان موكولاً إلى الناس أنفسهم ، فإن علياً كان أليق الموجودين وأجدرهم بالخلافة (هنالك بالطبع الكثير من الأدلة والأسانيد الأُخرىٰ الواسعة بهذا الشأن مما لا مجال لذكرها في هذا الموجز) .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ لماذا ليس للناس أن يختاروا الإمام وخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ .

٢ ـ هل يقول العقل والمنطق أن النبي الكريم قد عيّن خليفته من بعده أم لا؟

٣ ـ كيف تم اختيار الخلفاء الثلاثة الأول؟

٤ ـ هل كانت أساليب انتخابهم مطابقة للموازين العلمية الإسلامية؟

٥ ـ كيف كان علي (ع) أليق الجميع للخلافة؟

* * *

الدرس الخامس

القرآن والإمامة

القرآن هذا الكتاب السماوي ، خير مرشد وهاد في كل أمر ، وفي الإمامة أيضاً ، فهو يبحثها من مختلف الجوانب :

١ ـ القرآن يرى الإمامة اختياراً إلهياً :

سبق أن قرأنا حكاية النبي إبراهيم (ع) محطم الأصنام في البحوث السابقة وعرفنا أن القرآن يعتبر أن مقام الإمامة والقيادة لا ينالها إبراهيم (ع) إلاَّ بعد نيله مرتبة النبوة والرسالة وأداء امتحانات كبرى ، ففي الآية ١٢٤ من سورة البقرة يقول :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ .

هنالك قرائن قرآنية وتاريخية مختلفة تؤكد أنه نال مرتبة الإمامة بعد أن حارب عبدة الأصنام في بابل ، وبعد هجرته إلى الشام ، وبنائه الكعبة ، وأخذ ابنه اسماعيل ليذبحه قرباناً لله .

فـإذا كانت النبـوة والـرسـالـة من جـانب الله ، فمن الأولى أن يكـون تعيين مقام الإمـامة ـ الـذي يعتبر أعلى مـراحل التكـامل في قيـادة الأُمَّة ـ من جـانب الله أيضاً فهـو ليس من الأُمـور التي يمكن أن يـوكل تنفيـذهـا إلى النـاس . ولـذلـك فـإن الله يقـول مخـاطبـاً إبراهيم :

﴿ إنِّي جَاعلك للنَّاس إماماً ﴾ .

كـذلـك يقـول القـرآن في الآيــة ٧٣ من سـورة الأنبيــاء وهـو يتحـدث عن جمع من الأنبيـاء العـظام : إبـراهيم ولـوط وإسحـاق ويعقوب :

﴿ وَجَعَلْنَاهُم أَئِمَّة يَهدُون بِأَمْرِنا ﴾ .

وفي القـرآن آيات أُخـرىٰ شبيهة بهـذه تدل كلهـا على أن هـذا المنصب إلَهي وان الله هو الذي يعين من يشاء لهذا المقام .

كما أننا في الآية نفسها التي ينال فيها إبـراهيم مقام الإمـامة ، نقـرأ أن إبـراهيم طلب هـذا المنصب لـذريتـه ، ولكن جـواب الله كان ﴿ لَا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِين ﴾ أي ان طلبـك قد أُجيب إلاَّ فيمـا يخص الـظالمين من ذريتـك ، فـإنهم لن يصلوا إلى هـذا المقــام الرفيع .

فإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن تعبير «ظـالم» في اللغة عمـوماً وفي لغة القرآن يشمـل مساحـة واسعة من المعـاني ، بما فيهـا الذنـوب كالشرك الظاهر والخفي وكـل ظلم للنفس وللآخـرين ، وإذا أخذنـا أيضـاً بنظر الاعتبـار أن معرفـة هذه الحـالات معرفـة تامّـة لا تتـأتى لأحـد سوى الله ، لأنـه هو وحـده العالم ببـواطن الناس ونيـاتهم ،

الله .

٢ ـ التبليغ :

نقرأ في الآية ٦٧ من سورة المائدة ما يلي :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

تدل لهجة هذه الآية على أن الكلام يدور على مهمة خطيرة موضوعة على عاتق رسول الله صلى الله عليه وآله ، وانها مهمة تثير ما يقلق البال ، وقد تواجه معارضة بعض الناس ، ولذلك تطمئن الآية خاطر الرسول بقولها : **﴿ والله يعصمك من النّاس ﴾** مع التوكيد على ضرورة أداء المهمة .

لا شك أن هذه المسألة المهمة لم تكن تتعلق بقضايا التوحيد والشرك ومحاربة الأعداء من اليهود والمنافقين وغير ذلك ، لأن هذه المسائل كانت كلها قد حلّت قبل نزول هذه الآية من سورة المائدة .

ثم إن إبلاغ أحكام الإسلام للناس لم يكن يوماً مصحوباً بمثل هذا القلق والتوجس ، بينما يتبيّن من الآية أن المهمة كانت على قدر من الأهمية بحيث انها لا تقل وزناً عن أداء الرسالة برمتها ، بحيث لو انه لم يؤد تلك المهمة لكان كأنه لم يؤد الرسالة نفسها . فهل هناك ما يمكن أن تكون له مثل هذه الأهمية

سوى مسألة تعيين خليفة رسول الله؟ خاصة وان الآية قد نزلت في أواخر عمر النبي ، أي في الوقت المناسب لتعيين من يخلف النبي من بعده ، للاطمئنان على استمرار النبوة والرسالة .

ثم إن هناك روايات كثيرة عن فريق كبير من أصحاب رسول الله (ص) ، منهم «زيد بن أرقم» و «أبو سعيد الخدري» و «ابن عباس» و «جابر بن عبدالله الأنصاري» و «أبو هريرة» و «حذيفة» و «ابن مسعود» ، وبعض هذه الروايات قد وصل إلينا عن أحد عشر طريقاً ، نقلها كثير من علماء أهل السنة من المفسرين والمحدثين والمؤرخين ، وكلها تقول ان هذه الآية نزلت بحق علي (ع) يوم الغدير[1] .

وسوف نشرح حكاية «الغدير» إن شاء الله في بحث الروايات والسنة ، إلّا اننا هنا نكتفي بالقول بأن هذه الآية تكشف عن أن النبي كان قد أمره الله ، أثناء عودته من حجة الوداع ، أي آخر حجة له في عمره ، ان يعلن عن تنصيب علي (ع) خليفة له من بعده بصورة رسمية وعلى ملأ من المسلمين .

٣ ـ آية إطاعة أولي الأمر :

في الآية ٥٩ من سورة النساء نقرأ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ . . . ﴾ .

(١) انظر في ذلك «إحقاق الحق» و «الغدير» و «المراجعات» و «دلائل الصدق» .

هنا نلاحظ إن إطاعة أولي الأمر قد جاءت إلى جانب إطاعة الله ورسوله بدون أي قيد أو شرط. فهل المقصود من أولي الأمر هم الحكام في كل عصر وفي كل محيط؟ فمثلاً هل على المسلمين في هذا العصر وفي مختلف البلدان أن يطيعوا حكامهم بدون قيد ولا شرط؟ (كما يقول بعض مفسري أهل السنة).

إن هذا التفسير لا ينسجم مع أي منطق ، إذ إن أكثر الحكام في مختلف العصور كانوا حكاماً منحرفين ، ملوثين بالإثم ويتبعون الظلم والظالمين .

فهل المقصود إذن إطاعة الحكام على شرط أن لا يكون حكمهم مخالفاً لأحكام الإسلام؟ هذا أيضاً لا يأتلف مع إطلاق الآية .

فهل المقصود هم صحابة الرسول (ص)؟ هذا المفهوم أيضاً لا يتلاءم مع المفهوم العام الواسع الذي تنطوي عليه الآية والخاص بمختلف العصور .

بناء على ذلك يتبيّن لنا بوضوح أن المقصود هو القائد المعصوم الموجود في كل عصر وزمان ، فهو الذي تجب إطاعته بدون قيد ولا شرط ، وأمره كأمر الله ورسوله ، واجب التنفيذ .

إن الأحاديث الكثيرة الواصلة إلينا من مصادر إسلامية متعددة بهذا الشأن والتي تفسر « أولي الأمر » بالإمام علي (ع) والأئمة المعصومين ، دليل آخر يؤيد هذا الادعاء[1] .

(٤) لمزيد من الإيضاح انظر «تفسير نمونة» ج ٣ ص ٤٣٥ . .

٤ ـ آية الولاية :

نقرأ في الآية ٥٥ من سورة المائدة :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ .

باستعمال « إنما » الدالة على الحصر ، يحصر القرآن ولاية المسلمين ورعايتهم بثلاثة : الله ، والرسول ، والذين آمنوا ويعطون الزكاة أثناء ركوعهم .

لا شك أولاً أن « الولاية » هنا لا تعني المحبة بين المسلمين ، لأن تبادل المحبة بين عامة المسلمين لا يستوجب هذه القيود والشروط ، فالمسلمون أخوة يحب بعضهم بعضاً ، وإن لم يدفعوا زكاة أثناء الركوع ، وبناء على ذلك ، فالولاية هنا تعني القيادة والإمامة المادية والمعنوية ، خاصة انها جاءت في مصاف « ولاية الله » و « ولاية الرسول » .

كما انه من الواضح أيضاً أن هذه الآية ، بالأوصاف التي وردت فيها ، تشير إلى شخص معيّن بذاته ، وهو الذي كان راكعاً عندما أعطى الزكاة ، وإلاّ فليس هناك ما يدعو الإنسان إلى أن يعطي زكاته عندما يصلي وعند الركوع من صلاته . وهذا في الواقع علاقة ، وليس صفة عامة .

مجموع هذه القرائن يدل على أن هذه الآية إشارة عميقة المعنى إلى حكاية علي (ع) ، وهي انه فيما كان راكعاً في

صلاته سمع فقيراً يطلب الصدقة من المصلين ، إلّا أن أحداً لم يسعفه بشيء ، فمد الاصبع الصغير من يده اليمنى ، أثناء ركوعه ، إلى ذلك الفقير مشيراً إليه أن يأخذ خاتماً ثميناً كان يلبسه في إصبعه ، فأخذه الفقير وانصرف ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله قد لحظ ما جرى بجانب عينه ، وعند انتهاء الصلاة رفع رأسه إلى السماء وقال :

« اللهم إن أخي موسى سألك فقال : رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري ، فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً : سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكم . اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك اللهم فاشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أشدد به ظهري . . . » .

لم يكد رسول الله (ص) ينتهي من دعائه حتى نزل جبرئيل بالآية المذكورة .

وانه لمما يلفت النظر أن كثيرين من كبار مفسري أهل السنة ومحدثيهم ومؤرخيهم يؤيدون كون الآية قد نزلت في علي (ع) . وهناك جماعة من أصحاب رسول الله (ص) في نحو عشرة أشخاص نقلوا هذا الحديث عن رسول الله (ص) مباشرة .

إن الآيات النازلة في الولاية كثيرة ، اكتفينا بإيراد أربع منها في هذا الدرس .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ من الذي له أن يعيّن الإمام وينصبه ، في نظر القرآن؟ .

٢ ـ ما هي الظروف التي أحاطت بنزول آية التبليغ، وما محتواها؟ .

٣ ـ من هم الذين يكون من المعقول ان نطيعهم بدون قيد ولا شرط؟

٤ ـ كيف نستدل من آية « إنّما وليكم الله » انها تشير إلى القيادة والإمامة؟

٥ ـ ما الذي يمكن أن نستنتجه من مجموع الآيات الخاصة بالولاية؟

الدرس السادس

الإمامة في السنة

عند مطالعة الكتب الخاصة بالأحاديث الإسلامية ، وعلى الأخص كتب المصادر عند اخواننا أهل السنة ، يواجه المرء حشداً كبيراً من الأحاديث النبوية التي تثبت امامة علي (ع) وخلافته بوضوح لا مزيد عليه .

وإن المرء ليأخذه العجب من أنه مع كثرة هذه الأحاديث التي لا تدع مجالاً للشك في المسألة ، كيف حاول بعضهم أن يختار طريقاً غير طريق أهل البيت!

إن هذه الأحاديث التي تؤكد بعضها مئات الأسانيد (مثل حديث الغدير) ويؤكد بعضها الآخر عشرات الأسانيد ، وهي واردة في عشرات الكتب الإسلامية المشهورة ، من الوضوح بحيث اننا لو تغاضينا عن أقاويل هذا وذاك ، وأهملنا التقاليد ، تكون القضية على درجة من الجلاء لا نحتاج معها إلى أي دليل آخر .

إننا نذكر فيما يلي نماذج لعدد من الأحاديث المعروفة من

بين الوافر الكثير منها ، طالبين من الذين يريدون الاطلاع أكثر على هذا الموضوع أن يرجعوا إلى المصادر التي سنذكرها لهم[1] .

حديث الغدير :

يقول الكثير من المؤرخين إن رسول الله صلى الله عليه وآله أدى فريضة الحج في آخر سنة من سنوات عمره الشريف . وبعد الانتهاء من الحج ، رجع ومعه جماعات غفيرة من أصحابه القدامى والجدد والمسلمين المولعين به الذين كانوا قد اجتمعوا من مختلف نقاط الحجاز ليلحقوا برسول الله (ص) في أداء فريضة الحج . وعند وصولهم إلى مكان بين مكة والمدينة اسمه (الجحفة) ، تقدمهم نحو (غدير خم) حيث كانت الطريق تتفرق ، فيتفرق عندها الناس كل إلى وجهته .

ولكن قبل أن يتفرق الناس من هناك إلى انحاء الحجاز ، أمر الرسول الناس بالتوقف ودعا الذين سبقوه إلى الرجوع ، وانتظر حتى لحق به الذين كانوا في الخلف . كان الجو حاراً جداً ومحرقاً ، ولم يكن في تلك الصحراء المترامية ما يستظل به . أدى المسلمون صلاة الظهر مع رسول الله (ص) . وعندما أراد الناس الانصراف إلى خيامهم فراراً من حرارة الجو ، أخبر النبي (ص) إن عليهم أن يستمعوا إلى بلاغ مهم جديد من جانب الله في إحدى خطبه المسهبة .

أقيم لرسول الله منبر من أحداج الإبل ، فارتقاه ، وبعد أن

(١) لمزيد من الشرح راجع كتاب «المراجعات» و « الغدير» .

حمد الله وأثنى عليه ، وقال من جملة ما قال :

« . . . أما بعد أيها الناس اسمعوا مني أبيّن لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا . أنا مسؤول وأنتم مسؤولون . ترى كيف تشهدون لي؟

فرفع الناس أصواتهم قائلين :

نشهد أنك قد بلغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً .

فقال النبي صلى الله عليه وآله :

أتشهدون بأن لا إلَه إلاَّ الله، وأن محمداً رسول الله ، وأن الله سيبعث من في القبور يوم القيامة؟

فقال جميعاً : **نعم نشهد بذلك.**

فقال : اللهم اشهد! ثم سألهم : أيها الناس ، أتسمعون صوتي؟ قالوا : نعم .

وساد الجمع صمت لم يسمع خلاله شيء سوى صوت هبوب الريح وأخيراً قال النبي صلى الله عليه وآله :

أنبئوني ما تفعلون بعدي بهذين الثقلين العظيمين اللذين سأتركهما بين ظهرانيكم؟

فقال رجل من بين الجمع وقال :

أي ثقلين تعني يا رسول الله؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله :

الثقل الأول هو الثقل الأكبر ، كتاب الله ، القرآن ، ما ان

أخذتم به لن تضلوا . والثقل الثاني هو عترتي ، آل بيتي . ولقد أخبرني اللطيف الخبير بأنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض ، إن سبقتموهما هلكتم ، وإن تخلفتم عنهما هلكتم .

ثم نظر النبي صلى الله عليه وآله إلى أطرافه كأنه يبحث عن شخص ، فلما وقع بصره على علي عليه السلام انحنى وأمسك بيده ورفعها حتى بان بياض إبطيهما ، فرآه الناس وعرفوه .

وارتفع صوت النبي صلى الله عليه وآله وهو يقول : أيها الناس ، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ .

فقالوا : الله ورسوله أعلم .

فقال : **إن الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، أولى بهم من أنفسهم . فمن كنت مولاه فعلي مولاه .**

وكرر هذا القول ثلاث مرات . وقال بعض الرواة أنه كرره أربع مرات ثم رفع رأسه الشريف إلى السماء وقال :

اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وأحب من أحبه ، وأبغض من أبغضه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار .

ثم قال : ألا هل بلّغت؟

قالوا : نعم .

قل : فليبلغ الشاهد الغائب .

وقبل ان يتفرق الجمع نزل جبرئيل الأمين بالآية التالية على رسول الله صلى الله عليه وآله :

﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي. . .** ﴾

فقال النبي صلى الله عليه وآله :

الله أكبر ، الله أكبر ، على إكمال الدين ، وإتمام النعمة ، ورضى الرب برسالتي والولاية لعلي من بعدي .

فحصل هرج ومرج بين الناس وراحوا يتزاحمون لتهنئة علي عليه السلام بالولاية . وكان منهم أبو بكر وعمر ، اللذان تقدما إلى علي عليه السلام يقولان : بخ بخ لك يا ابن أبي طالب ، أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة!

هذا الحديث أورده عدد كبير من علماء الإسلام في كتبهم ، بعض بصورة مسهبة وبعض باختصار شديد ، وبشيء من الاختلاف في بعض الألفاظ . ويعتبر من الأحاديث المتواترة التي لا يمكن لأحد أن يشك في صدوره عن رسول الله (ص) ، إلى درجة أن العلامة (الأميني) في كتابه «الغدير» يذكر اسم مئة وعشرة من أصحاب رسول الله (ص) ممن ذكروا هذا الحديث ، وثلاثمائة وستين عالماً وكتاباً ورد فيه هذا الحديث أيضاً ، ومنها كتب الاخوة أهل السنة في التفسير والتاريخ والحديث . بل إن جمعاً كبيراً من علماء الإسلام ألفوا الكتب الخاصة بهذا الحديث ، منها كتاب العلامة الأميني «الغدير» المتعمق والنادر المثال ، فإنه يشير فيه إلى ستة وعشرين عالماً من علماء الإسلام ممن ألفوا الكتب الخاصة بحديث الغدير .

ولقد سعى بعض ممن لم يستطيعوا بث الشكوك حول صحة أسانيد هذا الحديث ، إلى إلقاء الشكوك في دلالته على الإمامة

والخلافة ، واعتبار كلمة «مولى» تعني «الصديق» مع إن التدقيق في مضمون الحديث والظروف الزمانية والمكانية التي أحاطت بالحديث وقرائن أخرىٰ تدل بحق على أن الهدف لم يكن سوى الإمامة والولاية التي تعني القيادة بكل ما فيها من معان :

أ ـ إن آية التبليغ التي سبق أن ذكرناها ، والتي نزلت قبل حادثة الغدير ، تدل بلهجتها الحادة وما فيها من القرائن على أن الكلام لم يكن بشأن الصداقة العادية ، إذ ان هذا لم يكن مما يستوجب كل تلك الأهمية والتوكيد . كما أن الآية الخاصة بإكمال الدين التي نزلت بعد آية التبليغ تدل دلالة قاطعة على أن الموضوع كان على درجة عظيمة من الأهمية ، كموضوع القيادة والخلافة بعد رسول الله (ص) .

ب ـ الطريقة التي وصفت بها الحديث ، بكل ظروفه والصحراء المحرقة التي ألقيت فيها تلك الخطبة المسهبة ، وأخذ الإقرار من الناس في ذلك الجو وذلك المكان ، كلها تدل على صحة ما نذهب إليه .

ج ـ التهاني والتبريكات التي قدمت لعلي (ع) من جانب مختلف طبقات الحاضرين ، والقصائد الشعرية التي قيلت بالمناسبة في ذلك اليوم وبعده ، تدل على أن الحدث واقعي وانه يخص تنصيب علي (ع) في مقام الولاية والإمامة ، ولا شيء غير ذلك .

* * *

فكّر وأجب

١ ــ اشرح حكاية الغدير.

٢ ــ كم عدد أسانيد حديث الغدير عن رسول الله (ص) وفي كم كتاباً من الكتب الإسلامية المشهورة ورد هذا الحديث؟

٣ ــ لماذا لفظة «المولى» في حديث الغدير تعني القيادة والإمامة، لا الصداقة؟.

٤ ــ ما الدعاء الذي دعا به رسول الله (ص) بحق علي (ع) بعد حادثة الغدير؟

٥ ــ أين تقع «الجحفة» و«الغدير»؟

* * *

الدرس السابع

حديث «المنزلة» وحديث «يوم الدار»

يـورد كثيـر من كبـار مفسـري أهــل السنـة والشيعــة حـديث «المنزلة» عنـد تفسير الآيـة ١٤٢ من سورة الأعـراف ، والتي تتعلق بذهاب موسى (ع) أربعين ليلة إلى ميعاد الله وخلافة هارون له .

مضمون الحديث كما يلي :

تحرك رسول الله (ص) نحو تبوك (وهي تقـع في شمال جـزيرة العرب وتحادد امبـراطوريـة الروم). كـان النبي (ص) قد أخبـر بأن امبراطور الـروم قد جـاء بجيش عظيم يـريد بـه أن يهاجم الحجـاز ومكـة والمدينـة ، لكي يخنق الثورة الإسـلامية في مهـدها قبـل أن يصـل برنـامجها الإنسـاني والتحرري إلى تلك المنـطقة . فتحـرك النبي (ص) إلى تبـوك ، تاركـاً علياً بمكـانـه فقـال علي : اتتـركني بين النساء والأطفال ، ولا تسمح لي بالاشتراك في الجهاد معك؟

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله :

« ألا ترضى أن تكون مني بمنـزلة هـارون من موسى؟ إلَّا انـه لا نبي بعدي » .

هذه العبارة مذكورة في أشهر كتب الحديث عند أهل السنة ، مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم ، إنما الاختلاف بينهما هو أن صحيح البخاري يورد الحديث كله، بينما صحيح مسلم يورد الحديث كله مرة، ويورد عبارة «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ انه لا نبي بعدي» مرة أُخرىٰ ، كتعبير عام وكلي[1] .

كما جاء هذا الحديث في عدد كبير من كتب أهل السنة ، منها «سنن ابن ماجه» و«سنن الترمذي» و«مسند أحمد» وغيرها . والذين يروون الحديث عن الصحابة يزيد عددهم على العشرين ، منهم (جابر بن عبدالله الأنصاري) و (أبو سعيد الخدري) و (عبدالله بن مسعود) و (معاوية) .

ينقل (أبو بكر البغدادي) صاحب « تاريخ بغداد » عن « عمر بن الخطاب » : انه رأى رجلاً يشتم علياً (ع) ، فقال له عمر : لا أراك إلاّ من المنافقين ، فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول :

« إنّما علي مني بمنزلة هارون من موسى، إلاّ إنه لا نبي بعدي »[1] .

ومما يستلفت النظر في أشهر كتب الحديث المعتبرة أن هذا الكلام لم يقله رسول الله (ص) بمناسبة غزوة (بتوك) فقط ، بل انه كرره سبع مرات في سبع مناسبات مختلفة ، مما يدل على

(١) «صحيح البخاري » ، ج٦ ص ٣ وصحيح مسلم، ج١ ص ٤٤ وج ٤ ص ١٨٧ .

(١) «تاريخ بغداد» ج ٧ ص ٤٥٢ .

مفهومه العام ومن تلك المناسبات :

١ ـ « يوم المؤاخاة » الأولى في مكة ، أي في اليوم الذي عقد فيه عهد الأخوة بين أصحابه ، واختار علياً (ع) لاخوّته ، وذكر هذه العبارة نفسها .

٢ ـ «يوم المؤاخاة » الثانية بين المهاجرين والأنصار بالمدينة ، إذ تكررت الحالة وكرر رسول الله (ص) تلك العبارة .

٣ ـ في اليوم الذي أمر فيه رسول الله (ص) بغلق أبواب البيوت التي كانت تفتح على مسجد الرسول ، واستثنى باب بيت علي (ع) ، مكرراً هذه العبارة نفسها .

٤ ـ في غزوة تبوك ، كما سبق .

وفي ثلاث مناسبات أخرى تذكرها كتب أهل السنة أيضاً . وبناء على ذلك ، لا يبقى مجال للشك في صحة ورود حديث المنزلة لا في أسانيده ، ولا في مفهومه العام .

محتوى حديث المنزلة :

إذا نظرنا إلى الحديث المذكور نظرة عابرة ، وأغفلنا أحكامنا السابقة ، أمكننا أن نستنتج أن جميع المناصب التي كانت لهارون في بني إسرائيل من جانب موسى ، باستثناء النبوة ، كان لعلي (ع) مثلها ، وذلك لأنه ليس في الحديث أي قيد ولا أي شرط .

وعليه يمكن أن نصل إلى النتائج التالية :

١ ـ كان علي (ع) الأفضل في الأُمّة بعد رسول الله (ص) ، بمثلما كان هارون في بني إسرائيل .

٢ ــ كان علي (ع) وزير رسـول الله (ص) ومعاونـه الخاص ، وشـريكـه في قيـادتـه الأمَّـة ، إذ ان القـرآن أثبت هــذه المنـاصب لهارون (سورة طٰه ، الآيات ٢٩ ـ ٣٢) .

٣ ــ كان علي (ع) خليفة رسـول الله (ص) حتى في حياتـه ، ولم يكن أي شخص آخـر قـادراً على الاضــطلاع بتلك المهمـة ، وهكذا كان مقام هارون بالنسبة لموسى .

حديث يوم الدار :

جـاء في كتب التاريـخ الإسلامي ان رسـول الله (ص) قد أمـر بـإعلان دعـوته السـرية في السنـة الثالثـة من البعثة ، كمـا جاء في الآية ٢١٤ من سورة الشعراء :

﴿ وَأَنْذِر عَشِيرتك الأقربين ﴾ .

فدعا الرسول (ص) أقـرباءه إلى بيت عمـه أبي طالب . وبعـد تناول الطعام ، قال :

« يـا بني عبدالمـطلب إني أنا النـذيـر إليكم من الله عـز وجـل والبشيـر فـاسلمـوا وأطيعـوني تهتــدوا » . ثم قـال : « من يؤاخيني ويؤازرني ويكـون وليـي ووصيـي بعدي وخليفتي في أهلي ويقضي ديني؟» فسكت القوم ، فأعـادها ثـلاثاً . كـل ذلك يسكت القـوم ، ويقول علي : أنا . فقـال في المرة الثـالثة : « أنت » . فقـام القوم وهم يقولون لأبي طـالب : أطع ابنـك فقد أمـر عليك . وروي عن أبي رافـع : انه جمعهم في الشعب فصنـع لهم رجـل شـاة فـأكلوا حتى تضلعــوا (أي شبعـوا) وسقــاهم عسلاً فشـربـوا كلهم حتى

رووا . ثم قال : إن الله أمرني أن أنذر عشيرتك الأقربين وأنتم عشيرتي ورهطي وان الله لم يبعث نبياً إلاّ جعل له من أهله أخاً ووزيراً ووارثاً ووصياً وخليفة في أهله ، فأيكم يقوم فيبايعني على انه أخي ووارثي ووزيري ووصيي ويكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ انه لا نبي بعدي؟ فسكت القوم . فقال : ليقومن قائمكم أو ليكونن من غيركم ثم لتندمن . ثم أعاد الكلام ثلاث مرات . فقام علي (ع) فبايعه فأجابه ، ثم قال : ادن مني . فدنا منه ففتح فاه ومج في فيه من ريقه وتفل بين كتفيه وثدييه ، فقال أبو لهب : بئس ما جبوت به ابن عمك ان اجابك فملأت فاه ووجهه بزاقاً . فقال النبي (ص) ملأته حكماً وعلماً » .

هذا الحديث يعرف باسم «حديث الدار»، وهو واضح في دلالته بما يكفي . أما من حيث أسانيد الحديث ، فقد ذكره كثيرون من علماء أهل السنة ، مثل «ابن أبي جرير» و«ابن أبي حاتم» و«ابن مردويه» و«أبي نعيم» و«البيهقي» و«الثعلبي» و«الطبري» و«ابن الأثير» و«أبي الفداء» وغيرهم[1] .

ولو اننا نظرنا إلى هذا الحديث نظرة عابرة أيضاً لتبينت لنا حقائق ولاية علي (ع) وخلافته ، لأنه صريح في هذا الموضوع .

* * *

(١) لمزيد من الاطلاع راجع «المراجعات» ص ١٣٠ وما بعدها ، و « إحقاق الحق » ج ٤ ، ص ٦٢ وما بعدها .

فكّر وأجب

١ ــ ما «حديث المنزلة»، وكم مرة قيل؟

٢ ــ ما المقامات التي يثبتها حديث المنزلة للإمام علي (ع)؟

٣ ــ ما المنزلة التي كانت لهارون بالنسبة لموسى ، بموجب القرآن؟ .

٤ ــ مَنْ مِنَ العلماء نقلوا حديث المنزلة؟ .

٥ ــ أعد ذكر حديث يوم الدار ومحتواه وسنده والنتائج المستنتجة منه .

الدرس الثامن

حديث الثقلين وسفينة نوح

اسناد حديث الثقلين :

من الأحـاديث المشهورة والمعـروفة بين علمـاء السنة والشيعـة هو «حديث الثقلين» .

هـذا الحـديث ينقله عـدد كبيـر من الصحـابـة عن رسـول الله (ص) مباشرة ، ويقول بعض كبار العلمـاء ان رواة هذا الحـديث لا يقلون عن ثلاثين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله[1] .

كمـا أورده عـدد كبيـر من المفسـرين والمحـدثين في كتبهم ، بحيث لا يمكن الشك في كونه من الأحاديث المتواترة .

يشيـر العالم الكبيـر السيد هـاشم البحراني في كتـابـه «غـايـة المـرام» إلى هذا الحـديث ويسنده إلى ٣٩ سنـداً من علمـاء أهـل

(١) «السيرة الحلبية» ج ٣٣ ص ٣٠٨ .

السنة ، و٨٠ سنداً من علماء الشيعة . أما (ميرحامد حسين) العالم الهندي الكبير ، فقد تعمّق في تتبع هذا الحديث ، فوجده مذكوراً عند مئتي عالم من علماء أهل السنة ، وقد جمع بحوثه حول هذا الحديث في ستة مجلدات ضخام!

ومن بين الصحابة المشهورين الذين ذكروا هذا الحديث : «أبو سعيد الخدري» و«أبو ذر الغفاري» و«زيد بن أرقم» و«زيد بن ثابت» و«أبو رافع» و«جبير بن مطعم» و«حذيفة» و«ضمرة الأسلمي» و«جابر بن عبدالله الأنصاري» و«أم سلمة» وغيرهم .

أصل الحديث ، كما يرويه أبو ذر الغفاري ، كما يلي :

« لما صدر النبي (ص) من حجة الوداع قال على المنبر : يا أيُّها الناس إني مسؤول وإنكم مسؤولون . . . إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[1] .

هذا الحديث روته مصادر أهل السنة المعتبرة ، مثل «صحيح الترمذي» و«النسائي» و«مسند أحمد» و«كنز العمال» و«مستدرك الحاكم» وغيرهم .

جاء في بعض الروايات تعبير «الثقلين» وجاء في روايات أخرى تعبير «الخليفتين» ، وليس بين هذين من حيث المفهوم فرق كبيرة .

واللافت للنظر في هذا ان الكثير من الأحاديث الإسلامية

(١) نقلاً عن «ينابيع المودة» ص ٣٧ ، المنقول من جامع الترمذي .

المختلفة تقول ان رسول الله (ص) قد كرر هذا الكلام على الناس مرات عديدة :

ففي رواية «جابر بن عبدالله الأنصاري» تقرأ ان رسول الله (ص) قاله في يوم عرفة من أيام الحج .

والراوي «عبدالله بن حنطب» يقول انه قاله في «الجحفة» وهو مكان بين مكة والمدينة حيث يحرم الحجاج منه .

وتقول (أم سلمة) إنه قاله في غدير خم .

وجاء في روايات أخرى إنه قاله في أواخر أيامه المباركة وهو على فراش المرض .

وفي رواية أخرى إنه قاله من على المنبر في المدينة[١] .

ونقرأ في «الصواعق المحرقة» للعالم السني الكبير» ابن حجر» : إن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم أخذ بيد علي ورفعها وقال :

« علي مع القرآن والقرآن مع علي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض »[٢] .

وهكذا يتبيّن ان رسول الله (ص) قد أكّد هذا المفهوم مرات عديدة باعتباره مبدأ أساساً ، إذ كان ينتهز كل فرصة مؤاتية لبيان هذه الحقيقة المصيرية البناءة لكيلا يطويها النسيان .

(١) «المراجعات» ص ٤٢ .

(١٢) « الصواعق المحرقة » ص ٧٥.

محتوى حديث الثقلين :

هنا لا بد من ملاحظة عدة نقاط :

١ ــ الإشارة إلى القرآن والعترة كثقلين أو كخليفتين ، تدل على أن على المسلمين أن يظلوا متمسكين بهما دائماً ، وخاصة إذا أخذنا بنظر الاعتبار ما جاء في الحديث الشريف :

نص الحديث : **ما ان تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدي أبداً** . فإن الأمر يزداد توكيداً وثبوتاً .

٢ ــ قرن «القرآن» بـ «العترة» متجاورين دليل على أنه مثلما ان القرآن لن تناله يد التحريف أبداً ويبقى مصوناً من كل تحريف ، كذلك تكون عترة رسول الله (ص) في مقام العصمة .

٣ ــ جاء في بعض الروايات ان الله يوم القيامة يحاسب الناس على كيفية ارتباطهم بهذين التذكارين العظيمين .

٤ ــ لا شك اننا مهما يكن تفسيرنا للعترة وأهل البيت ، فإن علياً (ع) يكون من أبرز مصاديقها ، إذ ان كثيراً من الروايات تقول إنه لم يفترق عن القرآن ، ولا القرآن افترق عنه .

وهنالك روايات أُخرىٰ تقول إنه عند نزول آية المباهلة ، دعا رسول الله (ص) علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ، قائلاً : هؤلاء أهل بيتي[1] .

٥ ــ على الرغم من أن المسائل الخاصة بيوم القيامة ليست

(١) «مشكاة المصابيح» ص ٥٦٨ ط دلهي ، «الرياض النضرة» ج ٢ ص ٢٤٨ (نقلاً عن مسلم والترمذي) .

واضحة لنا نحن الذين نعيش محصورين بين جدران هذا العالم ، إلاَّ أن ما يستفاد من الروايات ينبىء بأن « حوض الكوثر » نهر خاص في الجنة ذو مميزات كثيرة ويختص بالمؤمنين الصادقين وبالرسول الكريم وأئمة أهل البيت وأتباعهم .

يتضح من كل ما قلناه ان مرجع الأُمَّة وقائدها بعد رسول الله (ص) هو علي (ع) ، والأئمة من بعده من أهل هذا البيت .

حديث سفينة نوح :

من التعبيرات اللافتة للانتباه والواردة في كتب أهل السنة والشيعة عن رسول الله (ص) هو حديث «سفينة نوح» المعروف .

في هذا الحديث يقول أبو ذر : قال رسول الله (ص) :

« **ألا إن مثل أهل بيتي فيكم مَثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق** »[٢] .

هذا الحديث من الأحاديث المشهورة التي توجب على الناس اتباع علي (ع) وأهل بيت رسول الله (ص) بعده .

فإذا عرفنا أن سفينة نوح كانت ملجأ ووسيلة النجاة من ذلك الطوفان العظيم الذي شمل العالم ، اتضحت لنا هذه الحقيقة ، وهي انه اذا هبت الأعاصير والطوفانات بعد رسول الله (ص) فما على الأُمَّة إلاَّ أن تتمسك بأذيال الولاء لأهل البيت ، إذ لا سبيل لها إلى النجاة بغيرهم .

* * *

(١) « مستدرك الحاكم » ج ٣ ص ١٥١ .

فكّر وأجب

١ ــ ما محتوى حديث الثقلين؟ وما الامتيـازات التي يمنحها لأهـل البيت عليهم السلام؟

٢ ــ من هم الذين نقلوا حديث الثقلين؟

٣ ــ ما معنى «الثقلين»؟ وهل جاء في الأحاديث تعبير غيره؟

٤ ــ ما المناسبات التي ذكر فيها رسول الله (ص) هذا الحديث؟

٥ ــ اذكر أسانيد حديث سفينة نوح ومحتواه؟ .

* * *

الدرس التاسع

الأئمة الاثنا عشر

روايات الأئمة الاثني عشر :

بعد إثبات الإمامة والخلافة المباشرة للإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) ، يأتي دور الكلام على إمامة سائر الأئمة .

إن البحث المكثف حول هذا الموضوع يكون كما يلي :

أولاً : في متناول أيدينا اليوم كتب عديدة لأهل السنة والشيعة تنقل الروايات التي تتحدث صراحة عن خلافة «الاثني عشر إماماً وخليفة بعد رسول الله (ص) » .

هذه الأحاديث مروية في أهم كتب أهل السنة ، مثل «صحيح البخاري» و«صحيح الترمذي» و«صحيح مسلم» و«صحيح أبي داود» و«مسند أحمد» وأمثالها .

في كتاب «منتخب الأثر» مئتان وواحد وسبعون حديثاً بهذا

الشأن ، معظمها منقول من كتب أهل السنة وسائر المصادر الشيعية .

وكمثال على ذلك نقرأ في «صحيح البخاري» وهو من أشهر كتب أهل السنة، ما يلي :

يقول جابر بن سمرة : سمعت رسول الله (ص) يقول «يكون اثنا عشر أميراً» ثم قال كلمة لم أسمعها . فقال أبي انه قال : « كلهم من قريش »[1] .

وقد ورد هذا الحديث في «صحيح مسلم» هكذا : قال جابر سمعت رسول الله (ص) يقول :

« **لَا يَزَالُ الاسْلامُ عَزِيزاً إلى اثنَيْ عَشَر خَلِيفَة** » .

ثم قال كلمة لم أفهمها ، فقلت لأبي : ما قال؟ فقال : كلهم من قريش»[2] .

وفي « مسند أحمد » عن عبدالله بن مسعود ، الصحابي المعروف ، انه قال : سئل رسول الله (ص) بشأن الخلفاء ، فقال :

« **اثنا عشر كعدة نقباء بني إسرائيل** »[3] .

محتوى هذه الأحاديث :

هذه الأحاديث ـ التي يرى بعضها أن (عزة الإسلام) منوطة

(١) « صحيح البخاري » ج ٩ كتاب الامام ص ١٠٠ .
(١) « صحيح مسلم » كتاب الإمارة ، باب الناس تبع قريش.
(١) « مسند أحمد » ج ١ ص ٣٩٨ .

(بالاثني عشر خليفة) ويرى بعضها الآخر أن حياة الدين وبقاءه إلى يوم القيامة موكولان بهم ، وانهم كلهم من قريش ، وفي بعضها كلهم من بني هاشم ـ لا تنطبق على أي مذهب سوى المذهب الشيعي ، وذلك لأن توجيهها بسيط وواضح بحسب معتقدات أهل التشيع ، في الوقت الذي يصل فيه علماء أهل السنة في توجيهها إلى طريق مسدود .

هل المقصود هم الخلفاء الأربعة الأول إضافة إلى خلفاء بني أمية وبني العباس؟

نحن نعلم ، بالطبع ، انه لا الخلفاء الأُوَل كانوا اثني عشر ، ولا بانضمام خلفاء بني أمية وبني العباس إليهم بلغوا هذا العدد . إن العدد اثني عشر لا ينطبق على أي منهم .

ثم إن من بني أمية خلفاء مثل «يزيد» ومن بني العباس مثل «المنصور الدوانيقي» و«هارون الرشيد»، ممن لا يشك أحد فيما ارتكبوه من جرائم وظلم وطغيان ، فلا يمكن بأي حال من الأحوال اعتبارهم خلفاء للنبي (ص) ومدعاة لعزة الإسلام ورفعته مهما تساهلنا في تبسيط الموازين .

وإذا تجاوزنا عن كل ذلك ، فإننا لن نجد العدد اثني عشر يتمثل في أي مجموعة منهم سوى في أئمة الشيعة الاثني عشر .

يحسن بنا هنا أن نترك الكلام لأحد علماء السنة المعروفين ليشرح لنا الموضوع .

يقول سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي في كتابه «ينابيع المودة» :

«قال بعض المحققين إن الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده صلى الله عليه وآله وسلّم اثني عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة فبشرح الزمان وتعريف الكون والمكان علم أن مراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم من حديثه هذا الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته وعترته إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه لقلتهم عن اثني عشر ولا يمكن أن يحمله على الملوك الأموية لزيادتهم على اثني عشر ولظلمهم الفاحش إلّا عمر بن عبدالعزيز ولكونهم من غير نبي هاشم لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلّم قال كلهم من بني هاشم في رواية عبدالملك عن جابر واخفاء صوته صلى الله عليه وآله وسلّم في هذا القول يرجح هذه الرواية لأنهم لا يحسنون خلافة بني هاشم ولا يمكن أن يحمله على الملوك العباسية لزيادتهم على العدد المذكور ولقلة رعايتهم الآية قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا لمودة في القربى وحديث الكسا فلا بد من أن يحمل هذا الحديث على الأئمة الاثني عشر من أهل بيته وعترته صلى الله عليه وآله وسلّم لأنهم كانوا أعلم أهل زمانهم وأجلهم وأورعهم وأتقاهم وأعلاهم نسباً وأفضلهم حسباً وأكرمهم عند الله وكان علومهم عن آبائهم متصلاً بجدهم صلى الله عليه وآله وسلّم وبالوراثة واللدنية كذا عرفهم أهل العلم والتحقيق وأهل الكشف والتوفيق ويؤيد هذا المعنى أي ان مراد النبي صلى الله عليه وآله وسلّم الأئمة الاثنا عشر من أهل بيته ويشهده ويرجحه حديث الثقلين والأحاديث المتكررة المذكورة في هذا الكتاب وغيرها»[1] .

(١) « ينابيع المودة » ص ٤٤٦ .

من الجدير بالذكر انني في زياراتي للحجاز وفي أحاديثي مع علمائها ، سمعت منهم تفسيراً آخر لهذا الحديث يبين كيفية وصولهم إلى طريق مسدود في هذه المسألة . قال الرجل :

« ربما يكون المقصود بالاثني عشر خليفة ، الخلفاء الأربعة الأول في صدر الإسلام ، والباقي سوف يظهرون في المستقبل » !

وعلى هذا فإنهم يغفلون التوالي بين هؤلاء الخلفاء الاثني عشر ، والمفهوم من حديث رسول الله (ص) .

إننا نقول : ما الذي يدعو إلى أن نهمل التفسير الواضح البيّن للحديث ، كالتفسير المنسجم في توالي أئمة الشيعة الاثني عشر ، ونلقي بأنفسنا في متاهات لا مخرج لها؟

تعيين الأئمة بالاسم :

مما يلفت النظر ان بعض الروايات المروية عن رسول الله (ص) والتي وصلتنا من علماء أهل السنة ، تذكر الأئمة الاثني عشر بالاسم الصريح وتبين صفاتهم وفضائلهم .

يقول الشيخ سليمان القندوزي ، العالم السني المعروف ، في كتابه المذكور « ينابيع المودة » :

جاء رجل يهودي يدعى نعثلاً إلى رسول الله (ص) ، وكان من بين الأسئلة التي ألقاها عليه انه سأله عن أوصيائه وخلفائه من بعده ، فقال رسول الله (ص) :

« إن وصيي علي بن أبي طالب ، وبعده سبطاي الحسن والحسين يتلوه تسعة أئمة من صلب الحسين . إذا مضى الحسين فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه محمد ، فإذا مضى محمد فابنه جعفر ، فإذا مضى جعفر فابنه موسى ، فإذا مضى موسى فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه محمد ، فإذا مضى محمد فابنه علي ، فإذا مضى علي فابنه الحسن ، فإذا مضى الحسن فابنه الحجة محمد المهدي ، فهؤلاء اثنا عشر »[1] .

وفي الكتاب نفسه ، نقلاً عن كتاب «المناقب» ، حديث آخر جاء فيه ذكر الأئمة الاثني عشر بالاسم واللقب ، ويشير إلى غيبة الإمام المهدي (ع) وإلى نهضته وانه يملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعد ما ملئت جوراً وظلماً[2] .

أما الأحاديث الواردة بهذا الخصوص عن طريق الشيعة فكثيرة تفوق حد التواتر ، فتأمل!

من مات ولم يعرف إمامه... :

نقرأ في كتب أهل السنة حديثاً عن رسول الله (ص) انه قال :

« من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية » ![1] .

هذا الحديث نفسه ورد في كتب الشيعة بهذه الصورة :

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٤١ .

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٤٢ .

(١) المعجم المفهرس لألفاظ الأحاديث النبوية ، ج ٦ ص ٣٠٢ .

« من مات ولا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية »[2] .

يدل هذا الحديث دلالة بيّنة على أن الإمام المعصوم موجود في كل عصر وزمان وان من الواجب معرفته ، وان عدم معرفته على درجة من الضرر بحيث انه يضع الإنسان عند تخوم الكفر والجاهلية .

فهل المعنيون بالأئمة في هذا الحديث هم القائمون على رأس الحكم ، من أمثال جنكيز خان وهارون الرشيد والحكام العملاء؟ .

لا شك أن الجواب يكون بالنفي ، وذلك لأن الغالبية العظمى من هؤلاء أناس منحرفون وظالمون وأحياناً يكونون عملاء للغرب أو الشرق وينفذون سياساتهم الاستكبارية ، فلا شك في أن معرفتهم وقبول إمامتهم يرسلان الإنسان إلى «دار البوار» في جهنّم .

يتضح من ذلك أن هناك في كل عصر إماماً معصوماً ، وانه يجب البحث عنه ومعرفته وقبوله كقائد وهاد .

إن إثبات إمامة كل إمام يتم ـ بالإضافة إلى الطريق المذكور ـ بطريق النصوص والروايات الواردة عن كل إمام سابق بالنسبة للإمام اللاحق ، وكذلك عن طريق معجزاتهم .

* * *

(١) « بحار الأنوار » ج ٦ ص ١٦ الطبعة القديمة .

فكّر وأجب

١ ـ ما هي الكتب التي وردت فيها الروايات الخاصة بالأئمة الاثني عشر؟

٢ ـ ما محتوى هذه الروايات؟

٣ ـ كيف تفسَّر هذه الأحاديث تفسيرات غير مناسبة؟

٤ ـ هل جاء في أحاديث أهل السنة أسماء الأئمة الاثني عشر كلهم؟.

٥ ـ ما الطرق الأُخرىٰ لإثبات الأئمة الاثني عشر؟

الدرس العاشر

الإمام المهدي (عج)
الإمام الثاني عشر والمصلح العالمي العظيم

١ ـ نهاية الليلة الظلماء :

عندما نلقي نظرة على أوضاعنا الحاضرة ونلاحظ تصاعد نسبة الجرائم وحوادث القتل والحروب وإراقة الدماء والمصادمات والمنازعات الدولية واستمرار اتساع نطاق المفاسد الأخلاقية ، يبرز في ذهننا هذا السؤال : هل سيستمر الوضع على هذه الحال؟ وهل يزداد انتشار هذه الجرائم والمفاسد حتى تجر البشرية إلى حرب دائمية تهلك الحرث والنسل؟ أم ان الانحرافات العقائدية والمفاسد الأخلاقية ، كمستنقع عفن ، سيبتلع الإنسانية ابتلاعاً؟

أم ان هناك بصيص ضوء من أمل في النجاة والاصلاح؟

الجواب الأول هو الذي يقول به المتشائمون والماديون ، وهو أن مستقبل العالم مظلم ، ولا يخلو كل زمان من احتمال الخطر .

أما الـذين يؤمنـون بمبـادىء الأديـان السمـاويـة ، وخـاصـة المسلمـون ، والشيعة منهم على الأخص ، فيجيبـون بجواب آخـر عن هذا السؤال ، فيقولون :

إن وراء هـذه الليلة الحالكـة السواد صبـح أمل مشـرق ، وإن هذه السحب الدّكن ، وهـذه الأعاصيـر المهلكة والسيـول المدمـرة سـوف تزول في النهـاية ، وتسـطع الشمس في سماء صـافية وجـو صحو .

إن هـذه الدوامـات المخوفـة لا تبقى في طريقنـا دائمـاً ، وإن في الأفق القـريب دلائـل على وجــود سـاحــل النجـاة يـطالــع الناظرين .

إن العالم ينتظر مصلحاً عظيماً يغير بثورته وجـه العالم لصـالح الحق والعدالة .

وبالطبـع يطلق اتبـاع كل دين اسمـاً خاصـاً على هذا المصلح المنتظر، مصداقاً لقول الشاعر:

عباراتنا شتى وحسنك واحد   وكل إلى ذاك الجمال يشير

٢ ـ الفطرة وظهور المصلح العظيم :

إن الإلهامات البـاطنية ، التي تكـون أمواجهـا أقوى أحيـاناً من أحكـام العقـل ، لا تقتصـر على تعـريفنـا على الله فقط ، بـل هي قـادرة على أن تكون دليلنـا في جميع معتقـداتنا الـدينية ، بمـا فيها هذه المسألة أيضاً .

ودلائل ذلك هي :

أولاً : الرغبة العامة في العدالة العالمية . فالناس في العالم كله ، على ما بينهم من اختلافات ، يحبون ، بلا استثناء ، السلام والعدالة . إننا جميعاً ننادي بهذا ونجاهد في سبيله ونطلب العدالة والسلام العالميين بكل وجودنا .

ليس هناك دليل أفضل من أن انتظار ظهور هذا المصلح العظيم إنما هو أمر فطري ، وذلك لأن أي مطلب يريده الناس كافة دليل على فطريته ، فتأمل؟!

كل حب أصيل وفطري يحكي عن وجود محبوب خارجي وجذاب كيف يمكن أن يخلق الله هذا التعطش في داخل الإنسان دون أن يخلق في خارجه الينبوع الذي يصبو نحوه ليرتوي منه؟

لهذا نقول ان فطرة الإنسان وطبيعته التي تبحث عن العدالة تصرخ بأعلى صوتها أن الإسلام والعدالة سوف يسودان العالم كله في نهاية المطاف ، وان مظاهر الظلم والجور والأنانية سوف تزول ، وان البشرية ستتوحد في دولة واحدة وتعيش تحت راية واحدة في جو من التفاهم والطهارة .

ثانياً : إن الأديان والمذاهب عموماً تنتظر مصلحاً عالمياً كبيراً . إنك تكاد تجد في جميع الأديان فصلاً يحدثك عن هذا الأمر إن الاعتقاد بظهور منج عظيم ، يكون بلسماً لجراح البشرية المؤلمة ، لا يقتصر على المسلمين ، بل ان هناك مستندات وأدلة تؤكد كونه اعتقاداً عاماً وقديماً آمنت به الأقوام والأديان في الشرق وفي الغرب ، إلاَّ أن الإسلام ، لكونه الدين الكامل ، يؤكد هذا الأمر توكيداً أكبر . .

ففي كتاب « زند » من كتب الزراد شتيين المعروفة ، يرده ذكر الصراع الدائم بين اتباع الله واتباع الشيطان ، ثم يقول :

« بعد ذلك ينتصر الإلٰهيون على الشياطنيين الذين ينقرضون . . . وان عالم الوجود ينال سعادته الأصيلة ويجلس ابن آدم على كرسي حسن الحظ . . . »

وفي كتاب « جاماسب نامه » لزرادشت تقرأ ما يلي :

« يخرج رجل من أرض التازيين (العرب) ، عظيم الرأس ، عظيم الجسد ، عظيم الساق ، على دين جده ، في جيش كثير . . . . . ويملأ الأرض عدلاً » .

وجاء في كتاب « وشن جوك » من كتب الهنود الصينيين :

وأخيراً ترجع الدنيا إلى رجل يحب الله وهو من عباده المخلصين .

ونقرأ في كتاب للهنود اسمه «باسك» :

« دور العالم ينتهي إلى ملك عادل في آخر الزمان ، يكون رائداً للملائكة والجن وبني آدم ، ويكون الحق معه ، ويكون بيده كل كنوز البحار والأرضين والجبال ، يخبر عما في السماء والأرض ، ولا ترى الأرض رجلاً أعظم منه » .

وفي « مزامير » داود من كتاب « العهد القديم » (التوراة وما ألحق به) نقرأ :

« يقطع دابر الأشرار ، أما المتوكلون على الله فسوف يرثون الأرض » .

« والصديقون يرثون الأرض ويسكنونها دائماً » .

وهناك كلام يشبه هذا في كتاب « اشعيا النبي » من كتب التوراة .

وفي الفصل ٢٤ من انجيل متى نقرأ :

« كالبرق يخرج من المشرق ويكون ظاهراً حتى المغرب . ابن الإنسان سيكون كذلك أيضاً » .

وفي الفصل ١٢ من انجيل لوقا نقرأ :

« شدوا أحزمتكم ، وأشعلوا مصابيحكم ، وكونوا كمن ينتظر سيده ، حتى إذا ما جاء في أي وقت وطرق الباب تسرعون لفتحه » !

جاء في كتاب « علائم الظهور » :

« في كتب الصينيين القدامى ، وفي معتقدات الهنود ، وعند الأهالي الاسكندنافيين ، وحتى عند المصريين القدامى وأهالي المكسيك وأمثالهم ، يسود الاعتقاد بظهور مصلح عالمي » .

٣ ـ الأدلة العقلية :

أ ـ نستخلص من نظام الخلق أن البشر يجب في النهاية أن يخضعوا لقانون العدالة ويستسلموا للنظم العادلة المصلحة الثابتة .

وذلك لأن عالم الوجود ، بالقدر الذي نلاحظه ، عبارة عن مجموعة من النظم . إن وجود هذه القوانين المنظمة التي تحكم العالم بأسره لدليل على وحدة هذا النظام وترابطه .

وتعتبر قضية النظام والقانون والمنهج والتخطيط من أهم مسائل هذا العالم الرئيسة والجادة . فابتداء من المنظومات الشمسية العظيمة حتى الذرة التي يمكن أن توضع ملايين منها على رأس ابرة ، كلها تخضع لنظام دقيق .

مختلف أجهزة جسم الإنسان ، ابتداء من بناء الخلية العجيب حتى طريقة عمل الدماغ ، وشبكة الأعصاب ، والقلب والرئتين ، كلها تتبع نظاماً دقيقاً وتعمل أشبه بأجهزة الساعة الدقيقة ، كما يعبّر عن ذلك أحد العلماء ، بحيث ان أدق الحاسبات الالكترونية لا تكون شيئاً مذكوراً بجانبها .

فهل في هذا العالم الدقيق يمكن للإنسان ـ الذي هو جزء من كل ـ ان يظهر بمظهر الرقعة المخالفة في اللون وفي التنظيم ليعيش فيه في حياة كلها حرب وإراقة دماء وظلم؟

هل يمكن لحالة الظلم والفساد الأخلاقي والاجتماعي ، التي تعتبر ضرباً من الفوضى وانعدام النظام ، أن تسود المجتمع البشري حتى الأبد؟ .

النتيجة هي ان مشاهدة نظام الوجود تلفت نظرنا إلى أن المجتمع البشري لا بد له في النهاية ان يطأطيء رأسه امام النظام والعدالة ، وان يعود مرة أخرىٰ إلى المسير الأصلي الذي خلق للسير فيه .

ب ــ مسيرة المجتمعات التكاملية . وهذه دليل آخر على مستقبل البشرية الواضح ، إذ إننا لا يمكن أن ننكر أن المجتمع البشري ، منذ أن عرف نفسه ، لم يتوقف في مرحلة معينة ، بل كان دائم السير والتحرك إلى الامام .

فمن حيث الجوانب المادية ، المسكن واللباس والغذاء ، وطرق النقل والمواصلات ، والأفكار التوحيدية ، كان الإنسان في وقت ما يعيش في أبسط ظروفها . ولكنه الآن بلغ مرحلة تحير العقول وتعشي العيون ، ولا شك ان هذا سوف يواصل حركته الصعودية .

أما من حيث العلوم والثقافات فقد كان الإنسان يسير سيراً تصاعدياً أيضاً فهو في كل يوم يكتشف شيئاً جديداً ويفتح فتحاً جديداً .

إن هذا « القانون التكاملي » سيشمل في النهاية الجوانب المعنوية والأخلاقية والاجتماعية أيضاً ، ويتقدم بالإنسان نحو قانون عادل وسلام عادل ثابت ، وفضائل أخلاقية ومعنوية . إن ما نراه اليوم من تفشي المفاسد الأخلاقية وتفاقمها ، إنما هو وسيلة تمهد الطريق لانضاج ثورة تكاملية شاملة .

إننا بالطبع لا نقول ان علينا أن نشجع الفساد ، ولكننا نقول إن الفساد إذا جاوز الحد أدى إلى ثورة أخلاقية . فعندما يصل الإنسان إلى طرق مسدودة ويجد عواقب غير محمودة ناشئة من آثامه ، وعندما يرتطم رأسه بالصخور ، وتبلغ روحه التراقي ، عندئذٍ يكون في الأقل على أهبة الاستعداد لتقبل المبادىء التي يعرضها عليه القائد الإلٓهي .

القرآن وظهور المهدي :

في كتابنا السماوي العظيم آيات كثيرة تبشر بهذا الظهور العظيم ، نكتفي بواحدة منها فقط .

في الآية ٥٥ من سورة «النور» نقرأ :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ . . . ﴾

تبين هذه الآية بجلاء ان الحكم على الأرض سيخرج في النهاية من أيدي الجبارين والظالمين ، وسيكون الحكم بيد المؤمنين الصالحين .

وفي اثر الآية المذكورة والوعد الذي فيها ، يعد الله ثلاثة وعود أُخرىٰ :

« وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً . يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ .

في تفسير هذه الآية قال الإمام علي بن الحسين عليه السلام :

« هم والله شيعتنا يفعل الله ذلك بهم على يدي رجل منّا وهو مهدي هذه الأمة »(١) .

المهدي في كتب الحديث :

إن الأحاديث التي تشير إلى الحكومة العالمية القائمة على السلام والعدل ، والتي يؤسسها أحد أهل بيت رسول الله (ص) اسمه «المهدي» أحاديث كثيرة وردت في كتب الشيعة والسنة ، وهي من الكثرة بحيث تعدت حدود التواتر أيضاً .

(١) تفسير « مجمع البيان » الآية ٥٥ من سورة (النور) .

أما الكلام على انه هو الإمام الثاني عشر ، وخليفة رسول الله (ص) والتاسع من أولاد الإمام الحسين (ع) ، وانه ابن الامام الحسن العسكري (ع) فهو كثير في المصادر الشيعية .

فمن حيث القسم الأول ، أي التواتر الوارد في كتب أهل السنة في أحاديث ظهور المهدي ، يكفي أن نقول ان علماء أهل السنة يشيرون إلى ذلك صراحة إلى الحد الذي نقرأ في الرسالة التي اصدرتها مؤخراً « رابطة العالم الإسلامي » ـ وهو أكبر مركز ديني في الحجاز ـ ما يلي :

« انه آخر الخلفاء الراشدين الاثني عشر الذين أخبر عنهم النبي (ص) في أحاديث صحاح ، والأحاديث عن المهدي نقلت عن كثير من الصحابة عن رسول الله (ص) » .

وبعد ذكر أسماء عشرين من الصحابة الذين نقلوا أحاديث النبي (ص) عن المهدي ، تستطرد الرسالة قائلة :

« وهناك آخرون كثيرون نقلوا هذه الأحاديث وبعض علماء أهل السنة ألفوا الكتب الخاصة في الأخبار الواردة عن المهدي ، منهم أبو نعيم الأصفهاني ، وابن حجر الهيثمي ، والشوكاني ، وادريس المغربي ، وأبو العباس بن عبدالمؤمن » .

ثم يضيف بعد ذلك : « جمع من علماء أهل السنة القدامى والمحدثين يصرحون بأن الأخبار عن المهدي متواترة » .

بعد ذكر اسماء عدد من هؤلاء تختتم الرسالة كلامها بالقول :

« أعلن فريق من الحفاظ والمحدثين ان أخبار المهدي فيها الصحيح وفيها الحسن ، وهي في المجموع من المتواتر قطعاً ،

وإن الاعتقاد بقيام المهدي صحيح وواجب ، وهذا من عقائد أهل السنة والجماعة المسلم بها ، ولا ينكره إلّا كل جاهل وصاحب بدعة » .

أما أحاديث الشيعة :

يكفي هنا أن نعلم أن هناك المئات من الأحاديث بهذا الشأن عن رواة مختلفين ، عن رسول الله (ص) وعن الأئمة (ع) بما يتجاوز حد التواتر ، وهو عند الشيعة من ضروريات الدين ، بحيث انه لا يمكن لأحد أن يعتنق المذهب الشيعي دون أن يطلع على عقيدتهم بظهور المهدي وخصائص ذلك وعلائم الظهور وكيفية حكومته ومناهجها المختلفة .

لقد أكب كبار علماء الشيعة منذ القرون الأولى حتى اليوم على كتابة الكتب العديدة بهذا الخصوص جمعوا فيها الأحاديث المتعلقة بالمهدي (عج) .

إننا هنا نكتفي بذكر بعض الأحاديث من باب المثال ، تاركين لمن يريد الاستزادة أن يرجع إلى كثير من الكتب المهمة التي ألفت في هذا الموضوع ، منها كتاب « المهدي » تأليف العالم الكبير السيد صدر الدين الصدر .

قال رسول الإسلام (ص) :

« لو لم يبق من الدهر إلّا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث رجلاً من أهل بيتي يلمؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً »[1] .

(١) جاء هذا الحديث في أغلب كتب الشيعة وأهل السنة .

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال :

« إذا قام القائم حكم بالعدل وارتفع الجور في أيامه وأمنته به السبل وأخرجت الأرض بركاتها ورد كل حق إلى أهله . . . وحكم بين الناس بحكم داود وحكم محمد (ص) فحينئذٍ تظهر الأرض كنوزها وتبدي بركاتها ولا يجد الرجل منكم يومئذٍ موضعاً لصدقته ولبره لشمول الغنى جميع المؤمنين »[1] .

ملاحظة : نعلم انه في زمان غيبة إمام العصر (أرواحنا فداه) يستمر خط الإمامة والولاية متمثلاً في نواب الإمام . وقد جاء بحث ذلك في كتاب « حكومت إسلامي » تحت عنوان «ولايت فقيه» .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ ما الاختلاف في نظرة الذين يعبدون الله والماديين بالنسبة لمستقبل العالم؟ .
٢ ـ هل يمكن أن نعلم بظهور المهدي بالفطرة؟ كيف؟
٣ ـ هل هناك دليل عقلي على الظهور؟ ما هو؟
٤ ـ ماذا يقول القرآن بهذا الشأن؟
٥ ـ كيف هي دراسة السنة في هذا الموضوع؟ .

* * *

(١) « بحار الأنوار» ج ١٣ الطبعة القديمة .

سلسلة الدروس الدينية في العقائد الإسلامية

القسم الخامس

معرفة المعاد

الدرس الأول

سؤال مهم: هل الموت نهاية أم بداية؟

معظم الناس يخافون الموت ، فلماذا؟

لقد كان الموت يتراءى دائماً للإنسان في صورة عظيمة مرعبة مخيفة تحيل طعم الحياة العذب إلى مثل العلقم في فمه كلما خطر له الموت .

إنه لا يخاف اسم الموت فحسب ، بل يرتعب حتى من ذكر اسم المقابر ، فيسعى إلى تزيينها واضفاء البهرجة عليها لعله ينسى ماهيتها الحقيقية .

بالرجوع إلى آداب مختلف شعوب العالم نجد آثار هذا الخوف من الموت بادية للعيان ، فيوصف بهول الهلاك ، أو بمخلب الموت ، أو بضربة الأجل ، وبأمثال ذلك .

وإذا أرادوا ذكر اسم ميت ، سعوا إلى تخفيف الموقف على السامع بتعبيرات مثل « أبعدنا الله عن ذلك » أو « أطال الله عمرك » وغير ذلك .

فلا بد أن نعرف إذن ما الذي يدعو الناس إلى أن يخافوا خوفاً دائماً من الموت .

ثم لماذا نجد ، بخلاف ذلك ، أُناساً فضلاً عن كونهم لا يخافون الموت ، فإنهم يستقبلونه بالابتسامة ويفخرون بمقدمه؟

يحدثنا التاريخ عن أُناس كانوا يبحثون عن ماء الحياة واكسير الشباب ، وعن أناس آخرين كانوا يهرعون إلى جبهات الجهاد بشغف ، يواجهون الموت بترحاب باسم ، وقد يتشكون من طول اعمارهم ، لأنهم كانوا متلهفين للقاء الحبيب ورؤية الله . وهذا ما نراه اليوم أيضاً على جبهات الحق ضد الباطل ، وكيف أن هؤلاء يسرعون إلى الاستشهاد وقد وضعوا أرواحهم على أكفهم[1] .

لماذا الخوف؟

بالفحص والتمعن نستنتج أن سبب هذا الخوف من الموت عاملان :

١ ــ تفسير الموت بالفناء :

إن الإنسان بطبيعته يهرب من حالات العدم : فهو يهرب من المرض الذي يعني انعدام الصحة ، ويهرب من الظلام الذي

يعني انعدام النور ، ويهرب من الفقر الذي يعني انعدام الغنى ، بل انه يهرب أحياناً حتى من الدار الخالية ، ومن الانفراد في الصحراء ، لانعدام الرفيق فيهما .

والعجيب انه برهب الميت نفسه ، فهو يرفض مثلاً أن يبيت مع جسد ميت في غرفة واحدة ، مع انه لم يكن يخاف هذا الميت قبل أن يموت! فما السبب يا ترى في خوف الإنسان من العدم وهروبه منه؟

إن السبب واضح ، فالوجود معقود بالوجود ويألفه ، ولا يمكن أن يتآلف الوجود والعدم يوماً ، لذلك فمن الطبيعي أن نكون غرباء على العدم ونشعر بالخوف منه .

فإذا نحن قلنا بأن الموت هو نهاية كل شيء ، وان بالموت يبلغ كل شيء خاتمته ، عندئذٍ يحق لنا أن نخشاه وأن نهرب حتى من اسمه ومظهره ، لأن الموت يسلبنا كل شيء .

أما إذا اعتبرنا الموت بداية حياة جديدة ، حياة خالدة ، ونراه نافذة تفتح لنا على العالم العظيم ، عندئذٍ يكون من الطبيعي ألَّا نخاف الموت ، بل إننا نهنىء الطاهرين الذين يخطون نحوه بثبات مرتفعي الرأس!

٢ـ الأضابير السود

إننا نعرف أُناساً لا يرون في الموت معنى الفناء والعدم ، لأنهم لا ينكرون الحياة بعد الموت ، ولكنهم مع ذلك يخافون الموت وذلك لأن صحائف أعمالهم قد اسودت إلى درجة أنهم إنما يخافون العقوبات الأليمة التي يتوقعونها بعد الموت .

إن لهؤلاء الحق في أن يخافوا الموت . إنهم أشبه

بالمجرمين الخطرين الذين يخافون الخروج من السجن ، لأنهم يعلمون أن خروجهم من السجن يعني تعليقهم على خشبة الاعدام ، فهم ، لذلك ، يتشبثون بقضبان السجن ، لا لكرههم الحرية ، إنما هم يكرهون الحرية التي تقودهم إلى المشنقة .

هكذا حال المسيئين ، فهم يرون انعتاق أرواحهم من هذا السجن الضيّق مقدمة لتحمل أنواع العذاب القاسي بسبب ما ارتكبوه من أعمال قبيحة ومن ظلم وجور وفساد ، ولذلك فهم يخافون الموت .

أما الذين لا يرون في الموت « فناء » ، ولا يجدون « أضابير » أعمالهم سوداً ، فما الذي يحملهم على الخوف من الموت؟

إنهم، بالطبع ، يريدون هذه الحياة بكل كيانهم ويرغبون فيها ، لكي يستثمروها في سبيل حياتهم الجديدة بعد الموت ، ويعدوا أنفسهم لاستقبال الموت الذي يكون في سبيل رضا الله ، ذلك الهدف الذي يدعو للافتخار والاعتزاز .

نظرتان مختلفتان :

قلنا إن الناس فريقان : فريق ، وهم الأكثرية ، يخافون الموت ويهربون منه .

وفريق آخر يستقبلون الموت ، الذي يكون في سبيل هدف عظيم ، كالشهادة في سبيل الله ، بأحضان مفتوحة ، أو انهم ، في الأقل ، إذا أحسّوا بدنو الموت لا يداخلهم هَمٌ وَلاَ غَمٌ أبداً .

والسبب هو إن أولئك وهؤلاء مختلفون في النظرة .

الفريق الأول : هؤلاء إمّا أن يكونوا من الذين لا يؤمنون

بوجود عالم بعد الموت ، وإمّا أنهم لا يصدقون بوجوده كل التصديق ، ولذلك ينظرون إلى لحظة الموت وكأنها لحظة فراقهم لكل شيء . إن مفارقة كل شيء والخروج من النور إلى الظلام المطلق أمر صعب أليم ، كحال من يخرجونه من السجن ليقدموه للمحاكمة عن جريمة ثابتة عليه ، فهي حال رهيبة من الخوف .

أما الفريق الثاني : فيرى الموت ولادة جديدة وخروجاً من محيط الدنيا الضيق المظلم ، ودخولاً إلى عالم وسيع نيّر .

إن التحرر من قفص ضيق صغير ، والتحليق في السماء الفسيحة ، والخروج من ذلك المحيط المليء بالخصام والنزاع وضيق النظر والظلم والحقد والحروب ، والدخول إلى عالم قد تطهر من كل هذا التلوث ، لا شك يجعل الموت أمراً مرغوباً فيه عند هذا الفريق الثاني ، فلا يخافون منه . يقول الإمام علي عليه السلام :

« والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه » .

أو كما قال الشاعر الفارسي :

مركَ اكَر مرداست كونزدمن آي | تادر آغوش بكيرم تنك تنك ! !
من زاو جاني ستانم جاودان | أو زمن دلقي ستاندرنك رنك ! !

(إذا كان الموت رجلاً ، قل : تعال إليّ
حتى احتضنه احتضاناً شديدا)

(فإني سأتسلم منه روحاً خالدة
ويأخذ مني رداءً حال لونه)

إذن ليس من المستغرب أن نصادف في التاريخ رجالاً مثل

الحسين عليه السلام ومثل أصحابه المضحين ، كلما ازدادت لحظة الشهادة قرباً منهم ، ازدادت فرحتهم واشتد شوقهم إلى لقاء الحبيب وتلألأت وجوههم لقرب اللقيا .

وهذا هو نفسه الذي نقرأه في تاريخ حياة الإمام علي عليه السلام العظيمة ، فهو عندما تنزل على مفرقة ضربة سيف ذلك المجرم الاثيم ، يصيح قائلاً :

« **فزت ورب الكعبة** » .

بديهي أن لا يعني هذا الكلام حثّ الناس على إلقاء أنفسهم في المهالك ، والاغضاء عن هبة الحياة العظيمة التي وهبها الله لهم ، فلا يستثمرونها للوصول إلى أهدافهم الكبرى . بل المقصود هو حمل الإنسان على استغلال الحياة استغلالاً سليماً ، دون أن يعتورهم الخوف من انتهائها ، وخصوصاً إذا كانت الغاية هدفاً عظيماً وسامياً .

فكّر وأجب

١ ــ لماذا يخاف الناس من الموت؟ أذكر الأسباب .
٢ ــ لماذا يستقبل بعض الناس الموت مبتسمين ويعشقون الشهادة في سبيل الله؟
٣ ــ بم يمكن تشبيه لحظة الموت؟ ما شعور المؤمنين المطهرين في تلك اللحظة ، وما شعور المسيئين عديمي الإيمان؟
٤ ــ هل اتفق لك أن رأيت بنفسك أشخاصاً لا يرهبون الموت؟ ما هي انطباعاتك عنهم؟ .
٥ ــ ما الذي قاله علي عليه السلام بشأن الموت؟ .

الدرس الثاني

المعاد يعطي الحياة مفهومها

إذا تصوّرنا هذا العالم بدون العالم الآخر لظهر لنا أن عالمنا فارغ ولا معنى له . إنه أشبه ما يكون بافتراض دورة حياة الجنين بدون خروجه من تلك الحياة إلى هذه الحياة الدنيا .

إن الجنين الذي يعيش في رحم أُمه ، ويقضي في هذا السجن الضيق والمظلم شهوراً عدة ، ليأخذه العجب حقاً لو انه أوتي عقلاً وحكمة ليتفكر بهما في أمره وكونه في سجنه ذاك :

لماذا أنا حبيس في هذا السجن المظلم؟

لماذا عليَّ أن أخوض في هذه المياه والدماء؟

ما نتيجة ذلك؟

من الذي أرسلني؟ ولماذا؟

أما إذا قيل له : إنك تقضي هنا فترة مؤقتة ، تتشكل فيها أعضاك، فتقوى، وتصبح قادراً على الحركة والسعي في عالم كبير آخر ، وان قرار خروجك من هذا السجن سوف يصدر بعد

انقضاء تسعة أشهر ، فتضع قدمك في دنيا فيها شمس ساطعة ، وقمر منير ، وأشجار خضر ، ومياه جارية ، وكثير من النعم الأُخرىٰ ، عندئذٍ سيتنفس الجنين الصعداء ويقول : الآن أدركت فلسفة وجودي في هذا السجن!

فهذه الدنيا مقدمة ، انها منصة القفز ، انها المدرسة التي تعد المرء لدخول الجامعة الكبيرة .

أما إذا قطعت علاقة حياة الجنين بالحياة في هذه الدنيا ، لغرق كل شيء في الظلام ولم يعد له أي معنى ، ولكان السجن رهيباً ومستقبل السجين أليماً .

كذلك هي العلاقة بين الحياة في هذه الدنيا والحياة بعد الموت . ما الداعي الذي يدعونا أن نظل نتقلب في هذه الدنيا سبعين سنة ، أو أقل أو أكثر ، متحملين العذاب والعناء ، نقضي فترة من الزمن نعاني من قلة التجربة والمعرفة حتى ننضج ، ونقضي فترة أخرى ندرس ونتعلم ، وما أن تنتهي مرحلة النضج والتعلم حتى نجد ثلوج الكهولة قد حطت على رؤوسنا!

ثم ما الهدف من كل هذا؟ ألكي نأكل ونلبس وننام ، ثم لكي نكرر هذا عشرات السنين؟ أفهل هذه السماء الشاسعة . وهذه الأرض الواسعة ، وكل هذه المقدمات والدرس واختزان المعلومات والتجارب ، وكل هؤلاء الأساتذة والمربين ، لم يكونوا إلاّ للأكل والشرب واللبس في هذه الحياة المنحطة المتكررة؟

هنا تتأكد عبثية هذه الحياة وفراغها عند أولئك الذين لا يؤمنون بالمعاد ، لأنهم لا يمكن أن يتصوروا هذه الأُمور التافهة هي الهدف والغاية من الحياة ، وهم في الوقت نفسه لا يعتقدون

بوجود حياة بعد الموت حتى تكون هي الغاية .

لذلك نجد أن كثيراً من هؤلاء يلجأون إلى الانتحار للخلاص من حياة كهذه عديمة المعنى والهدف .

أما إذا صدقنا أن الحياة « مزرعة » الآخرة ، وأن علينا أن نباشر بالبذر هنا حتى نحصد الغلة في حياة أبدية خالدة .

وإذا علمنا أن الدنيا « جامعة » علينا أن نكتسب منها المعرفة لنعد أنفسنا للعيش في دنيا خالدة ، وأن هذه الدنيا ليست سوى « جسر » للعبور .

عندئذٍ لا تكون هذه الدنيا فارغة ولا عبثاً لا معنى له ، بل سوف نراها فترة تمهيدية وإعدادية لحياة خالدة وأبدية تستحق منا أكثر من كل هذا ، الذي نبذله من أجلها .

نعم ، إن الإيمان بالمعاد يمنح الحياة معنى ومفهوماً ، ويخلصها من « الاضطراب » و « القلق » و « العبثية » .

الإيمان بالمعاد عامل تربوي :

إن للاعتقاد بوجود محكمة العدل العظمى في الآخرة تأثيراً كثيراً في الحياة ، بالإضافة إلى ما سبق قوله .

أفرض أنهم أعلنوا في البلاد أنه إذا ارتكب الناس أي جرم في اليوم الفلاني من السنة فلن يعاقبوا ولن يذكر ذلك في صحيفة أعمالهم ، وأن لهم أن يقضوا يومهم بكل اطمئنان ، لأن رجال الشرطة سوف يكونون في إجازة ، وسوف تتعطل المحاكم ، وعندما تعود الحياة العادية إلى مجراها الطبيعي في اليوم التالي فإن جرائم اليوم السابق سوف تنسى .

لكم أن تتصوروا كيف سيكون حال المجتمع في ذلك اليوم!

إن الإيمان بيوم القيامة هو الإيمان بدار عدالة عظمية لا يمكن مقارنتها بمحاكم هذه الدنيا .

أما خصائص محكمة العدل الإلٰهية فهي :

١ ـ انها محكمة لا تتأثر بالوساطات ، ولا بالمحسوبيات ولا ينخدع قضاتها بالأدلة المزيفة .

٢ ـ انها محكمة لا تحتاج إلى المراسيم والتشريفات السائدة في محاكم الدنيا ، ولذلك فليس فيها تأجيلات وتأخيرات ، بل تنظر في القضايا بسرعة البرق وتصدر احكامها بمنتهى الدقة .

٣ ـ انها محكمة لا تستند إلّا إلى أعمال الشخص نفسه ، أي إن الأعمال تحضر هناك وتثبت علاقتها بفاعلها بحيث لا يمكن انكارها .

٤ ـ انها محكمة الشهود فيها أعضاء المتهم : يده ورجله وأُذنه وعينه ولسانه وجلده ، وحتى أرض الدار وأبوابها وجدرانها حيث ارتكب معصية أو أدى فروض الطاعة ، وهم شهود لا يمكن انكارهم كآثار أعمال الإنسان الطبيعية .

٥ ـ انها محكمة قاضيها هو الله العليم بكل شيء، والغني عن كل شيء ، والعادل الذي لا يضاهي عدله عادل .

٦ ـ وأخيراً ، الجزاء في هذه المحكمة ليس محدداً من قبل ، بل أكثر ما تحدده أعمالنا نفسها ، إذ انها تتشكل وتستقر إلى جانبنا ، فتعذبنا أو ترفه عنا وتغرقنا في نعم الله .

إن الإيمـان بوجـود محكمة كهـذه يؤدي بالإنسـان إلى أن يردد ما قاله الإمام علي عليه السلام :

« والله لأن أبيت على حسـك السعـدان مسهـداً ، أو أجـر في الاغـلال مصفداً ، أحب إليَّ من أن ألقى الله ورسـوله يـوم القيامـة ظالماً لبعض العباد ، وغاصباً لشيء من الحطام. . . »[1] .

إن الإيمـان بهذه المحكمـة هو الـذي يحمل إنسـاناً أن يقـرب حـديدة محمـاة إلى يد أخيـه الذي كـان يرغب بـالمحابـاة في بيت المال ، وعندما يرتفع صراخ الأخ يوجه إليه النصيحة قائلاً :

« ثكلتك الثواكل يا عقيـل ! أتئن من حديـدة احماهـا إنسانهـا للعبه ، وتجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه . . . »

أيمكن أن ينخدع إنسان له مثل هذا الإيمان؟
أيمكن بالرشوة ابتياع ضمير إنسان كهذا؟ .

أيمكن بـالوعـد والوعيـد حـرف مسيـرتـه من طـريق الحق إلى طريق الباطل؟

يقول القرآن المجيد :

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا . . . ﴾ [سورة الكهف ، من الآية : ٤٩]

وهكـذا تنبعث في روح الإنسـان مـوجـة قـويـة من الإحسـاس

(١) «نهج البلاغة» الخطبة ٢٢٤ .

بالمسؤولية إزاء كل عمل من أعماله تحول بينه وبين الضياع والانحراف نحو الظلم والعدوان .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ لو لم يكن هناك عالم آخر بعد هذه الحياة الدنيوية المحددة والمؤقتة ، فما الذي كان سيحدث؟

٢ ـ لماذا يسعى بعض الذين ينكرون المبدأ والمعاد إلى التخلّص من الحياة بالانتحار؟

٣ ـ ما هي الاختلافات بين محكمة يوم القيامة والمحاكم في هذه الدنيا؟ .

٤ ـ ما تأثير الإيمان بالمعاد على أعمال الإنسان؟ .

٥ ـ ما الذي قاله أمير المؤمنين عليه السلام لأخيه عقيل؟ ماذا كان عقيل يريد منه؟ ماذا كان جوابه له؟ .

* * *

الدرس الثالث

في أعماقنا مثال لمحكمة يوم القيامة

لما كانت قضية الحياة بعد الموت ومحكمة يوم القيامة العظيمة تعتبر قضية جديدة على إنسان يعيش في هذه الدنيا الضيقة المحدودة فإن الله أوجد لنا مثالاً مصغراً لتلك المحكمة في هذه الدنيا ، هي محكمة الضمير ، إلّا أنها كما قلنا صورة مصغرة لها .

دعونا نوضح هذا الموضوع :

يحاكم الإنسان على الأعمال التي يقوم بها في عدة من المحاكم . أولاها هي المحاكم البشرية العادية ، بكل ما فيها من ضعف ونقص وانحرافات .

وعلى الرغم من ان لهذه المحاكم بعض التأثير في تخفيف نسبة ارتكاب الجرائم ، إلّا أن الأسس التي أقيمت عليها هذه المحاكم ليست أصلاً قادرة بتحقيق العدالة كاملة ، ولا يمكن أن ينتظر منها ذلك . فالقوانين الموضوعة والقضاة الفاسدون وتفشي

الرشوة والمحسوبيات والمنسوبيات والمناورات السياسية وآلاف الأمور الأخرى تؤدي كلها إلى إضعافها إلى درجة يمكن القول معها بأن عدمها خير من وجودها ، وذلك لأن وجودها يساعد على تنفيذ مآرب المتنفذين المشؤومة .

وحتى لو كانت قوانينها عادلة . وقضاتها متقين وواعين ، فإن هناك الكثيرين من المجرمين القادرين على إخفاء معالم جرائمهم أو الماهرين الذين يستطيعون تزييف المستندات والأدلة بحيث لا يجد القاضي طريقه بوضوح ، فيجردون القوانين بذلك من محتواها .

المحكمة الثانية التي يحاكم فيها الإنسان هي محكمة « نتائج الأعمال » .

إن لأعمالنا آثاراً ونتائج تصيبنا على المدى القريب أو البعيد . وإذا لم يكن هذا حكماً عاماً ، فإنه يصدق في الأقل بالنسبة لكثير من الناس .

لقد رأينا حكومات شيدت حكمها على الظلم والجور والاعتداء وارتكبت كل جريمة شاءت ، ولكنها في النهاية وقعت في فخاخ نصبتها بنفسها وسقطت في شباك هي التي نسجت خيوطها ، فحاقت بها ردود أفعالها ، فانهارت وتلاشت حتى لم يبق لها أثر .

ولما كانت نتائج الأعمال هي العلاقة بين العلّة والمعلول والعلائق الخارجية ، فقلما استطاع أحد أن ينجو من مخالبها بالتزوير والتزييف ، كما يفعلون في المحاكم العادية . ولكن كل ما في الأمر إن هذه المحاكم ليست عامة وشاملة ، ولهذا فهي

ليست قادرة على جعلنا في غنى عن محكمة يوم القيامة .

أما المحكمة الثالثة ، وهي أدق وأقسى من محاكم النوع الثاني ، فهي محكمة الضمير .

في الواقع ، بمثلما أن المنظومة الشمسية بنظامها العجيب قد تمثّلت مصغرة جداً في قلب الذرة ، كذلك يمكن القول بأن نظام محكمة يوم القيامة قد تمثّل مصغراً في داخلنا .

إن في أعماق الإنسان قوة غامضة يطلق عليها الفلاسفة اسم « العقل العملي » ، ويسميها القرآن « النفس اللوّامة » ، ويصطلح عليها المعاصرون باسم « الضمير » أو « الوجدان » .

فما أن يقوم الإنسان بعمل ما ، خيراً كان أم شراً ، حتى تعقد هذه المحكمة جلسة بدون ضوضاء ولا تشريفات ، ولكن بكل جد ووفق الأُصول ، وتبدأ المحاكمة ، ويصدر الحكم ، ثواباً أو عقاباً ، يتم تنفيذه بهيئة آثار نفسية .

وقد يكون عقاب المجرمين أحياناً من الشدة والقسوة بحيث يتمنى المجرم الموت ويستقبله بكل ترحاب ويفضله على الحياة ، ويكتب في وصيته : انتحرت تخلصاً من عذاب الضمير !

وأحياناً يكون الثواب على عمل الخير كبيراً يشيع الفرحة والسرور في نفس فاعله ويضفي عليه حالة من الاطمئنان والهدوء النفسي مما يصعب وصف ما فيه من العذوبة واللذة .

إن لهذه المحكمة خصائص معيّنة :

١ ــ في هذه المحكمة قاضيها وشاهدها ومنفذ أحكامها

والمتفرج فيها واحد ، وهو الضمير الذي يشهد ويقضي ويصدر الحكم ثم يشمر عن ساعد الجد وينفذ الحكم .

٢ ــ في هذه المحكمة بخلاف ما يجري في المحاكم العادية التي يكثر فيها الضوضاء والمظاهر ، وقد تطول فيها محاكمة قضية واحدة سنوات طوالاً ـ تجري المحاكمة بسرعة البرق في أكثر الحالات إلاَّ إذا اكتنف القضية بعض الغموض مما يتطلب بعض الوقت لفحص أدلة القضية وإزاحة سجف الغفلة عن نظر القلب ، ولكن بعد التأكد يكون صدور الحكم قطعياً .

٣ ــ الحكم في هذه المحكمة يتم في مرحلة واحدة ، فلا استئناف ولا تمييز ، بل هو حكم نهائي باتّ .

٤ ــ هذه المحكمة لا تصدر أحكام العقوبات فقط ، بل هي تحكم بالمكافأة والاثابة . أي إنها محكمة تنظر في قضايا المجرمين والمحسنين معاً ، فتعاقب المسيء وتثيب المحسن .

٥ ــ عقوبات هذه المحكمة لا تشبه عقوبات المحاكم العادية ، إذ ليس فيها سجون حقيقية ، ولا سياط للجلد ، ولا أعواد للشنق ، ولا محرقة للحرق ، ولكن عقابها يكون أحياناً خارقاً وسجنها قاسياً بحيث ان الدنيا على سعتها تضيق بالإنسان ، كأضيق سجن انفرادي في سجن رهيب .

وعليه ، فإن هذه المحكمة ليست تشبه أياً من المحاكم العادية ، بل هي من نوع محكمة يوم القيامة . إن هذه المحكمة من العظمة بحيث إن القرآن يقسم بها كما يقسم بمحكمة المعاد ، فيقول :

﴿ لآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ * وَلآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ ٱلإِنْسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [سورة القيامة ، الآيات من : ١ ــ ٤]

بديهي إن هذه المحكمة ، لكونها دنيوية على كل حال ، فيها من النقائص ما لا يجعلنا نستغني عن محكمة يوم القيامة ، وذلك :

١ ــ لأن نطاقها ضيق لا يستوعب كل شيء ، بل تتناسب مع نطاق تفكير الإنسان نفسه وإدراكه .

٢ ــ هنالك أشخاص على درجة من المكر والدهاء بحيث إنهم يستطيعون أن يخدعوا حتى ضمائرهم ويغشوها .

٣ ــ قد يكون نداء الضمير في بعض المجرمين من الضعف بحيث إنه لا يصل إلى مسامعهم .

وهكذا يتبيّن لنا أن وجود المحكمة الرابعة ، محكمة يوم القيامة ، أمر لا بد منه .

* * *

فكّر وأجب

١ ــ كم محكمة يحاكم فيها الإنسان في الواقع؟ .
٢ ــ ما هي خصائص المحكمة الأولى ، وما اسمها؟ .
٣ ــ ما هي مميزات المحكمة الثانية؟
٤ ــ ما هي خصائص المحكمة الثالثة؟
٥ ــ عدد نقاط ضعف محكمة الضمير ومميزاتها .

الدرس الرابع

المعاد في تجليات الفطرة

يقولون إن معرفة النفس تنبع من الفطرة وجبلة الإنسان . وإذا استطلعنا ضمير الإنسان الواعي وغير الواعي لتبيّن لنا إيمانه وتعلّقه بمبدأ فيما وراء الطبيعة يراه هو الذي خلق هذا العالم خلق عليم ، ووفق برنامج ، ومن أجل هدف معيّن .

إلاَّ أن هذا لا يقتصر على «التوحيد ومعرفة الله» ، فجميع أصول الدين وفروعه يجب أن تكون في الفطرة أيضاً ، وإلاَّ فإن الانسجام بين أجهزة « التشريع » و « التكوين » لا يتحقق (فتأمل!) .

ولكننا إذا ألقينا نظرة فاحصة في قلوبنا واستطلعنا أعماق أرواحنا ، لسمعنا بأذن أرواحنا تمتمة تقول : إن الحياة لا تنتهي بالموت ، لأن الموت نافذة على عالم البقاء!

ولكي تتجلى لنا هذه الحقيقة لا بد لنا من التنبه إلى النقاط التالية :

١ ـ حب البقاء :

إذا كـان الإنسـان قـد خلق لكي يمـوت ويفنى ، فـلا بـد أن يحب الفنـاء وأن يستمتـع بلذة المـوت في نهـايـة عمـره . ولكننـا نشهـد أن مـلامــح المـوت (بمعنى العــدم) لم تكن في يـوم من الأيـام ممـا يثيـر البهجـة في قلب الإنسـان ، بـل إنـه ، بخـلاف ذلك ، يهرب من رؤية الموت بكل ما أوتي من قوة .

هذه الحقيقة تؤكدها جهود الإنسان التي يبذلها لاطالة عمـره ، وللبحث عن اكسيـر الشباب ، وللعثـور على ماء الحيـاة . إن هـذا التعلق بأذيال الحيـاة لدليـل على إننا قـد خلقنا للبقـاء ، لا للموت إذ لو كنا قد خلقنا للفناء لما أحببنا الحياة إلى هذا الحد .

إن جميـع أنواع الحب البنـاءة الكامنـة في أعماقنـا تعمل على إيصالنا إلى الكمال والتكامل ، ومن ذلك حب البقـاء ، فهو يكمـل وجودنا .

لا تنسوا أننا نتابع بحث «المعاد» بعد قبـولنا بـوجود إلـه حكيم عليم . نؤمن بـأن كـلّ مـا أودعـه الله في داخلنـا كـان لحكمـة وحسـاب ، ومن هنا لا بـد أن تكـون هنـاك حكمـة في هـذا الحب الذي نشعر به للبقاء ، وما هذه الحكمـة سوى وجـود العالم الـذي يكون بعد هذا العالم .

٢ ـ يوم القيامة عند الماضين :

إن التـاريخ الـذي يشهد بـوجود الأديـان على اختـلافهـا عنـد الأقـوام الماضيـة منذ أقـدم الأزمنة ، يشهـد كـذلـك بـأن الإنسـان القديم كان يؤمن أيضاً « بالحياة بعد الموت » .

إن الآثار الباقية من الإنسان القديم، وخاصة من إنسان ما قبل التاريخ ، فيما يتعلق بطراز تشييد القبور ، وطريقة دفن الأموات لتدل جميعاً على حقيقة كونهم كانوا يعتقدون بالحياة بعد الموت .

وعليه لا يمكن اعتبار هذه العقيدة العميقة الجذور في تاريخ البشر عقيدة بسيطة ، ولا كونها عادة لقنت لهم تلقيناً .

إننا كلما صادفنا في تاريخ الإنسان عقيدة ذات جذور عميقة ومستمرة على امتداد العصور ، أدركنا أنها عقيدة فطرية ، إذ إن الفطرة وحدها هي التي تستطيع أن تقاوم مرور الزمان والتقلبات الاجتماعية والفكرية المختلفة ، وتبقى ثابتة ، أما العادات والرسوم الخارجية فما أسرع ما تتبدل أو يلفها النسيان بمرور الزمان .

إنك إذ تلبس الطراز الفلاني من الملابس إنما أنت تساير العادات أو الرسوم المتبعة ، وهذا سرعان ما يعتوره التغيير والتبدل بتقادم الزمان وعوامل أخرىٰ كثيرة .

أما حب الأم لطفلها فإنه غريزة متمكنة جبلت عليها طبيعتها ، لذلك لا ينتابه أي تبدل مهما تغيرت الظروف والأحوال ، بل تظل شعلته ملتهبة ، لا يخفف منه تعاقب الأيام ، ولا يحول لونه بغبار النسيان ، وكل جاذبية نابعة من داخل الإنسان فهي من الفطرة الكامنة فيه .

عندما يقول العلماء :

« لقد أثبتت الدراسات الدقيقة أن الأقوام الأولى البدائية من

البشر كانت تؤمن بنوع من الأديان وذلك لأنهم كانوا يدفنون موتاهم بطريقة خاصة ، ويدفنون معهم أدوات عملهم ، وبهذا يمكن إثبات أنهم كانوا يعتقدون بوجود العالم الآخر »[1] .

ندرك أن تلك الأقوام قد تقبلوا فكرة وجود عالم آخر بعد الموت ، وإن أخطأوا السبيل إليه ، ظانين أنه لا يختلف بشيء عن عالمهم الأول ، وأن الأدوات التي كانوا يستعملونها في الدنيا تنفعهم في العالم الآخر أيضاً .

٣ ـ إن محكمة (الضمير) دليل آخر على أن فكرة المعاد فطرية

سبق أن قلنا اننا نشعر بكل وضوح أن هناك في داخلنا محكمة تنظر في أعمالنا وأقوالنا، تثيبنا على الحسنة منها ، فنحس على أثر ذلك بالراحة أو الاطمئنان والهدوء النفسي والفرح والنشاط مما لا يتأتى لقلم أن يصفه .

كما أنها تعاقبنا على السيئة منها ، وعلى الأخص الذنوب الكبيرة ، فعقابها عليها يكون من الشدة والقسوة بحيث تحيل الحياة كالعلقم مرارة .

كثيراً ما لوحظ أن مجرمين بعد أن يرتكبوا جريمة كبرى ، كالقتل ، ويفلتون من قبضة العدالة ، يعودون ويسلمون أنفسهم إلى المحكمة ، ويصعدون المشانق طوعاً ، قائلين انهم يريدون الخلاص من عذاب الضمير .

عندما يمعن المرء فكره في هذه المحكمة الباطنية ينتابه

(١) « علم الاجتماع » بقلم كينك » ص ١٩٤ .

العجب : كيف يمكن أن يوجد في داخلي مثل هذه المحكمة ، وأنا هذا الكائن الصغير ، ولا توجد في عالم الخليقة العظيم محكمة تتناسب معه؟ .

وبناء على ما تقدم نستطيع أن نثبت بثلاثة طرق فطرية الاعتقاد بالمعاد وبوجود عالم آخر بعد هذا العالم :

طريق حب البقاء .

طريق التاريخ الذي يؤكد إيمان البشر بهذه الفكرة منذ الأزمنة السحيقة .

طريق المثال المصغر الموجود في باطن الإنسان .

* * *

فكّر وأجب

١ ــ كيف يمكن تمييز الأمور الفطرية عن غير الفطرية؟

٢ ــ لماذا يحب الإنسان البقاء؟ وكيف يعتبر هذا دليلاً على أن المعاد من الأمور الفطرية؟

٣ ــ هل آمنت الأقوام القديمة بالمعاد؟ كيف؟

٤ ــ كيف تقوم محكمة الضمير بمكافأتنا أو بمعاقبتنا؟ اذكر نماذج لذلك .

٥ ــ ما العلاقة بين محكمة الضمير والمحكمة الكبرى يوم القيامة؟

* * *

الدرس الخامس

البعث في ميزان العدالة

إذا أمعنا النظر في نظام عالم الوجود وسنن الخلق نجد أن ثمة قانوناً يحكمها جميعاً ويضع كل شيء في مكانه المناسب .

في جسم الإنسان نرى هذا النظام العادل قد ركّب فيه بدرجة من الدقة المتناهية بحيث إن أقل اختلاف في توازنه يؤدي به إلى الاصابة بالمرض ، أو إلى الموت .

خذ مثلاً ، تركيب القلب ، أو العين ، أو الدماغ ، تجد أن كل جزء فيها قد ركب في مكانه المناسب بكل دقة وبالقدر اللازم . إن هذا التنظيم المناسب العادل لا يقتصر وجوده في جسم الإنسان، بل هو سائد في كل أجزاء عالم الخليقة ، إذ :

« بالعدل قامت السموات والأرض » .

إن حجم الذرة من الدقة والصغر بحيث أنك تستطيع أن تضع ملايين منها على رأس إبرة ، فتأمل كيف يجب أن يكون تركيبها من الدقة والتنظيم بحيث يمكن لها أن تديم حياتها ملايين السنين .

إن هذا ناشيء من العدالة في الحسابات الدقيقة لنظام الالكترونات والبروتونات ، وما من جهاز صغير أو كبير يخرج عن دائرة هذا النظام العجيب .

فهل الإنسان حقاً كائن استثنائي؟ وإنه بقعة سوداء في جسد هذا العالم الكبير الأبيض؟ وإنه لهذا السبب يجب أن يسرح ويمرح حراً ، لا يلتزم نظاماً ويرتكب ما يشاء من ظلم واعتداء؟ أم إن هناك سراً في هذا الأمر؟

حرية الإرادة والاختيار :

الحقيقة هي إن الإنسان يختلف اختلافاً أساساً عن سائر الكائنات في عالم الوجود ، وهو إنه يملك حرية الإرادة والاختيار .

لماذا خلقه الله حراً ، وأوكل إليه اتخاذ القرارات والقيام بما يشاء من أعمال؟

السبب هو إنه لو لم يكن حراً لما استطاع أن يحقق تكامله ، فهذا الامتياز الكبير هو الذي يضمن تكامله الأخلاقي والمعنوي . لو أن شخصاً أجبر بالقوة على إعانة المستضعفين والقيام بأعمال أخرى تفيد المجتمع ، فإن هذه الأعمال قد تسير في طريقها ، ولكنها لن تكون دافعاً لهذا الشخص على التكامل الأخلاقي والإنساني أبداً . أما إذا قام بعشر تلك الأعمال الخيرة بمحض إرادته يكون قد تقدم بالنسبة نفسها على طريق التكامل المعنوي والأخلاقي .

بناء على ذلك ، فإن أول شرط من شروط التكامل المعنوي

والأخلاقي هو امتلاك حرية الإرادة والاختيار حتى يقوم الإنسان بالسير في هذا الطريق بمحض رغبته وإرادته ، لا بالجبر والإكراه ، كما هي حال عناصر الطبيعة الأُخرىٰ ، فالله سبحانه وتعالى لم يهب الإنسان هذه الهبة العظيمة إلَّا لهذا الغرض السامي .

بيد أن هذه النعمة الكبرى أشبه بالورد الذي يحيط به الشوك ، وهو سوء استغلال الناس لهذه الحرية والتلوث بالظلم والفساد والذنوب .

بديهي إن الله لم يكن يمنعه شيء من أن يعاقب كل ظالم فوراً بعقاب يجعله يقتلع من رأسه كل فكرة عن تكرار ذلك ، كأن يشل يده ، أو يعمى بصره ، أو يخرس لسانه .

صحيح إن أحداً ، في هذه الحالة ، لن يجرؤ على إساءة استعمال حريته ولن يقرب الإثم طوال حياته ، غير أن هذه العفة والتقوى تكون إجبارية قسرية ، ولا تعتبر مدعاة لافتخار الإنسان واعتزازه ، بل تكون نتيجة الخوف من العقاب الصارم الفوري .

لذلك لا بد أن يكون الإنسان حراً وأن يجتاز الامتحانات التي يقررها له الله ، وأن لا يعاقب فوراً ، إلَّا في حالات استثنائية ، لكي يستطيع أن يكشف عن قيمته في الوجود .

إلَّا أن هناك موضوعاً آخر ، وهو إنه إذا استمرت الحال على هذا المنوال واختار كل طريقاً ، فإن قانون العدالة الإلٓهية الذي يسيطر على عالم الوجود يكون قد انتقض .

من هنا يتبيّن لنا أن هناك محكمة ودار عدالة قد عينت

للبشر ، وأن على الجميع الحضور فيها بدون استثناء لينال جزاء أعماله بموجب عدالة عالم الخلق .

أيصحّ أن يقضي أشخاص مثل نمرود وفرعون وقارون وجنكيز أعمارهم يظلمون ويعتدون ويفسدون ، ثم لا يكون وراءهم حساب ولا عقاب؟

أيجوز أن يقف المجرمون والمتقون على قدم المساواة في كفة ميزان العدالة الإلٰهية؟

أو كما يقول القرآن :

﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [سورة القلم، الآيتان : ٣٥ ــ ٣٦]

﴿ ... أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾

[سورة صۤ ، من الآية : ٢٧] .

صحيح إن بعض المجرمين ينالون عقابهم على أعمالهم في هذه الدنيا ، أو جزءاً من ذلك العقاب ، وصحيح إن مسألة محكمة الضمير مسألة مهمة ، وصحيح أيضاً إن نتائج الذنوب والظلم والتعسف تحيق أحياناً بالإنسان نفسه ، ولكننا بإمعان النظر في هذه الحالات الثلاث ندرك أنها ليست عامة شاملة بحيث تعم كل ظالم ومذنب فينال كل نصيبه من العقاب بما يتناسب وجريمته ، وأن هناك الكثيرين الذين يهربون من مخالب عقاب محاكمات الضمير ونتائج أعمالهم ، أو لا ينالون من العقاب ما يكفي .

فلأمثال هؤلاء ، ولكي تكون هناك محكمة عدل عامة لمحاسبة الناس حتى على مقدار رأس الإبرة من العمل الحسن أو السيء ، تقام محكمة العدل يوم القيامة ، وإلاَّ فإن مبدأ العدالة لا يمكن أن يتحقق .

بناء على ذلك ، فإن القبول « بوجود الله » و « عدالته » يستدعي القبول بالبعث ومحكمة يوم القيامة ، ولا يمكن الفصل بين هذين أبداً .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ كيف قامت السموات والأرض بالعدل؟

٢ ـ لماذا وهب الإنسان نعمة حرية الإرادة والاختيار؟

٣ ـ ماذا كان سيحدث لو أن المسيئين نالوا عقابهم فوراً على جرائمهم في هذه الدنيا؟ .

٤ ـ لماذا لا نستغني بثواب أعمالنا ، وبمحكمة الضمير وبنتائج أعمالنا ، عن محكمة يوم القيامة؟

٥ ـ ما العلاقة بين «العدالة الإلهية» و«المعاد»؟

* * *

الدرس السادس

مشاهدة البعث في هذا العالم

يستنتج من الآيات القرآنية أن عبدة الأصنام والكفار في عصر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لم يكونوا هم وحدهم الذين يستنكرون مسألة المعاد والحياة بعد الموت ويخشونها ، بل كانت أقوام في عصور سابقة ترى هذا الرأي ، وتسم القائلين به بالجنون ، ونقول :

﴿ . . . هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ . . . ﴾

[سورة سبأ ، من الآيتان : ٧ ــ ٨]

نعم ، يومئذٍ كان الناس لجهلهم وقصر نظرهم يتهمون من يعتقد بعالم ما بعد الموت وبالحياة الأخروية بالجنون ، أو بالتقول على الله ، قائلين إن الزعم بانبعاث الحياة في المادة الميتة جنون .

والذي يلفت النظر هو إن القرآن يواجه هذه الأفكار بمجموعة

من الاستدلالات المختلفة التي تنفع الفرد العادي كما تنفع العالم المتبحر ، كلاً على قدر مستواه العقلي .

وعلى الرغم من ان شرح هذه الاستدلالات القرآنية يتطلب كتاباً منفصلاً ، فإننا نبادر إلى ذكر بعض نماذجها :

١ ـ يخاطبهم القرآن في بعض آياته قائلاً :

إنّكم ترون بأم أعينكم مشاهد من المعاد في حياتكم اليومية ، فترون كيف تموت الكئنات وكيف تعود إلى الحياة ، فكيف تشكون في المعاد بعد كل هذا؟ .

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾

[سورة فاطر ، الآية : ٩]

نجيل بانظارنا شتاءً في ملامح الطبيعة فنرى إمارات الموت ورائحته تشيع في كل مكان ، فالأشجار عارية من أوراقها وثمارها ، تقف خشبة جرداء جافة ، فلا زهرة ضاحكة ، ولا برعم متفتح ، ولا نبضات للحياة تنبعث من جنبات الصحارى وسفوح الجبال .

ثم يحل الربيع ، ويلطف الجو ، وينهمر المطر المحيي من السماء ، وإذا بحركة الحياة تجتاح الطبيعة بأسرها وتبدو جلية للعيان ، فتنمو النباتات وتورق الأشجار وتبرز البراعم والأزاهير ، وتبدأ الطيور تبني أعشائها بين الأغصان ، وينكشف الانبعاث العارم في كل شيء!

فلولا الحياة بعد الموت ما كنا لنشهد هذا المشهد يتكرر كل

عام . ولو كانت الحياة بعد الموت مستحيلة ، ويعتبر الكلام عليها جنوناً ، لما كان كل هذا يتجسد أمامنا ونراه بأعيننا ونتحسسه بحواسنا .

ولا فرق بين إحياء الأرض بعد موتها وإحياء الإنسان بعد موته .

٢ ــ وفي مواضع أخرى يأخذ القرآن بأيديهم ليتقدم بهم نحو بداية الخلق ، يصف لهم الخلق الأول . وعندما يتقدم أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وبيده قطعة عظم بالية ، ويصيح : يا محمد : « من يحيي العظام وهي رميم » وكأنه قد أتى بدليل لا يمكن دحضه لتنفيذ مسألة « المعاد » . فيأتي أمر الله إلى رسوله :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ . . . ﴾

[سورة يس ، من الآية : ٧٩]

لا فرق بين الخلق الأول والخلق المتجدد ، ولهذا تقول آية أُخرىٰ في عبارة قصيرة غنية بالمعنى :

﴿ . . . كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ . . . ﴾

[سورة الأنبياء ، من الآية : ١٠٤]

٣ ــ وقد يشير القرآن إلى قدرة الله العظيمة بحثّهم على النظر إلى هذا الكون الفسيح بسماواته وأرضه، فيقول :

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [سورة يس ، الآيتان : ٨١ ــ ٨٢]

كان الشاكون في هذه الأُمـور أشخاصـاً لم يتعد أفق تفكيـرهم محيط بيوتهم الضيقة الحقيرة ، وإلّا لأدركوا أن العـودة ثانيـة أسهل من الخلق الأول ، وأن إعـادة الأمـوات إلى الحيـاة لا تعـد شيئـاً عصياً على قدرة الله الذي خلق السموات والأرض من قبل .

٤ ـ وأحياناً يعكس لهم انبعاث « الطاقات » قائلاً :

﴿ ٱلَّـذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَـرِ ٱلْأَخْضَـرِ نَـاراً فَـإِذَآ أَنتُم مِّنْـهُ تُوقِدُونَ ﴾ [سورة يٓس ، الآية : ٨٠]

عنـدمـا نمحص هـذا التعبيـر العجيب في القـرآن ، مستعينين بالعلوم الحديثة ، يتبيّن لنا أن العلم يقول : عندمـا نحرق أخشـاب شجـرة ، فإن الحـرارة المنبعثة من نيـرانهـا هي الـطاقـة الحـراريـة نفسهـا التي كـانت الشمس تعكسهـا عليهـا أثنـاء سنـوات حيـاتهـا والمخزونة فيها ، مع إننـا كنا نـظن أن أشعة الشمس على الشجـرة قـد ماتت وتـلاشت ، ولكننا هنـا نراهـا قد عـادت إلى الحيـاة مـرة أخرى في لباس جديد .

إذن ، هـل من الصعب على الله ـ الذي لـه هـذه القـدرة على أن يختـزن لعشـرات السنـوات نـور الشمس وحـرارتهـا في جـذع شجـرة ، ثم في لحـظة واحـدة يخـرج مخـزونهـا ـ أن يحيـي الأموات ؟[1] .

(١) نذكر بأن العلم الحديث يقـول ان النباتـات الخضر هي القـادرة على استقبال نور الشمس فتحلل بواسطته غاز الكابـونيك ، فتحتفظ بـالكاربـون في داخلها وتحـرر غـاز الأوكسجين ، وفي الـوقت نفسـه تختـزن الـطاقـة الحـراريـة من الشمس .

وهكذا نلاحظ كيف أن القرآن باستدلالاته ومنطقه الواضح يرد على الذين يشكون في المعاد ويتهمون القائلين به بالجنون ، ويخرس ألسنتهم ، بإثبات إمكان المعاد استناداً إلى الأدلة التي أوردنا جانباً منها .

* * *

فكّر وأجب

١ ــ لماذا كان المشركون يأخذهم العجب من فكرة المعاد؟
٢ ــ كيف نرى مشهد المعاد في مملكة النبات كل عام؟ .
٣ ــ يعتبر القرآن في بعض آياته دورة الحمل والولادة دليلاً على المعاد، لماذا؟
٤ ــ ما هو بعث الطاقات؟
٥ ــ لماذا استدل القرآن بالشجر الأخضر؟

* * *

الدرس السابع

المعاد وفلسفة الخلق

يتساءل الكثيرون : لماذا خلقنا الله؟

وقد يتجاوزن ذلك أحياناً ليسألوا : بل ما هي فلسفة خلق هذا العالم الكبير؟

إن البستاني يزرع الشجرة من أجل ثمرها ، ويحرث الأرض ويبذر الحب من أجل غلتها ، فمن أجل أي شيء خلقنا بستاني الخليقة؟

أكان هناك ما ينقص الله حتى يستكمله بالخلق؟ إذا كان الأمر كذلك فهو إذن محتاج ، ولكن الاحتياج لا يأتلف ومقام الربوبية ولا نهائية وجوده .

للإجابة عن هذا السؤال يمكن قول الكثير ، ولكن من الممكن تلخيص ذلك في بضع جمل واضحات ، وهي :

الخطأ الكبير هو إنا نقارن صفات الله بصفاتنا نحن . فنحن لكوننا كائنات محدودة ، نقوم بأعمالنا لكي نسد حاجة من

حاجاتنا ، فندرس مثلاً لسد نقصنا من العلم ، ونشتغل لسد حاجتنا إلى المال ، ونفتش عن الطب والعلاج لضمان سلامتنا .

ولكن فيما يتعلّق بالله الذي لا نهاية له من جميع الجهات ، علينا أن نبحث عن أهداف ما يفعله خارج ذاته . فهو لا يخلق لمنفعة ولا لسد حاجة ، بل هدفه من ذلك هو أن يفيض بلطفه ووجوده على عباده .

إنه شمس مشعة لا نهاية لها ، تشع بنورها ، لا لحاجة بها إلى ذلك ، بل لكي ينعم الجميع بنور وجودها . إن من مقتضيات ذاته اللامتناهية الفياضة أن يأخذ بيد الكائنات ويتقدم بها على طريق التكامل .

إن خلقنا من العدم يعتبر بذاته خطوة تكاملية بارزة ، كما ان ارسال الرسل وانزال الكتب السماوية والشرائع والقوانين ، إن هي إلاّ قواعد لهذا التكامل .

هذه الدنيا أشبه بجامعة كبيرة، ونحن طلبتها!
هذه الدنيا أشبه بمزرعة أعدت لنا ونحن زارعوها!
هذه الدنيا متجر أولياء الله!

فكيف يمكن أن نقول إن ليس لهذا الخلق هدف ، مع أننا إذا نظرنا حولنا وتفحصنا جميع أجزاء الموجودات جزءاً جزءاً لوجدنا أن لكل منها هدفاً .

ففي أجهزة أجسادنا لن تجد جهازاً بغير هدف ، وحتى الأهداب ولتقعر باطن القدم أهدافها .

فكيف يمكن أن يكون لأجزاء أجسامنا أهداف ، ولا يكون

لمجموع تلك الأجزاء أي هدف؟

وإذا تجاوزنا كياننا وخرجنا إلى العالم الخارجي الكبير ، وجدنا ان لكل جهاز فيه هدفاً ، فلسطوع الشمس هدف ، ولهطول المطرَ هدف ، ولتركيب الهواء هدف ، فهل يمكن أن لا يكون للمجموع أي هدف؟

الحقيقية هي إن في قلب هذا العالم الفسيح لوحة كبيرة تعرض الهدف النهائي الذي لا نستطيع رؤيته أحياناً ولأول وهلة ، لعظمته . لقد كتب عليها ، « التربية والتكامل » .

* * *

والآن ، بعد أن تعرفنا على هدف الخلق على وجه العموم ، يدور الكلام على ما إذا كانت هذه الحياة المعدودة أيامها ، وبكل ما فيها من مشكلات وحرمان ومصائب ، هي هدف الخلق؟

أفرض أني عشت في هذه الدنيا ستين سنة ، وأني أعمل كل يوم من الصباح حتى المساء للحصول على القوت ، وأعود إلى البيت متعباً منهوكاً ، وتكون النتيجة أنني أستهلك بضعة أطنان من الطعام والماء ، وأتحمل العناء والتعب لأشيد داراً ، ثم بعد ذلك أترك كل شيء وأخرج من هذا العالم ، فهل ترى هذا الهدف يستحق أن يستدعيني إلى هذا العالم المليء بالآلام والشقاء؟

لو أن مهندساً شيد عمارة عظيمة وسط الصحراء ، وقضى سنوات طوالاً في تكميلها وتنظيمها وتجهيزها بكل وسائل الراحة ، فإذا سئل : ما الغاية من بنائك هذه العمارة؟ قال : كل هدفي هو أن يمرّ بها عابر سبيل ولو مرة ويستريح فيها ساعة أو بعض ساعة!

أفلا يستولي علينا العجب جميعاً ، ونعترض قائلين : إن استراحة ساعة لعابر سبيل لا تستوجب كل هذا العناء والتعب!

لذلك ، فإن الذين لا يؤمنون بالبعث وبالحياة بعد الموت ، لا يرون لهذه الدنيا أي هدف وأنها فارغة وعبث . وهذا القول كثيراً ما يصدافنا في كتابات الماديين ويكررونه إلى الحد الذي يقودهم إلى الانتحار ، نتيجة لاصابتهم بالتعب والملل من حياة لا هدف لها .

إن ما يعطي لهذه الدنيا هدفاً ويجعلها معقولة ومنطقية هو اعتبارها مرحلة متقدمة لعالم آخر ، وان ما فيها من مشكلات ووضع كل هذه المقدمات إنما الهدف منه أن يستفيد منه الإنسان في مسيرة حياة خالدة .

كنا قد ضربنا بهذه المناسبة مثلاً الجنين في رحم أمه ، فلو كان له شيء من العقل والإدراك ، ويقال له : إن الحياة التي تقضيها هناك ليس بعدها شيء ، لاعترض قائلاً : ما معنى أن أكون سجيناً في هذا المكان وفي هذا المحيط الضيق ، أطعم الدم ، مطوي الأطراف ، مرمياً في هذه الزاوية المظلمة ، ثم لا يكون بعد هذا شيء . ما الذي استهدفه الخالق بهذا الخلق؟

أما إذا أكدوا له بأن هذه الأشهر القليلة ليست سوى مرحلة عابرة يجري فيها إعدادك للخروج إلى عالم جديد وحياة أطول وفي دنيا هي أوسع بكثير من دنياك الضيقة هذه ، مضيئة ورائعة ، وفيها نعم كثيرة ، عندئذٍ يقتنع الجنين بأن الدورة التي يقضيها في رحم أمه ليست خالية من هدف ، وهو هدف جليل يستحق تحمل عناء هذه الفترة العابرة .

يقول القرآن المجيد :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

[سورة الواقعة، الآية : ٦٢]

خلاصة القول : إن هذا العالم يصرخ بكل كيانه أن هناك عالماً بعده ، وإلّا لكانت هذه الدنيا لغواً وعبثاً لا طائل وراءه .

استمع إلى ما يقوله القرآن في ذلك :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾

[سورة المؤمنون ، الآية : ١١٥]

أي لولا المعاد ـ الذي يعبر عنه القرآن بالرجوع إلى الله لكان خلق الإنسان عبثاً .

وعليه ، فإن فلسفة الخلق تقول : لا بد من وجود عالم آخر بعد هذا العالم .

فكّر وأجب

١ ـ لماذا لا يمكن مقارنة صفات الله بصفات مخلوقاته؟

٢ ـ ما الهدف من خلقنا؟

٣ ـ أيمكن أن تكون هذه الحياة الدنيا هي الهدف من خلق الإنسان؟

٤ ـ ما الذي نتعلمه من المقارنة بين الجنين والحياة الدنيا؟

٥ ـ كيف يستدل القرآن بخلق هذا العالم على وجود عالم آخر؟

* * *

الدرس الثامن

بقاء الروح دليل على البعث

لا يعـرف أحد منـذ متى بدأ الإنسـان يفكر في وجـود «الروح» وكـل ما يمكن قـولـه هـو ان الإنسـان أدرك منـذ البـدايـة أن هنـاك اختـلافاً بينـه وبين كائنـات هذا العـالم الأخـرىٰ : الاختـلاف بينـه وبين الصخرة ، والخشبة ، والجبل ، والصحراء ، والحيوانات .

كان الإنسان قـد جرّب حـالة النـوم ، وكذلـك حالـة الموت . كـان يرى أن الإنسـان ، بدون أن يتغيـر شيء في جسمه وهيئتـه ، يطرأ عليه تبـدل كبير في حـالته أثنـاء النوم وعنـد الموت . من هنـا أدرك الإنسان أن فيه « جوهراً » هو غير هذا الجسم الذي يراه .

وكان يرى أنه يختلف عن سائر الحيوانات ، لأنه كان يستطيـع أن يقـرر أمـراً وينفـذه بكـل حـريـة وحسبمـا يتـراءى لـه ، بينمـا الحيـوانات كـانت محكومـة لغرائـزها التي تسيـطر على حـركـاتهـا وتجبرها عليها .

وعلى الأخص كـان يرى مشـاهد في عـالم النوم ، في الـوقت

الذي كانت فيه أجهزة الجسم خامدة وجسده ملقى في إحدى الزوايا. فأدرك من هذا أن هناك قوة غامضة تهيمن على كيانه، فأطلق عليها اسم «الروح».

وعندما وضع العلماء أسس الفلسفة، وضعوا «الروح» كقضية فلسفية كبرى ضمن القضايا الأُخرىٰ. ومن ثم راح الفلاسفة يبدون آراءهم عن ماهية «الروح»، حتى بلغ تعداد تلك الآراء نحو ألف رأي ونظرية، حسب قول بعض الفلاسفة الإسلاميين، وتدور كلها حول «الروح» وما يتعلق بها. إن الكلام في هذا يطول، غير ان الأهم الذي ينبغي أن يعرفه المرء يتعلق بالجواب عن هذا السؤال:

هل الروح مادة أم لا؟ وبعبارة أُخرىٰ: هل هي مستقلة أم إنها من خصائص الدماغ والاعصاب الكيمياوية والفيزياوية؟

ثمة فريق من الفلاسفة الماديين يصرون على أن الروح والظاهرات الروحية مادية وأنها من خصائص خلايا الدماغ، وعندما يموت الإنسان، تموت الروح معه، بمثل الساعة التي نحطمها بضربة مطرقة فتتناثر أجزاؤها، ويتوقف عملها على أثر ذلك.

وفي الطرف المقابل لهؤلاء يقف الفلاسفة الإلٓهيون، ومعهم بعض الفلاسفة الماديين الذين يقولون بأصالة الروح. يعتقد هؤلاء إن الروح لا تموت بموت الإنسان، بل تستمر في الحياة.

ولإثبات هذه المقولة، أي أصالة الروح واستقلالها وباقئها يذكرون أدلة معقدة كثيرة، لا يسعنا هنا إلاّ أن نورد بعض أهمها وأوضحها بعبارات بسيطة لكي يعيها شبابنا العزيز:

١ ــ لا يمكن حشر عالم كبير في محيط ضيق:

افرض إنك على ساحل البحر وخلفك جبال شاهقة نحو السماء ، والأمواج العاتية تصفع الصخور بقوة وترتد عنها إلى البحر صاخبة . والصخور الضخمة عند سفح الجبل تنبىء عن الغوغاء في أعلى الجبل والسماء الزرقاء من فوق قمم الجبال تضج ليلاً عظمة وجلالاً .

تتطلع لحظة إلى هذا المشهد ، ثم تغمض عينيك وتسترجع في ذهنك المشهد كما رأيته حجماً وعظمة .

لا شك أن هذه الخريطة الذهنية بكل حجمها وعظمتها تحتاج إلى مكان ولا يمكن أن ترسم على خلايا الدماغ الصغيرة ، وإلاَّ فإن هذه الخريطة الكبيرة يجب أن ترتسم على نقطة صغيرة ، في الوقت الذي نرى المنظر في خيالنا بحجمه الطبيعي .

يدل هذا على أن هناك « جوهراً » غير الدماغ وخلاياه هو الذي يستطيع أن يحتفظ بكل مشهد وخريطة مهما كبُر حجمها . ولا شك إن هذا الجوهر لا بد أن يكون ما وراء عالم المادة ، إذ ليس في عالم المادة شيء يشبهه .

٢ ــ خصائص الروح الخارجية :

إننا نعرف الكثير من الخصائص الفيزياوية والكيمياوية في أجسامنا ، فحركات المعدة والقلب فيزياوية ، والترشحات والافرازات وعصارات المعدة كيمياوية . وأمثال هذه كثيرة في جسم الإنسان .

فإذا كانت الروح والفكر مادية وناشئة من خواص خلايا الدماغ الفيزياوية والكيمياوية ، فلماذا نرى خواصها تختلف عن خواص الجسم .

إن الفكر والروح يربطاننا بالخارج ويخبراننا بما يحدث حولنا . أما الخصائص الكيمياوية كالافرازات والعصارات ، والفيزياوية كحركات العين والقلب واللسان ، لا تملك مثل تلك الخصائص مطلقاً .

وبعبارة أخرى ، إننا نشعر جيداً بأننا مرتبطون بعالمنا الخارجي ، ونعرف الكثير عنه . فهل دخل العالم الخارجي إلى داخلنا؟ طبعاً ، لا . إذن ، ما الحكاية؟

لا شك إننا نرى خارطة العالم ، وإن خصوصية الروح في الظهور الخارجي هي التي تجعلنا ندرك العالم خارج وجودنا . إنك لا تجد هذه الخصوصية في أي من الظواهر الفيزيائية ولا في التفاعلات الكيماوئية فى أجسامنا ، فتأمل!

وهذا يعني ، بعبارة أخرى ، أن التعرف على الكائنات الخارجية العينية يتطلب نوعاً من الإحاطة العامة ، وهذه ليست من وظائف خلايا الدماغ ، فهذه إنما تتأثر بالعوامل الخارجية ، مثل سائر خلايا الجسم الأخرى .

هذا الاختلاف يدل على أن هناك فعالية أُخرىٰ في الجسم غير التغيرات الفيزياوية والكيمياوية ، فعالية تجعلنا نحيط بخارج وجودنا ، وما هذه سوى الروح ، تلك الحقيقة التي تتجاوز عالم المادة وخصائصها .

٣ ـ الأدلة التجريبية على أصالة الروح واستقلالها :

لحسن الحظ استطاع العلماء اليوم أن يثبتوا بطرق علمية وتجريبية مختلفة أصالة الروح واستقلالها ، وبذلك ردوا رداً حاسماً على الذين أنكروا استقلالية الروح وقالوا إنها من خصائص المادة :

١ ـ من تلك الدلائل التنويم المغناطيسي الذي أجريت عليه تجارب كثيرة جداً ، رآها بعضهم بأنفسهم وتأكدت لديهم . والذين لم يروا ذلك نورد لهم شرحاً بسيطاً لتلك التجارب :

هناك أشخاص يستطيعون بطرق علمية خاصة أن (ينوّموا) أشخاصاً آخرين يطلق عليهم اسم (الوسطاء). فيقوم المنوم بتنويم الوسيط بالايحاء إليه عن طريق التركيز الفكري ونظرات العين وغير ذلك ، فيروح الوسيط في نوم عميق ، ولكنه لا يشبه النوم العادي بل هو نوم يظل خلاله الارتباط بين المنوم والوسيط قائماً ، فيحدثه ويتلقى منه الجواب .

وبعد أن يصل الوسيط إلى حالة النوم هذه ، يرسل المنوم روح الوسيط إلى نقاط مختلفة ، وقد تعود باخبار جديدة ، أو تخبر عن أمور لم يكن الشخص النائم يعرف عنها شيئاً من قبل .

فهو مثلاً قد يتكلم بلغة لم يكن يعرفها من قبل ،
وقد يستطيع أن يحل مسائل رياضية معقدة ،

أو قد يكتب أموراً على صحائف موضوعة داخل صندوق مغلق بغير أن يفتحوه .

بل قد تظهر الروح نفسها أحياناً بهيئة أشباح أو ظلال واضحة

في بعض جلسات التنويم المغناطيسي ، وأمثال ذلك من الأمور التي شرحناها في كتاب «عود أرواح».

٢ ــ إحضار الأرواح . أو الاتصال بأرواح الأموات وإحضارها إلى جلسات إحضار الأرواح ، مما يدل على أصالة الروح واستقلالها .

هنالك اليوم جمعيات روحية كثيرة منتشرة في مختلف انحاء العالم ، ويصدر عنها ـ كما يقول العالم المصري المعروف فريد وجدي ـ أكثر من ٣٠٠ مجلة وصحيفة ، وتعقد جلسات لاحضار الأرواح يشترك فيها شخصيات معروفة حيث تستحضر الأرواح ، فتقوم بأعمال خارقة للعادة .

وعلى الرغم من أن هناك عدداً من المشعوذين الذين يسيئون استعمال هذه الأمور بغير معرفة ، فيخدعون الناس ويبتزون أموالهم ، فإن حقيقة وجود هذه الحالة التّي يعترف بها العلماء المختصون لا يمكن انكارها[١] .

هذه كلها أدلة على أصالة الروح واستقلالها وبقائها بعد الموت ، وهي خطوة مؤثرة نحو المعاد والحياة بعد الموت .

٣ ــ ثمة أحلام ومشاهد نراها في عالم النوم تتجسم خلالها أحياناً حوادث مستقبلية ، وقد نكشف أحياناً عن أُمور خفية إلى درجة لا يمكننا معها أن نعتبرها من باب الاتفاق والمصادفات ، وهذا أيضاً دليل على أصالة الروح واستقلالها .

(١) لمزيد من الاطلاع انظر كتابي «عود أرواح» و«معاد وجهن يس ازمركه».

ومعظم الناس لا شك قد مرّت بهم في حياتهم مثل هذه الأحلام الصادقة ، أو أنهم في الأقل قد سمعوا بأن الحلم الذي رآه أحد أصحابهم قد تحقق بحذافيره بعد مدة من الزمن ، الأمر الذي يدل على أن الروح تستطيع خلال نوم الإنسان أن تتصل بعوالم أخرى وقد ترى بعض الحوادث التي ستقع في المستقبل .

جميع هذه الأمور يشير بوضوح إلى أن الروح ليست مادة ، وليست نتيجة خصائص دماغ الإنسان الفيزياوية والكيمياوية ، بل هي حقيقة من حقائق ما وراء الطبيعة ، وإنها لا تموت بموت الجسد الذي كانت تحل فيه . وهذا ما يمهد الطريق للقبول بمسألة المعاد وعالم ما بعد الموت .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ ما الاختلاف بين الفلاسفة الإلٰهيين وبعض الماديين في قضية الروح؟

٢ ـ ما المقصود بعدم انطباق الكبير على الصغير باعتباره دليلاً على أصالة الروح؟

٣ ـ ماذا تعرف عن التنويم المغناطيسي؟

٤ ـ ماذا نقصد باستحضار الأرواح؟

٥ ـ كيف تكون الأحلام الصادقة دليلاً على أصالة الروح واستقلالها؟ .

* * *

الدرس التاسع

المعاد الجسماني والروحاني

من المسائل المهمة الأُخرىٰ التي تبرز في موضوع المعاد هو السؤال عما إذا كان المعاد «روحانياً» فقط، أم إنه يكون بعودة الروح والجسم معاً في العالم الآخر، وإن الإنسان، بروحه وجسمه نفسيهما إنما على مستو أفضل وأرفع، سوف يواصل حياته في العالم الآخر.

كان فريق من الفلاسفة القدامى يعتقد بأن المعاد يكون بالروح فقط، لأنهم كانوا يعتقدون بأن الجسم تركيب خاص يختص بالعالم الدنيوي فحسب، وبأن الإنسان يستغني عنه في العالم الآخر، وانه يهرع إلى العالم الآخر بدون جسمه.

إلّا أن كبار العلماء والفلاسفة الإسلاميين يعتقدون أن عودة الإنسان إلى العالم الآخر يكون بروحه وبجسمه معاً، صحيح إن هذا الجسم يتحول إلى تراب بعد الموت، وإن ترابه يتشتت في أرجاء الأرض ويضيع، ولكن الله القادر العالم يجمع كل ذرات الجسد يوم القيامة ويضفي عليها لباس الحياة مرة أخرى، وهذا

هو «المعاد الجسماني» لأنهم يرون أن عودة الروح أمر لا شك فيه ، ولما كان الجدل يدور حول عودة الجسم نفسه ، فقد عبروا عن ذلك بـ « المعاد الجسماني» .

على كل حال، إن الآيات القرآنية النازلة بهذا الخصوص، وهي كثيرة ومتنوعة، تشير كلها إلى «المعاد الجسماني» .

القرآن والمعاد الجسماني :

سبق أن تحدثنا عن الأعرابي الذي جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بقطعة عظم بالية قائلاً :

« من يحيي العظام وهي رميم » ؟

فيجيبه الرسول صلى الله عليه وآله بأمر من الله :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾

[سورة يٓس ، الآيتان : ٧٩ ــ ٨٠]

وفي موضع آخر يقول القرآن :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾

[سورة يٓس ، الآية : ٥١]

﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾

[سورة القمر، الآية : ٧]

ونحن نعلم إن الأجداث ، وهي القبور ، تكون موضع الأجساد التي أصبحت تراباً ، وليست موضع الأرواح .

لقد كان أكثر إنكار منكري المعاد يستند إلى عدم قدرتهم على تصوّر إمكان جمع التراب المتناثر في أرجاء الأرض وإعادة الحياة إليه :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

[سورة السجدة ، من الآية : ١٠]

فيرد عليهم الله قائلاً :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

[سورة العنكبوت ، الآية : ١٩]

كان عرب الجاهلية يقولون :

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴾

[سورة المؤمنون ، الآية : ٣٥]

كل هذه الآيات القرآنية وغيرها تدل دلالة واضحة على أن رسول الإسلام صلى الله عليه وآله قد تحدث عن « المعاد الجسماني » لأن تعجب المشركين الجاهلين كان منصبّاً على هذا الجانب من الموضوع ، ولذلك بادر القرآن بإيراد نماذج من صور المعاد الجسماني في عالم النبات وغيره مما يراه الإنسان بعينه ، كأمثلة على الخلق الأول وعلى قدرة الله .

وبناء على ذلك فالإنسان إذا كان مسلماً وقارئاً للقرآن ، لا يمكن أن ينكر المعاد الجسماني ، لأن إنكاره ، في نظر القرآن ، إنكار للمعاد نفسه .

الدلائل العقلية :

إذا تجاوزنا عن ذلك ، فإن العقل يقول إن الروح والجسد ليسا حقيقتين منفصلتين ، فهما مترابطان بعض ببعض بالرغم من استقلالهما بعض عن بعض ، فهما يتربيان معاً ، ويبلغان التكامل معاً ، ولا شك إنهما لا يستغنيان بعضٍ عن بعض لإدامة الحياة الخالدة .

وإذا ما انفصلا بعض الوقت في البرزخ (الزمن الفاصل بين الدنيا والآخرة) فإن ذلك لا يمكن أن يكون دائمياً ، فمثلما إن الجسد بغير الروح ناقص ، كذلك الروح بغير الجسد ناقصة . إن الروح هي الآمرة والمحركة ، والجسم هو المطيع وهو آلة التنفيذ ، فما من آمر يستغني عن المأمور ، وما من عامل يستغني عن آلة العمل .

ولكن بما أن الروح تكون يوم القيامة في مرتبة أسمى وأرفع ، فلا بد للجسد أيضاً أن يكون قد تكامل بالنسبة نفسها ، وهكذا سيكون كاملاً ، أي إن الجسد يوم القيامة سيكون خالياً من كل العيوب والنواقص التي كانت فيه في هذه الدنيا .

على كل حال ، فإن الروح والجسد قد ولدا معاً ويكمل أحدهما الآخر ، وإن المعاد لا يمكن أن يكون جسمانياً فقط ولا روحانياً فقط .

وبعبارة أُخرىٰ ، تدل دراسة كيفية ظهور الجسد والروح وعلاقة كل منهما بالآخر على أن المعاد يكون لهما كليهما .

ثم إن قانون العدالة يقول، من جهة أُخرىٰ : إن المعاد

يجب أن يكون لكليهما ، لأن الإنسان الذي ارتكب معصية في الدنيا قد ارتكبها بالجسد والروح معاً ، وإذا كان قد أتى بحسنة فقد أتى بها بهما معاً . وبناء على ذلك فالعقاب والثواب يجب كذلك أن يقعا على الجسد والروح معاً ، إذ لو كان المعاد للجسد بمفرده ، أو للروح بمفردها ، لما تحققت العدالة .

أسئلة حول المعاد الجسماني :

وضع العلماء بعض الأسئلة بشأن المعاد الجسماني نورد بعضها استكمالاً للبحث :

١ ـ تؤكد تجارب علماء العلوم الطبيعية أن جسم الإنسان يتبدل خلال عمره عدة مرات ، فهو أشبه بحوض للسباحة حيث يصب فيه الماء من جهة وينسرب منه تدريجياً من جهة أخرى . وبديهي أن ماء الحوض يكون قد تبدل بعد مدة من الزمن .

وهذا نفسه يحدث بالنسبة لجسم الإنسان ويتم مرة في نحو سبع سنوات . وبناء على ذلك فإن أجسامنا تتبدل عدة مرات خلال أعمارنا .

هنا يتبادر هذا السؤال إلى الذهن : أي هذه الأجساد هو الذي يعود يوم القيامة؟

في الإجابة على هذا السؤال نقول : آخرها ، كما قرأنا في الآيات السابقة التي جاء فيها إن الله يحيي الإنسان من عظامه وتراب جسده الذي دفن تحت التراب . يستفاد من هذا أن جسده الذي مات به هو الذي يحييه الله يوم القيامة . كما إن تعبير :

﴿ . . . وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾

[سورة الحج ، من الآية : ٧]

يعني إنه يبعث الجسد الذي مات ودفن في القبور .

ولكن هذا الجسد الأخير يحمل جميع الآثار والخصائص التي كانت للإنسان في أجساده الأُخرىٰ طوال حياته . وبتعبير آخر ، إن الأجساد السابقة التي تتلف تدريجياً تنقل إلى الجسد التالي جميع آثارها وخصائصها . وعليه فإن الجسد الأخير يكون قد ورث جميع صفات الأجساد السابقة ، وبذلك يكون خليقاً بتطبيق قانون العدالة في الثواب والعقاب عليه .

٢ ـ يقول بعضهم : إننا إذا ما أصبحنا تراباً وتحولت ذرات أجسادنا إلى تراب ، وأصبحت هذه غذاء لأنواع النباتات والأشجار ودخلت في الأثمار وأكلها أناس آخرون ، ومن ثم أصبحت أجزاء من أجسادهم ، فكيف تعود هذه إلى الحياة يوم القيامة؟ وهذا هو ما يعبرون عنه في الفلسفة وعلم الكلام بـ « شبهة الآكل والمأكول » .

على الرغم من أن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب الكثير من البحوث ، فإننا سنحاول أن نبسط ذلك بالقدر اللازم ، فنقول :

« ليس هناك شك في ذرات جسد أحد الأشخاص التي غدت جزءاً من جسد شخص آخر تعود إلى جسد صاحبها الأول ، وهذا واضح من الآيات المذكورة سابقاً » .

ولكن المشكلة التي تبرز هنا هي أن جسد الشخص الثاني يصبح ناقصاً . ولكن الحقيقة هي إنه لا يصبح ناقصاً ، بل يصبح أصغر ، لأن تلك الذرات كانت قد انتشرت في جميع أجزاء الجسد ، فعندما استرجعت منه صغر ونحف بنسبة ما أخذ منه .

وعليه فلا الجسد الأول يزول ولا الجسد الآخر ، وكل ما في الأمر هو أن الجسد الثاني يصبح صغيراً ، وليس في هذا مشكلة ، لأننا نعلم إن الأجساد يوم القيامة تتكامل ويزول عنها كل نقص ، بمثلما يكبر الطفل وينمو ، أو كما ينمو لحم جديد بمكان الجرح ، بغير أن تتبدل شخصية الطفل أو الجريح . فالأجساد الصغيرة والناقصة تحشر إلى عالم الكمال يوم القيامة كاملة غير منقوصة .

وهكذا لا تبقى مشكلة بهذا الشأن . فتأمل!

(للمزيد من التوضيح يمكنكم الرجوع إلى كتاب « معاد وجهان پس از مرگ ») .

* * *

فكّر وأجب

١ ـ هل حياة الإنسان يوم القيامة تشبه حياته في هذه الدنيا؟

٢ ـ هل نستطيع أن ندرك في هذه الدنيا كيف يكون الثواب والعقاب يوم القيامة؟ .

٣ ـ هل للنعم في الجنة وللتعذيب في الجحيم جوانبها الجسمية فقط؟ .

٤ ـ ما المقصود من تجسد الأعمال ، وكيف يستدل القرآن عليها؟ .

٥ ـ ما المشكلات التي يحلها الاعتقاد بتجسد الأعمال في بحث المعاد؟

* * *

الدرس العاشر

الجنة والنار وتجسد الأعمال

كثيراً ما يتساءل الناس : هل عالم بعد الموت يشبه هذا العالم ، أم أنهما مختلفان؟ ماذا عن الثواب والعقاب والقوانين السائدة فيه ، هل هي مثل ما في هذه الدنيا؟

نقول في الجواب : إن هناك شواهد كثيرة تدل على أن العالم الآخر يختلف كثيراً عن هذا العالم ، بحيث إن ما نعرفه عن العالم الآخر يجعله يبدو لنا كالشبح الذي نراه من بعيد .

يحسن بنا أن نعود إلى مثال « الجنين » الذي ضربناه من قبل ، فبالقدر الذي يوجد من بعد بين « عالم الجنين » وهذا العالم يكون البعد بين عالمنا هذا والعالم الآخر ، أو أكثر .

ولو كان للجنين في الرحم عقل وأراد أن يكون له تصور صحيح عن العالم الخارجي بالنسبة له ، عن السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والغابات والبحار، لاستحال عليه ذلك. فالجنين الذي لا يتعدى عالمه رحم أمه المحدود ، لا

يمكن أن تعني الشمس والقمر والبحر والأمواج والرياح والنسائم والزهور ومختلف مظاهر الجمال في عالمه الخارجي أي مفهوم محدد بالنسبة له . إن قاموسه اللغوي لا يتعدى بضع كلمات ، ولو أن أحداً شاء أن يكلمه من خارج رحم أمه (بالفرض) لما فهم منه كلاماً .

فاختلاف عالمنا المحدود هذا مع العالم الواسع الآخر يكون بهذه النسبة أو أكثر . وعليه ، فليس بإمكاننا أن نحمل أي تصور عما هناك من نعم ونقم وجنة ونار وغير ذلك .

وقد جاء في حديث شريف عن الجنة :

« فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وقد جاء هذا المعنى نفسه في القرآن الكريم ، إذ يقول :

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة السجدة ، الآية : ١٧]

كما إن النظم السائدة هناك مختلفة عما في هذا العالم أيضاً ، فمثلاً ، الشهود على أعمال الإنسان وأفعاله هم أعضاؤه ، يده ورجله وجلده وحتى الأرض التي ارتكب العمل عليها . يقول القرآن :

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [سورة يٓس ، الآية : ٦٥]

﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾

كان تصور هذه المسائل غير متيسر في الماضي ، ولكن بعد تقدم العلوم امكان تسجيل المشاهد والأصوات لم يعد هناك ما يدعو إلى العجب . على كل حال ، على الرغم من أننا ما نزال غير قادرين على أن نرى من شؤون العالم الآخر سوى ما يشبه الشبح البعيد ، ولكن الذي ندريه هو أن العقاب والثواب في العالم الآخر يشملان الجوانب الروحانية والجسمانية ، وذلك لأن المعاد يشمل كلا الجسم والروح .

يقول القرآن :

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقاً قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَٰبِهاً وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [سورة البقرة، الآية : ٢٥]

وفيما يتعلق بالمثوبات المعنوية يقول القرآن :

﴿ . . . وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ . . . ﴾

[سورة التوبة ، من الآية : ٧٢]

نعم ، إن إدراك أهل الجنة أن الله راض عنهم وأن خالقهم قد تقبلهم يخلق فيهم إحساساً بالفرح والبهجة واللذة لا يمكن أن يقارن به شيء . كما أن أهل النار يحسّون، بالإضافة إلى العذاب الجسماني ، بغضب الله ورفضه لهم ، وهو أشد من كل عذاب .

تجسد الأعمال :

يستفاد من كثير من الآيات القرآنية أن أعمالنا يوم القيامة

تتجسد حية في صور مختلفة وتصاحبنا ، وأن واحداً من أنواع العقاب والثواب المهمة هو هذا التجسد نفسه . فالظلم يتجسد بصورة سحابة سوداء تحيط بالظالم ، كما جاء في حديث شريف :

« الظلم هو الظلمات يوم القيامة » .

وجاء في القرآن :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٠]

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ . . . ﴾ [سورة الحديد، من الآية : ١٢]

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ . . . ﴾ [سورة البقرة ، من الآية : ٢٧٥]

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ . . . ﴾ [سورة آل عمران ، من الآية : ١٨٠]

وهكذا سائر الأعمال الأُخرىٰ تتجسد بما يناسبها .

إننا نعلم اليوم أن العلم يقول :

المادة لا تفني ، وإنما هي تتغير من مادة إلى طاقة . فالافعال والأعمال التي لا تخرج عن هاتين الحالتين ، تبقى خالدة أبداً .

إن في القرآن آية صغيرة عن يوم القيامة تهز الإنسان هزاً :

« ووجدوا ما عملوا حاضراً » .

والحقيقة ان كل ما يصيبهم إنما هو بسبب أعمالهم ، ولذلك يضيف إلى قوله :

﴿ . . . وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [سورة الكهف ، من الآية : ٤٩]

وفي موضع آخر من القرآن نقرأ عن يوم القيامة :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

[سورة الزلزلة ، الآيات : ٦ ــ ٨]

لاحظ أن الكلام يدور على «رؤية» الأعمال .

إذا قلنا إن أعمالنا في هذه الدنيا ، صغيرها وكبيرها ، وحسنها وسيئها ستبقى محفوظة ولا تفنى ، وستكون معنا يوم القيامة فإن ذلك لا بد أن يكون انذاراً لنا جميعاً لكي نتجنب الأعمال السيئة ، ونعمل الصالحات أكثر .

من العجيب ان هناك اليوم أجهزة قد اخترعوها تستطيع أن تجسد لنا جانباً من هذا الموضوع في هذه الدنيا . يقول أحد العلماء المعاصرين :

« لقد أمكن استعادة الأمواج الصوتية التي صدرت قبل ألفي سنة من العمال المصريين الذين كانوا يشتغلون بعمل الفخار ، بحيث يمكن سماعها . ففي المتحف المصري أوان فخارية صنعت قبل ألفي سنة على الأجهزة اليدوية الخاصة بذلك . وفي

أثناء صنعها انتقلت الأمواج الصوتية من أيدي العمال إلى تلك الأواني . واليوم استطاع العلماء أن يعيدوا الحياة إلى تلك الأمواج بحيث إننا نسمعها بآذاننا » .

على أيّ حال إن كثيراً من الأسئلة التي تدور حول مسألة المعاد والخلود وعقاب المسيئين وثواب المحسنين الواردة في القرآن المجيد ، يمكن أن يجاب عليها بأخذ عملية «تجسيد الأعمال» بنظر الاعتبار، وذلك باعتبار أن كل عمل حسن أو سيء يترك أثره في أرواحنا ، وأن ذلك الأثر باق معنا لا يفارقنا .

* * *

فكّر واجب

١ ـ هل تشبه حياة الإنسان يوم القيامة حياته في هذه الدنيا من جميع النواحي؟

٢ ـ هل نستطيع أن نفهم تماماً في هذه الدنيا ما في يوم القيامة من ثواب وعقاب؟

٣ ـ هل النعم في الجنة والعذاب في النار جسمانية فقط؟ .

٤ ـ ما المقصود بتجسد الأعمال ، وما الأدلة القرآنية على ذلك؟ .

٥ ـ كيف يجيب الاعتقاد بتجسد الأعمال عن الأسئلة التي تسأل حول موضوع المعاد ؟

* * *

الفهرست

القسم الرابع
معرفة الإمامة

الموضوع **الصفحة**

الدرس التاسع

الدرس العاشر

القسم الخامس
معرفة المعاد

الدرس الأول

الدرس الثاني

الدرس الثالث

الدرس الرابع

الدرس الخامس

الدرس السادس

الدرس السابع

الدرس الثامن

الدرس التاسع

الدرس العاشر